هذا هو الإسلام

(١٠)

الإسلام والتعددية

الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(١٠)

الإسلام والتعددية

الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة

الطبعة الأولى لمكتبة الشروق الدولية
١٤٢٩هـ - يناير ٢٠٠٨م

لقد نالت مخطوطة هذا الكتاب الجائزة العالمية للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بعمان، وجامعة درم، بإنجلترا، في العلوم الإنسانية والاجتماعية للعام ١٩٩٧م.

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي، القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٨ - ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٢٥٦٥٩٣٩
المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٣٩٣٨٠٧١ - ٢٣٩١٣٠٧٢
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(١٠)

الإسلام والتعددية

الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطني لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

عمارة، محمد، ١٩٣٤ .

الإسلام والتعددية : الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة ـ محمد عمارة

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨م

٣٠٤ص ؛ ١٧ × ٢٤سم . (هذا هو الإسلام؛ ١٠)

تدمك 978-977-6278 -02- 8

١ - التعددية .

٢ ـ الفلسفة الإسلامية .

أ . العنوان .

٢٤٧,٤

رقم الإيداع ٢٧٠٧٣ /٢٠٠٧م

الترقيم الدولي I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 02 - 8

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة
تمهيد	٧
التعددية والاختلاف: من سنن الفطرة.. والقوانين التي لا تبديل لها ولا تحويل	٢٣
إله واحد: له صفات الكمال.. والأسماء الحسنى	٤١
خلق واحد: وتعددية في المخلوقات	٤٥
دين واحد: وتعددية في الشرائع والمناهج والسياسات	٥٥
شريعة واحدة: وتعددية في الأحكام والإفتاء	٦٥
إيمان واحد.. وحقيقة واحدة: وتعددية في مراتب التصديق.. ومستويات الخطاب والمخاطبين	٨١
نزوع إنساني إلى المعرفة: وتعددية في نظرياتها	٩١
إنسانية واحدة: وتعددية في الأمم والشعوب والأجناس	١٠٧
أمة واحدة: وتعددية في الملل.. والأقوام.. والمذاهب.. والأحزاب	١١٣
تحضر إنساني: وتعددية في الحضارات الإنسانية	١٧٥
التعددية: بين «نعمة الوحدة» و«لقمة التفتيت»	٢٢٥
وبعد	٢٩١
المصادر والمراجع	٢٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

«التعددية»: تنوع مؤسس على «تميّز . . وخصوصية» . . ولذلك فهى لا يمكن أن توجد وتتأتى ـ بل ولا حتى تُتَصَوَّر ـ إلا فى مقابلة ـ وبالمقارنة ـ مع «الوحدة . . والجامع»؛ ولذلك لا يمكن إطلاقها على «التشرذم» و«القطيعة» التى لا جامع لأحادهما، ولا على «التمزق» الذى انعدمت العلاقة بين وحداته . .

وأيضًا: لا يمكن إطلاق «التعددية» على «الواحدية» التى لا أجزاء لها، أو المقهورة أجزاؤها على التخلى عن «المميزات ـ والخصوصيات» . . على الأقل عندما يكون الحكم على عالم «الفعل»، لا على عالم «الإمكان» و«القوة».

فأفراد العائلة: تعدد فى إطار وحدة العائلة، وفى مقابلتها . . والذكر والأنثى: تعدد فى إطار وحدة النفس الإنسانية . . والشعوب والقبائل: تعدد فى جنس الإنسان.

فبدون الوحدة الجامعة لا يتصور تنوع وخصوصية وتميّز، ومن ثم تعدد . . والعكس صحيح . .

وللتعددية مستويات، يحددها «الجامع . . والرابط» الذى يجمع ويوحد ويظلل وحداتها وأفرادها . . فعلى المستوى العالمى ـ مثلا ـ هناك تعددية الحضارات المتميزة، والقوميات المختلفة، المؤسسة على تعدد فى الشرائع والمناهج والفلسفات واللغات والثقافات، وبينها جميعًا جامع الاشتراك فى الإنسانى الذى لا تمايز فيه ولا اختلاف . . وعلى مستوى كل حضارة من الحضارات: هناك تعددية فى المذاهب

ومدارس الفكر وفلسفاتها، وتيارات السياسة وتنظيماتها، وقد تكون في بعض الحضارات تعددية في القوميات واللغات والأوطان.. تتمايز وحدات التعددية في الخصوصيات المتعددة، مع اجتماعها كلها في «رابط» الحضارة الواحدة و«جامعها»..

والتعددية ـ ككل الظواهر والمذاهب الفكرية ـ لها «وسط» ـ «عدل ـ متوازن» ـ ولها طرفا «غلو»، أحدهما «إفراط» والآخر «تفريط»! و«وسطها ـ العدل ـ المتوازن» هو الذي يراعي العلاقة بين «التميز.. والتنوع.. والتعدد» وبين «الجامع.. والرابط.. والوحدة».. بينما يمثل التشرذم «غلو القطيعة والتنافر» الذي لا جامع له.. كما تمثل «الواحدية» ـ المنكرة للخصوصيات والتمايزات ـ «غلو القهر» المانع من تميز الفرقاء واختصاصها»!..

وإذا كانت الرؤية الإسلامية قد قصرت «الوحدة»، التي لا تركب فيها ولا تعدد لها على الذات الإلهية وحدها، دون كل المخلوقات وجميع المُحْدَثات وسائر الموجودات في كل ميادين الخلق وعوالمه ـ المادية والحيوانية والإنسانية والفكرية ـ تلك التي قامت جميعها على التعدد والتزاوج والتركب والارتفاق.. فإن هذه الرؤية الإسلامية تكون ـ بهذا الموقف الثابت ثبات الاعتقاد الديني، بل جوهر هذا الاعتقاد ـ قد جعلت من التعددية ـ في كل الظواهر المخلوقة.. ـ «سنّة» من سنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الخلق والمخلوقات جميعا، و«آية» من الآيات التي لا تبديل لها ولا تحويل..

إنها «القانون» الإلهي، و«السنة» الإلهية ـ الأزلية الأبدية في ميادين الكون المادي، والاجتماع الإنساني، وشئون العمران الدنيوي وميادينه.. وبها تتميز وتختص «الوحدانية والأحدية» في ذات «الحق».. كما تتميز وتختص «التعددية» بكل ظواهر «الخلق»!..

وإذا كانت «الوسطية الجامعة» ـ في الرؤية الإسلامية ـ هي خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية، ومعلم من معالم المنهج الإسلامي، يشهد عليها القرآن الكريم المنبئ عن «جعل» الله سبحانه وتعالى ـ هذه الأمة أمة وسطا ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ [البقرة: ١٤٣].. وهي وسطية العدل أي التوازن الذي لا يقوم إلا بجمع عناصر الحق والصواب من طرفي غلو الإفراط والتفريط، وتمييزها وتأليفها موقفا ثالثا وسطا ومستقلا.. وذلك على النحو

الذى حدده الحديث النبوى الشريف الذى يقول فيه الرسول ﷺ : «الوسط : العدل، جعلناكم أمة وسطا» [1].

إذا كان هذا هو معنى الوسطية الإسلامية، فإن التعددية ـ الموزونة بميزانها ـ لا بد وأن تكون تميُّزا لفرقاء يجمعهم جامع الإسلام، وتنوعًا لمذاهب وتيارات تظللها مرجعية التصور الإسلامى الجامع، وخصوصيات متعددة فى إطار ثوابت الوحدة الإسلامية. و«جامع الإسلام» هذا لا يقف عند دائرة الاعتقاد الدينى الإسلامى وحدها، فيكون مانعًا لغير المسلمين من الوجود المتميز فى إطاره، وإنما هو شامل لدوائر الحضارة والثقافة ومنظومة القيم الإيمانية التى تجمع غير المسلمين فى هذه الدوائر المتعددة والمترامية الآفاق لجامع الإسلام ـ الأمر الذى يجعل هذه التعددية : نموًا وتنمية للخصوصيات، مع احتفاظ كل فرقائها، وأطراف الخصوصيات، وأفراد التنوع بالروح الإسلامية، والمزاج الإسلامى، وتواصل الفروع مع أصل الشجرة الطيبة لكلمة الإسلام، التى هى بلاغ الله إلى رسوله ﷺ وبيان هذا الرسول إلى العالمين! . .

من هذا المنظار ـ وهذا المنهاج ـ يكون طريق النظر الإسلامى إلى قضية التعددية، فيراها قانون التنوع الإسلامى فى إطار الوحدة الإسلامية.

* * *

إن كلّ من وما عدا الذات الإلهية ـ «الحق . . واجب الوجود» ـ من سائر أصناف «الخلق . ، والموجودات»، وكذلك سائر ميادين العمران البشرى، والفكر الإنسانى ـ قائم على الازدواج، والتعدد، والتركب، والارتفاق. سُنة من سنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وآية من آياته فى سائر عوالم الخلق، لا تبديل لها ولا تحويل. .

■ ففى «القوميات والأجناس» تعددية، يتحدث عنها القرآن الكريم باعتبارها «آية» من آيات الله فى الاجتماع الإنسانى، فيقول ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢]. . وهى تعددية فى إطار «جامع : الإنسان». .

---

(١) رواه الإمام أحمد.

■ وفى «الشعوب والقبائل» هناك تعددية تثمر التمايز الذى يدعو القرآن إلى توظيفه فى إقامة علاقات «التعارف» بين الفرقاء المتمايزين: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير(١٣)﴾ [الحجرات: ١٣]. . فتعددية التمايز إلى شعوب وقبائل قائمة فى إطار «جوامع التعارف» بين بنى الإنسان.

■ وفى «الشرائع والمناهج»، ومن ثم فى «الحضارات» ـ فضلا عن أم الرسالات الدينية ـ هناك تعددية يراها القرآن الكريم الأصل الدائم والقاعدة الأبدية والسنة الإلهية، التى هى الحافز للتنافس فى الخيرات، والاستباق فى الطيبات، والسبب فى التدافع الذى يقوّم ويرشّد مسارات أمم الحضارات على دروب التقدم والارتقاء. . فهى المصدر والباعث على حيوية الإبداع الذى لا سبيل إليه إذا غاب التمايز وطُمست الخصوصية بين الحضارات ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين(١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] . . حتى ليتحدث المفسرون لهذه الآية ـ عن هذا الاختلاف وذلك التنوع وتلك التعددية فى الشرائع والمناهج باعتبارها علة الخلق، فيقولون: إن المعنى «وللاختلاف خلقهم». . فكأنما التعددية هى علة الوجود! . .[1] ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨)﴾ [المائدة: ٤٨] فالتعددية هى الحافز على امتحانات وابتلاءات واختبارات المنافسة والاستباق فى ميادين الإبداع بين الفرقاء المتمايزين فى الشرائع والمناهج والحضارات. .

وفى إطار تعددية «الشرائع» تحت «جامع الدين الواحد» جاء الحديث فى القرآن الكريم عن نجاة أصحاب الشرائع المتعددة، إذا هم جمعتهم جميعاً أصول:

١ ـ الإيمان بالألوهية الواحدة. . والربوبية الواحدة.

٢ ـ والإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب والجزاء.

٣ ـ والعمل الصالح فى الحياة الدنيا.

(١) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ج٩ ص ١١٤، ١١٥، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾ [المائدة: ٦٩] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة: ٦٢]

بل وتحت جامع «النصرانية» و«أهل الكتاب» أشار القرآن الكريم إلى تعددية يتميز فيها الدين (إذا سمعوا ما أنزل إلى رسول الله ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) عن الدين لا يزيدهم هذا الذي أنزل على الرسول إلا (طغيانا وكفرا)!

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [المائدة: ٦٨]

وأهل الكتاب فرقاء متعددون، وليسوا سواء: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾

[آل عمران: ١١٣-١١٥]

وفي هذا الإطار نصاب «وحدة الدين» و«تعددية الشرائع» ما جاء القرآن بتقرير هذه الحقيقة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» [الشورى: ١٣] [illegible]

[illegible] «الأنبياء إخوة لعلات [illegible]

[illegible] دينهم واحد، وأمهاتهم شتى»

■ وفي «الرعية» لدولة الإسلامية الأولى - دولة المدينة، على عهد رسول الله ﷺ وهي فصلت الحديث عنها، وعن [illegible] علاقتها ومرجعيتها «الصحيفة» [illegible] (ولي) - في هذه الرعية ووفقًا لهذا الدستور، كانت هناك «التعددية» في إطار «وحدة الأمة» [illegible] لقد كانت [illegible] «الصحيفة» عنها وعن أحلافها وحقوقها، ووحدتها في إطار «وحدة [illegible]

[illegible] عنها «الصحيفة» ونصت أهم [illegible] تعدديتها في نطاق [illegible] ووحدة [illegible] والأمة بالمعنى السياسي. وعن هذه «التعددية» في إطار «الوحدة» نصت المواد الدستورية، فقالت:

«المؤمنون والمسلمون، من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس».

«وإن يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»

«وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم».

«وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله»[٢].

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لانتماءاتهم الفرعية المتعددة

■ [illegible]

[illegible]

وجامع الوحدة السياسية للأمة [illegible]

وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ([illegible]) [illegible] يروى أن نفرا من رءوس أهل الكتاب [illegible] على محمد وأصحابه [illegible] حتى [illegible] أهل كتاب [illegible] فيرجعون عن دينهم [illegible] فأنزل الله هذه الآية [illegible] والمؤمنين (١)

[illegible] عن الإسلام [illegible] الجامع السياسي [illegible] سياسية [illegible] جامع «الإسلام الدين» لأن «الجامع السياسي» في دولة الإسلام الأولى - قد اتسع لأكثر من [illegible]

وكذلك كان الحال مع «المنافقين» الذين «ارتدوا» عن الإسلام بقلوبهم، مع إظهارهم الانخراط في جماعة [illegible] فلأنهم قد حافظوا على وحدة الجامع السياسي [illegible]

---

(١) السيوطي (أسباب [illegible]) ص ٣٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢هـ والواحدي النيسابوري (أسباب [illegible]) ص ٧١ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م [illegible] القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٤ ص ١١١

تظهر الفلتات التي تفضح النفاق! لقد ظلوا في إطار الجماعة، واستمرت صحبتهم للرسول والمؤمنين. وظل الرسول ﷺ محافظاً على مقتضيات هذا الجامع، ومنبهاً من هَمَّ فطالب بقتلهم على خطأ قتل الأصحاب!.

وفيما يرويه الصحابي جابر بن عبد الله: «لما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن بين الناس بالجعرانة، قام رجل من بني تميم فقال:

- اعدل يا محمد!

- فقال ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟! لقد خبت وخسرت إن لم أعدل»!

- فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟!

- فقال ﷺ: «معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه»!.

فنحن أمام «منافق» ينظر الكفر ويظهر الإيمان، وهو في الدرك الأسفل من النار لأن النفاق أسوأ من صريح الكفر! - ومع ذلك يعتبره رسول الله ﷺ من «أصحابه» لأنه قد حافظ على الوحدة السياسية للأمة والدولة، وشارك في معاركها، وكان له كغيره - نصيب من غنائمها.. فاستعاذ الرسول ﷺ بالله من أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل من حافظ على الوحدة السياسية للأمة، حتى ولو كان قد فارق الإيمان الديني بالنفاق!.

■ بل لقد وسعت «وحدة الأمة الإسلامية» ألواناً من الانشقاقات السياسية بلغت حد الصراعات المسلحة لأن فرقاء هذه الصراعات قد ظلوا على ولائهم «للدولة الواحدة»، فحافظوا على «الجامع السياسي»، وعلى ولائهم «للدين الواحد»، فحافظوا على «الجامع الديني»، فكان قتالهم على «التأويل» لا على «التنزيل» وكانوا جميعاً - رغم القتال - على ولاء لوحدة الدولة ووحدة الدين.

ولقد كانت صراعات «الفتنة الكبرى» - زمن الراشدين - في هذا الإطار الذي

---

(١) رواه الإمام أحمد

وسعت فيه «وحدة الأمة» فرقاء بث نفسة وبث الصراع فيه بكل قسمهم ومخرج (أي منهم من «الأمة» ولا من «السنة»، ولا من «الدولة»!

وفي موقعة «صفين» (٣٧هـ/٦٥٧م)، التي مثلت قمة صراعات تلك الفترة، يتحدث الإمام علي بن أبي طالب عن «الجمع الديني» الموحد للفرقاء المتقاتلين، وكذلك «الجمع الدولة»، فيقول: «لقد التقينا، وربنا واحد ونبينا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان. ونحن منه براء»[1] فالدين واحد وجامع و«الأمر واحد» وجامع. والخلاف في «دم عثمان (بيّن)، فقط

ثم يرد الإمام على شبهة الخوارج وتأويلهم الفاسد الذي كفروه به معاوية وأهل الشام، فيقول: «إي والله لما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء ـ (الخوارج) من التكفير والافتراق في الدين، وما قتلناهم إلا لتردهم إلى الجماعة ـ (أي الجماعة السنية) ـ وإنهم لإخواننا في الدين، قبلتنا واحدة. ورأينا أنا على الحق دونهم»[2]

ثم يؤكد الإمام علي أن مصدر الصراع هي «شبهات» أثمرها «التأويل» فهي لا تخرج عن «أخوة الإسلام»، فيقول: «لقد أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل. فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا، ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا، رغبنا فيها، وأمسكنا عما سواها»[3] وعندما سُئل عن رأيه في «الخوارج» قبل الصراع؟!.. أجاب: «وإني أرجو ألا يُقتل أحد نقي قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة»[4]

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٧ ص ١٤١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م

(٢) الباقلاني (التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة) ص ٢٣٧، ٢٣٨، تحقيق محمود محمد الخضيري، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، طبعة القاهرة سنة ٩٤٧.

(٣) الإمام علي (نهج البلاغة) ص ١٤٧، ١٤٨، طبعة دار الشعب القاهرة.

(٤) الباقلاني (التمهيد) ص ٢٣٧

[illegible]

■ [illegible]

[illegible] «الشرع»، [illegible] فريق ثالث: [illegible] معاً.

[illegible] السيوف!

[illegible] إن [illegible] ليس من [illegible]، و[illegible] أيضاً من [illegible]، بل من الفقهيات[1]، [illegible] قسم يتعلق بأصول [illegible] واليوم الآخر [illegible] فروع».

[illegible] وزعم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة،

(١) «الاقتصاد في الاعتقاد» ص ١٣٤ [illegible]

وهي أن ينكر أصلاً دينيًا عُلم من الرسول ﷺ بالتواتر، لكن، في بعضها تخطئة، كما في الفقهيات، وفي بعضها تبديع، كالخطأ المتعلق بالإمامة، وأحوال الصحابة، وعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه تكفيرًا، فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الإمامة، ولا يلزم تكفيره ولا يُلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله ورسوله، ولا إلى خصومهم المكفِّرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة. فكل ذلك إسراف، إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلا، ومهما (متى) وُجد تكذيب وجب التكفير وإن كان في الفروع. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل»[٢].

فقد وسع الجامع التصدي [illegible] ﷺ هذه التعددية السياسية. التي تطلب في [illegible] الإسلامي قدمه صوب تعددية، وأكثر حدة في هذا [illegible]

■ وقد كانت «الأحزاب السياسية» المعاصرة هي «الجهد» التعددي في مجال «الصلاح» [illegible] الأحزاب الإسلامية في مصر [illegible] الإسلامي [illegible] «الأحزاب السياسية» التي عرفتها الحضارة الإسلامية، وهو ما سمي «وحدة الأمة في الأصول»، في مقابل التعددية الاجتهادية «في فروع الشريعة» أو «إصلاح المعاملات»، فروع العبادات» أصلا. وكان «الجامع الموحد» التعددية المذهبية» في الشريعة الإسلامية لوحدة الأمة، والتي وضع الفقهاء مذاهبهم في إطارها.

فالشريعة مثلت «وحدة» الطريق في [illegible] وما شرع الله لعباده من الأحكام التي [illegible] كل طريقة [illegible] أوجب تخصيص [illegible] وضع حتى ثابت من [illegible] الأشياء [3] التي أبيحت» و«حدا» جامع» و«ثابت» غير متغير ووضع إلهي» لا يدخل فيه [illegible] فهي بلاغ من الله للناس بواسطة الرسول

---

(٣) أبو البقاء الحنفي [illegible] ص ٦٨ [illegible] محمد [illegible] و التهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) [illegible] ص ٩٥٢ [illegible]

أن مذهب الفقه في ... بعد ذلك فيه في الاجتهاد ... بحكومة أحكام شريعة إلهية ومنسجم في نشأته ... بحكوم "بوضع إلهي" ... وهو "علم مستمد ... و الاجتهاد ... بدل نجاح فيه في سطر وانتأمل»

ولميّز «الفقه» عن «الشريعة» لا يُسمّى لله ـ سبحانه وتعالى ـ "فقه" كما لا يسمى المفتي «شارعًا»[1]!.

■ وإذا كان «جامع الإيمان» و«الموحد المؤسس» هو "المصدق ... بما جاء به ... في مقدمة ... "جامع" وصار هذا ... "فقه" يتسع بعد ذلك ليشمل "علم ... فيه ... بحيث ... "تأويل" ... بمواعد التأويل ـ التي ... وهي لا تخرج عن ... تصدق جامع ... بجامع ... في التعدديه في هذا الإطار ... يعني "مذهب" ... "جامع" الإسلامي" ... مع ... من فروق وتعددية في المصير ...

وإذا كان تعريف ابن رشد (٥٢٠ـ٥٩٥ هـ/ ١١٢٦ـ١١٩٨م) ... حيث دلالة "الفقه" في ... حقيقته في ... من ... يحتمل ... لسان العرب في "التجوّز" من "تسمية الشيء بشبهه، أو سببه، أو لاحقه، ... أو غير ذلك من الأشياء التي عُدّت في تعريف مصطلح "الكلام المجاز" ... في لاحقه يتوالى يُفصّل "المراتب الوجود" التي تتصورها ... لالات المتعددة "لما أخبر به الصادق" ... فصلاً يجعل تعددية ... من "تأويل جميع" ... مذهب ... تصورات ... يجعل مسلم بموجودات التي تحدث عنها ... التي "تأويل" ... في تصورها ... فالاختلاف ... في ... هذه "تأويلات" و"تصورات" ... مذهب" ... "تكذيب" "بصاحب" ... عليه الصلاة والسلام لأن "تكذيب" هو "تكذيب" ... في شيء مما جاء به، ولا يصدق "بصدقه" في جميع ما جاء به ... وخطئه

---

(١) الجرجاني (التعريفات) طبعة بلغاريا سنة ١٩٣٨م.

(٢) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٣٢ ... ومحققين د. محمد عمارة ... طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣م.

[illegible] لاعتراف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده [illegible] الوجود [illegible]

الوجود الذاتي: وهو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل، ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة، فيسمى أخذه إدراكاً.

والوجود الحسي: الذي يتمثل في القوة الباصرة من العين، مما لا وجود له خارج العين، فيكون موجوداً في الحس، ويختص به الحاس، ولا يشاركه غيره، وذلك كما يشاهد النائم، بل كما يشاهد المريض المنبسط.

والوجود الخيالي: وهو صورة هذه المحسوسات [illegible] عن الحس [illegible] خارج صورتها في الخيال.

والوجود العقلي: [illegible] روح وحقيقة ومعنى [illegible] ومتخيلة، ولها معنى هو حقيقتها، وهي القدرة على التطور التي هي «اليد العقلية».

والوجود الشبهي: وهو أن لا يكون نفس الشيء موجوداً، لا بصورته ولا بحقيقته، لا في الخارج ولا في الحس ولا في الخيال ولا في العقل، ولكن يكون الموجود شيئاً آخر يشبهه في خاصة من خواصه وصفة من صفاته.

وكل من نزّل قولاً من أقوال صاحب الشِّرْعَة (ﷺ) على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين، وإنما التكذيب: أن ينفي جميع هذه المعاني، ويزعم أن ما قاله لا معنى له، وإنما هو كذب محض، وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا، وذلك هو الكفر والزندقة، ولا يلزم كفر المتأولين ما داموا يلازمون قانون التأويل [illegible] وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه؟ [illegible]»

هكذا [illegible] الإسلامي في [illegible] «وحده وجامع التصديق» [illegible] الصلاة والسلام[1].

وهكذا ظل «الجامع الإسلامي» الذي وحد الأمة والعقيدة والحضارة ودار الإسلام، ظل تعدديه في اللغات والأقوام [illegible] وفي الأوطان والأقاليم

(١) (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص ٤ - ٩

المتمايزة.. وفي طرق السياسة.. وفي المذاهب الفقهية.. وفي التيارات الفكرية والمدارس الفلسفية.. وأيضاً في الشرائع خلال الرسالات الدينية، فأوجدت تعددية الاجتهادات البشرية، في إطار جامع ثابت يتمثل في أصول الإيمان بالله الواحد، واليوم الآخر، وخير الصادق عليه الصلاة والسلام.

* * *

من هنا «السبيل الإسلامية» التي حددها الإسلام - والتي تميزت بها شريعته، في «حل التناقضات» بين فرقاء التعددية وأقطاب الاختلاف - جاءت طبيعتها ومقاصدها تتكرس قيم هذه «التعددية» عند المستوى الوسطي، الذي لا يذهب بها إلى «إلغاء الآخر» و«نفيه» ولا إلى «التشرذم» و«القصيعة» التي لا رابط ولا جامع يوحد بين فرقائها. فقد رفض الإسلام مذهب «الصراع» سبيلاً لحل التناقضات بين فرقاء التعددية؛ لأن «الصراع» غايته «صَرْع» و«إلغاء» و«نفي الآخر»، ومن ثم فهو ينفي التعددية وينفيها. هكذا جاء التعدد في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كما في قصة ثمود فأهلكوا بالطاغية (٥) وأما عادٌ فأُهلكوا بريح صرصر عاتية، (٦) سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧) فهل ترى لهم من باقية (٨) ﴿الحاقة: ٥ - ٨﴾

فالصراع مع هذه الأطراف الأخرى، حتى لا يرى فيهم من وقفة [illegible] في حل التناقضات بين فرقاء التعددية وأقطاب الاختلاف يلغي التعددية في مقاصدها ومعانيها ووجودها.

وبدلاً من «الصراع» سبيلاً لحل التناقضات بين فرقاء التعددية، زكى الإسلام «السبيل المتدافع» الذي لا يتعب «النفي الآخر»، وإنما يستهدف «تعديل موقعه» من «المعسكر الإسلامية جامعة ولصيقة والحكمة»، فهو «حراك» لا «إهلاك»، و«تعديل» في المواقع والمواقف لا «نفي وإلغاء» للآخرين..

وعندما يخطط الله - سبحانه وتعالى - رسوله [illegible] ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

حسم (٣) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (٣٥)
[فصلت ٣٤، ٣٥] فإنه يصبح معناها هنا: الحسنى تدفع السيئة الصغرى لأخرى
بعدها، وتتحول من موقفه وموقعه من «العدو» الذي يخجله من أهل «السيئات»
إلى موقع وموقف «ولي حميم» الذي يخجله من أهل «الحسنات»! فيتم «الحراك»
بواسطة «التدافع»، مع بقاء «تعددية الفرقاء المتمايزين»!

ولقد حث القرآن الكريم على هذه «الحسنى الإسلامية» - «السيئة تدفع» لا
«تصبر» - بعشرات الحوافز التي تدفع الخيرة والصبر في الأرض دفعاً ولداً
وهذا يعني قيام مجتمعات متعددة، يدفع بعضها بعضاً، لأنه مستحيل بدون وجود
مثل هذا «التدافع»: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله
ذو فضل على العالمين (٢٥١)﴾ [البقرة ٢٥١].

وعندما أذن الله - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالقتال ضد من
أخرجوهم من ديارهم، وفتنوهم - فتنوهم في دينهم - جاء الحديث عن «التدافع»
ليكون عامل تقدم هي تعديل مواقف المشركين من موقع العداء المشرك إلى
موقف السلام المؤمن، فهي «حرب» لا «سلم وسلام»: ﴿إن الله يدافع عن الذين
آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور (٣٨) أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على
نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع
الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله
كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠) الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا
الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (٤١)﴾ [الحج
٣٨ - ٤١] وعندما كان الأمر يوم فتح مكة هو حسم القتال وكسب نصره هذا
الفتح بعض المشركين وصديدهم في إعلان رسول الله ﷺ فيهم: «ذهبوا فأنتم
الطلقاء»!!

فهي - إذن - حسنى إسلامية واضحة!

«التعددية» في إطار «الجامع» و«التنوع» في إطار «الوحدة»، بعينه طرف منهما يغيب المعنى وتغيب الحكمة عن الطرف الآخر!.

■ «فالشرائع» المتعددة لا تتأتى تعدديتها إلا في إطار «الدين الواحد» وبالنسبة إليه، وبالمقارنة معه..

■ و«الحضارات» المتعددة، لا تتأتى تعدديتها إلا في إطار «المشترك الإنساني العام» المتميز عن الخصوصيات الحضارية..

■ والتعددية داخل أية حضارة من الحضارات لا تتأتى إلا مع وجود المرجعية الواحدة والجامع الواحد، في هذه الحضارة.. فلو انتفت المرجعية الواحدة ـ والموحِّدة للحضارة ـ انتفى معنى «التعدد» في هذه الحضارة أيضًا!

فلا تعددية بدون «استقلال».. وتميز» لحضارات هذا العالم الذي نعيش فيه! ولا تعددية بغير حق الاختلاف لكل الفرقاء المختلفين في مواطن الاختلاف!..

ولخطر هذه القضية في واقعنا الفكري ـ المحلي.. والعالمي ـ [illegible] على مستقبلنا [illegible] وإنسانية ـ.. وما تتعرض له مقولاتها من [illegible] وغموض أحيانًا، وإنكار في كثير من الأحايين [illegible] كانت ضرورات التفصيل والتأصيل والإحاطة بقضايا وضوابط هذه «التعددية»

وتلك هي مهمة فصول هذا الكتاب

* * *

التعددية والاختلاف

من سنن الفطرة..

والقوانين التى لا تبديل لها ولا تحويل

الإسلام [illegible] الفطرة [illegible]

[illegible] يولد على الفطرة، أى على [illegible] الإيمان الفطرى بخالق صانع، هو الله

وفى الإسلام تبلغ التعددية المؤسسة على طبع وسجية [illegible] والاختلاف [illegible] الفطرة التى فطر الله الناس عليها [illegible] لكنها سنة من سنن الله لا تبديل لها ولا تحويل

[illegible] الاختلاف، ومكان التعددية، [illegible] الإسلامية، كان القرآن الكريم [illegible] والتدبير للعمران هو المصدر الأول لالتماس موقف الإسلام من التعددية والاختلاف.. فنحن بإزاء هذه القضية لسنا حيال «فكرة حديثة أو طارئة» ابتدعناها أو استعرناها [illegible] «جَعْل إلهى»، وسنة «أزلية - أبدية» قد فطر الله عليها جميع المخلوقات [illegible] ولن يكون الناس نمطاً واحداً [illegible] فرداً [illegible] ولا يزالون مختلفين ﴿ولو شاء ربك جعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ( ) إلا من رحم ربك وبذلك خلقهم﴾ [هود ١١: ١٨، ١٩]

وإذا كانت الإنسانية والبشرية قد بدأت بآدم وحواء - أمة واحدة، في الدين والشريعة - فإن تحول هذه الأمة الواحدة إلى أمم قد اقتضى التعددية في شرائع الرسل تعدد أمم الرسالات. فكانت سنة التعددية هي التي تتلاءم مع الإنسان: ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٢١٣)﴾

[البقرة، ٢١٣]

فإذا كانت التعددية البشرية - لأمة الواحدة، التي بدأت متحدة في عقائدها وأصول شرائعها ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فتعددت بعد ذلك مرحلة بعد مرحلة بتعدد الرسالات والرسل والأنبياء، لتعدد الأمم التي لا تحتمل في أحيان كثيرة وحدة الرسالة، لتعدد متعددة، والكتب متعددة. فكانت التعددية في شرائع متغايرة وحدة بين، وذلك ليحكم الله من خلال تلك التعددية بشرائع المتعددين بين أمم متعددة، فيحسب فيه هذه الأمم - والاختلاف هنا طبيعي، وغير مذموم ﴿فبعث اللَّهُ النَّبِيِّينَ مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ فهو اختلاف في شرائع - والفاء التي تعطف في (فبعث) تجعل هذه المرحلة - مرحلة التعددية البشرية - مرحلة لاحقة لمرحلة الأمة الواحدة السابقة -.

أما الاختلاف الآخر - في داخل الأمة الواحدة، المحاطة بالشريعة الخاتمة، وبعد مجيء كتابها بالبينات - فهو مغاير للاختلاف المحمود والطبيعي؛ لأنه اختلاف في الشريعة الواحدة الخاتمة، وليس اختلاف شرائع أم الرسالات المتعددة في إطار وحدة الدين، ولذلك عطف (بالواو) - الدالة على المغايرة للاختلاف الأول - ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة ٢١٣] - فاختلاف الشرائع هو تنوع طبيعي في إطار جامع

(*) انظر محمد عبده الأعلام، ط القاهرة ج ٥ ص ٢٥ وما بعدها، د. محمد عمارة، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٣م

الدين الواحد، أما الاختلاف في أصول الاعتقاد الديني أو أصول الشريعة الواحدة فإنه تشرذم وتقطيع، والخلاف الذي لا جمع لأقطابه وفرقائه.

ولأن هذه هي حقيقة الوقف [illegible] من التعددية عندما تكون نوعًا في [illegible] وحدة، وهو الموقف الذي رسمته سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عندما جعلهم متعددين في الجنس واللون والعرق والعلم، حتى لكأنك كل إنسان هو بصمة مميزة في بطاقة الجنس البشري، هذه الخصلة التي كان اجتماع المفسرين عليها، من كل المذاهب والدعاوى، [illegible] قد جعلهم يعدّون الاختلاف نوعًا من التنوع في الجنس البشري، فقالوا: «ولا يزالون مختلفين» [1]. ويحدثنا الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه «التفسير المنير» للشيخ محمد متولي الشعراوي، ص ٢٨٢، ٣٥٤ هـ ٨١٥ ٩٣٥ م، يقول: «والذي نفهمه من الكلام من مشيئته تعالى في الناس خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وإدراكهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ومن ذلك الدين والإيمان والطاعة والعصيان. فالاختلاف طبيعي في البشر، وفيه من الفوائد والمنافع العلمية والعملية ما لا تصور مزاياه نوعهم بدونه. وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم، وحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتاب الله الذي لا مجال فيه للاختلاف» [2].

والمفسر الدكتور عبد الكريم الخطيب يقول: «إن اختلاف الطبائع المنتهية إلى اختلاف السنن أمر لا مناص منه في العالم الإنساني. ذلك أن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد، مما يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية، وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية التي لولاها لم يعش المجتمع الإنساني» [3].

[illegible] الجامع لأحكام القرآن) ج ٩ ص ١١٤، ١١٥

[illegible] التفسير [illegible] ج ١٢ ص ١٩، ٢٢، طبعة دار المعرفة بيروت. وقد كان مفصلًا في جمع كثير من [illegible] بين جزء هذه السنة [illegible] محمد [illegible] صور [illegible] الإنسانية في [illegible] الكريم) ج ١ ص ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٥، طبعة القاهرة سنة ١٤١٦هـ [illegible] سنة ١٩٩٥م

(٣) (بيان في تفسير القرآن) ج ١١ ص ٦٠ طبعة بيروت سنة ١٣٩٢هـ/ سنة ١٩٧٢م

والتعددية والاختلاف الصحي في البشر. خلقوا مستعدين له» ومجبولين عليه.
وسنة مستمرة ومتجددة في الناس والتعدد مصدر الحياة. لمادتها ومهما والفكرية على السواء.
وتعارضه مع الإسلام بمعنى « وكيف يجتمعون على الإصغاء - (لرأي واحد).
وقد حُكم عليهم في الأزل بأنهم لا يزالون مختلفين.. إلا من رحم ربك ولذلك
خلقهم»

التعددية والاختلاف «الحق الذي» ليس مجرد [illegible] من حقوق الإنسان

وإذا كان [illegible] كثيرة من دوافع ومسببات الاختلاف [illegible] الجميع
الإسلام هو ضرورة الاختلاف [illegible] ليس بحتم أن يكون الناس مختلفين في
جوهرهم [illegible] في تفكيرهم وليس بحتم في الحكمة أن يكونوا لا
يختلفوا، وليس بحتم أيضا أن يُصمَّم الجنس البشري [illegible] لا يتغير»[2]

[illegible] الله سبحانه وتعالى - قد خلق كل شيء فقدره تقديرا [٢]
[illegible] ما نرى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور [٣]

في هذا الاختلاف والتنوع [illegible] قضية [illegible] حكمة [illegible] أنه
هو الذي [illegible] التعدد والتنوع [illegible] يتجلى على [illegible] في
[illegible] من كل فريق [illegible] عاقلة يختلفون عن الآخرين [illegible] هذه
التعددية وهذا التنوع والاختلاف [illegible] الإنسان [illegible] بين
[illegible] بين الأفراد والأمم [illegible] والمجتمعات [illegible] وكذلك [illegible]
[illegible] وهو [illegible] الحكمة فيها [illegible] التنوع الإنساني [illegible]
والاختلاف [illegible] والتنوع [illegible] وجود [illegible] فالإنسان [illegible]
والاختلاف هو [illegible] الإبداع والتنوع في [illegible] والاختلاف
يسمح لاعتقاد بوحدة النموذج الفكري والحضاري هو باب الجمود والشبه، ومن ثم
السكون، وبدون [illegible] الإبداع [illegible] وما شاء الله فخلقكم الله وحدة

---

(١) [illegible] القاهرة مكتبة الجندي بدون تاريخ

(٢) أبو حيان التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة) ج٣ ص٩٢ تحقيق أحمد أمين [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٤م

ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨].

لهذه الحكمة الإلهية [illegible] جعل الله الناس مختلفين. وعن هذه الحكمة تحدث [illegible] ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾ [الحج: ٤٠] وفي [illegible] هذه الحكمة الإلهية [illegible] (١٣٢٤-١٣٨٦هـ / ١٩٠٦-١٩٦٦م) [illegible] يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض، و[illegible] الاختلاف في [illegible] ولقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، [illegible] فيها من مكنونات مذخورة، وتظل [illegible] قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان».

[illegible]

[illegible]

سوع و حتلاف في إطار جامع لأصول ثوابت و حده ... «ولا كن حلاف بينهم ضرورة ـ لأنه من صنع بشر ـ وجب عليهم أن يتحاكموا فيه إلى كتاب و نسنه حتى يردوا ، ولا يجوز أن يقضى فيه ... فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول »

[سورة النساء: ٥٩]

فتنوع و لاختلاف ـ طبيعي و محمود ـ لا يكون في الأصول الجامعة ... وقد حدث الخلاف في الأصول الجامعة كان «تنازعًا» وليس «تنوعًا»، وشتان حلاف في لدين، أي في الموضع لأبي شتات، أي في «الجامع ... لموحد»، وليس في إطار الجامع الموحد!..

فلا بد من «جامع» لتنوع، ومرجع للاختلاف، ومشتركات بين متعددين، حتى يكون لتعددية وسطية لا تمزق بين قصى تنوع لإفراط و لتمزيق ... متردم ... لجامعة هي لا تجمع لتفرقهم ـ والواحدة ظاهرة تستحق و شكره تنوع و لاختلاف ـ ذلك «أن الناس ـ في أصل جبلتهم، وبدء خلقهم ـ قد افترقوا مجتمعين واجتمعوا مفترقين واختلفوا مؤتلفين، وائتلفوا مختلفين[2]...!».

* * *

ورد كلمة «الاجتهاد» فريضة إسلامية دائمة؛ لأنه أداة مستمرة لاحكام شرعية خولته من مصدر وحي إلهي الملاءم تغيرات وتبيان سهولة لها ... ملاءمة يتوقف بقاء شريعة لإسلامية حية وفعالة، ومستجيبة لحكم مهمة مستجدات بزمان والمكان و لمصالح ... عدات، لا عرف ... فهو ... لمجتهد السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥م) «فرض من فروض الكفاية في كل عصر، ووجب على أهل كل زمان أن تقوم به طائفة من كل قطر»[3]... غير فريضة الاجتهاد هذه لا تأتي إلا مع التعددية والاختلاف في الاجتهادات.

---

(١) الإمام محمد عبده (أعماله الكاملة) ج٤ ص ٤٠٧

(٢) أبو حيان التوحيدي (المقابسات) ص ٨٣ ـ تحقيق ... محمد توفيق حسين ... طبعة دار الآداب ... بيروت سنة ١٩٨٩م

(٣) ... عن من جنى ... جهد الاجتهاد في ... عصره ... ص ٩١ ... طبعة بيروت سنة ١٤٠٣هـ/ سنة ١٩٨٣م

إن الإسلام لم يعرف «الثانوية» المعصومة التي تحصر فهم الشريعة وفقه الكتاب وتشريع الأحكام في فرد واحد دون بقية القادرين على الاجتهاد. ثم يعرف الإسلام بل يكرر وجود «ولي أمر» الاجتهاد، وإنما جعل الاجتهاد فريضة كفائية اجتماعية على «ولي الأمر» العلماء القادرين على هذا الاجتهاد، الذي لا بد معه من التعددية في الاجتهادات. «فلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٢) وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً (٣)» (النساء: ٨٢، ٨٣). ويعود المجتهدين لا بد أن يثمر تعدد وتنوع واختلاف الاجتهادات، التي يمكن أن تتبلور في مذاهب ومدارس وتيارات.

وسد العصر النبوي، وفي ظل الولي الرسول الوحي، ووجود المعصوم ﷺ، كان الرسول هو أول الداعين والحافزين لصحابته بالفقهاء والقضاة على الاجتهاد وتنمية ملكاتهم في استنباط الأحكام، فهو القائل: «من اجتهد برأيه فأصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد»[1]

وإذا كان حديث رسول الله ﷺ إلى قاضيه على اليمن - معاذ بن جبل - قد اشتهر في الفقه والتشريع بفريضة الاجتهاد في استنباط الأحكام، وهو الحديث الذي جاء في صورة حوار بين الرسول وبين معاذ، بدأه ﷺ بقوله لمعاذ:

- كيف تقضي إن عرض لك قضاء؟».

- قال: أقضي بكتاب الله»؟

- قال: «فإن لم يكن في كتاب الله»؟

- قال: فبسنة رسول الله ﷺ.

- قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله»؟

- قال: أجتهد رأيي ولا آلو

---

(١) البخاري والنسائي وابن ماجه [illegible]

ـ قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسوله»[1].

[illegible] الاجتهاد [illegible] رضي الله عنه [illegible] على [illegible] الاجتهاد [illegible] في الحكم [illegible] عمر [illegible] وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، [illegible] بن ثابت [illegible] الخدري، ومعقل بن يسار، وعقبة بن عامر، وحذيفة بن اليمان [illegible] بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، ودحية الكلبي، وأبي بن كعب [illegible][2]

وهكذا [illegible] الاجتهاد [illegible] الاجتهاد [illegible] الاجتهاد [illegible] الإسلامي [illegible] في حضارة الإسلام».

[illegible] الأصول [illegible] في الاجتهاد [illegible] المجتهد [illegible] الحكم [illegible] «حكم الله في حقه» [illegible] (٤٨٤هـ / ١٠٨٥م) [illegible] الحكم [illegible] ينعقد الإجماع على أن كل مجتهد إذا غلب على ظنه حكم فهو حكم الله تعالى في حقه، وحق من قلده»[3].

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible] ص ٢٣ - ٣٥ [illegible] ٩٧٨ م.

(٣) [illegible] ٩٩ [illegible]

ويحق لمجتهد تأسيس حكمه لاجتهاده" اجتماعي "موسى" عند عصر النبوة، وفي حديث رسول الله ﷺ قضى بوجوه لإدلاء ثبت مسنده إلى علي بن أبي طالب أنه قال: قلت يا رسول الله ﷺ لأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة؟ قال: «اجمعوا العابد من المؤمنين، واجعلوه شورى بينكم، ولا تقضوا فيه برأي واحد» فيسمى هذا الإفتاء والاجتهاد الجماعي في صناعة فقه القضاء لم يكن في الأمر كتاب ولا سنة

وبعد وضع الخلافة الراشدة سنة هذا الإفتاء الجماعي في الاجتهاد بعده وصار يعتبر الحكم المجتمع وضعها في سنة، تنظيم "الفعل الجماعي" في أن أبو بكر، قضى في [illegible] ولم يجد فيه قضاء في كتاب الله، فإن جاءه من يقضي بقضاء قضى به، وإن لم يجد في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى به، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين، وقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء، فيقول: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا نبينا، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به..»[2].

فيرتبط القضاء لاجتهاد [illegible] لاجتهاد الجماعي [illegible] خاصة فيما يتعلق بالشأن العام وهو ما يكفله الاجتماع السياسي الذي يتوجه التكليف فيه إلى الأمة، وتعم أحكامه سائر الناس

وفي حقب عمر بن الخطاب تم قضى شريح بن الحارث الكندي (١٨هـ ٦٩٧م) بقوله: «لا أجد شيئاً في كتاب الله فقضى به، ولا سنة عن رسول الله ﷺ فيما مضى في كتاب الله، فقضى بما قضى به رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله ﷺ، فأنظر ما اجتمع عليه الناس

---

(١) [illegible] (إعلام الموقعين) ج ١ ص ٧٣، ٧٤ والنقل عن د. جمال الدين عطية "نظرية العامة بشريعة [illegible] الإسلامي" ص ١٩٦ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٨ م

(٢) رواه الدارمي

فخذه، فإن جاءت به على نعت الله، فلا أراه إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به على نعت [illegible] فلا أراه إلا قد كذب عليها، فجاءت به على النعت المكروه»[1].

هذا هو موقف الإسلام من قضية الوراثة، وهو موقف يتفق مع الحقائق العلمية الثابتة، ويتفق مع العدالة التي ظهرت بها الشريعة الإسلامية في جميع أحكامها.

* * *

وقد ظلت هذه القاعدة هي حكم الإسلام في هذا الموضوع، لا يجوز الخروج عليها باجتهاد أحد، ولا استثناء من تطبيقها لاجتهاد آخر، وهو حكم ثابت لا يتغير على مدى العصور، لأنه مستمد من حكم الله الذي لا يتغير ولا يتبدل، ومن قضائه الذي لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه. وقد ظلت هذه القاعدة هي القانون الذي تطبقه المحاكم الإسلامية في جميع الأقطار التي دخلت في حظيرة الإسلام، وفي جميع العصور التي تعاقبت على هذه الأقطار، منذ عصر الخلفاء الراشدين (٩ ـ ٥٨ هـ / ٦١٤ ـ ٦٧٥م) إلى عصر الخلافة العثمانية (٩٢٣ ـ ١٣٤٢هـ / ١٥١٧ ـ ١٩٢٤م) على مختلف المذاهب الإسلامية المعتمدة، وفي كل الأمصار، فلا نعلم أحداً من مجتهدي الفقه الإسلامي في تلك العصور، مكيين أو حنفيين أو مالكيين أو شافعيين أو حنابلة أو غيرهم، خالف هذه القاعدة في قضية من القضايا، ولم يتبعها في حكم من الأحكام التي قضى بها كل قاضٍ من قضاة المسلمين، ثم وقع عليها توقيعه بالصحة، وهو ما يسمى بالتصديق على الحكم، أو بالإمضاء عليه، وهو ما يسمى بالتنفيذ، وهو ما يسمى بالإلزام، وهو ما يسمى بالإبرام، وهو ما يسمى بالإقرار، وهو ما يسمى بالإثبات، وهو ما يسمى بالتسجيل، وهو ما يسمى بالتوثيق، وهو ما يسمى بالتأكيد، وهو ما يسمى بالتأييد، وهو ما يسمى بالتصديق، وهو ما يسمى بالإمضاء، وهو ما يسمى بالتنفيذ، وهو ما يسمى بالإلزام، وهو ما يسمى بالإبرام، وهو ما يسمى بالإقرار، وهو ما يسمى بالإثبات، وهو ما يسمى بالتسجيل، وهو ما يسمى بالتوثيق، وهو ما يسمى بالتأكيد، وهو ما يسمى بالتأييد.

ومن أهم مبادئ القضاء في الإسلام، التي اتفق عليها جميع الفقهاء، مبدأ حرية القاضي في الاجتهاد والحكم بما يراه موافقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، ومن أهم

(١) ولي الدين المقسوي (حجة الله البالغة) ج ١ ص ١٤٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٣هـ.

٢ [illegible]

٣ [illegible]

والتي تضم أقاليمها وولاياتها كثيراً من الأعراف والعادات، والمختلف من الاجتهادات، والمتعدد من مذاهب الفقه الإسلامي..

وبعد أن تصور فدخل إلى مكتبته بمفرده فأشار بهدم أثر ما على الإمام مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥م) مقترحاً عليه اجتهاد مالك، وكتاب (الموطأ) قانوناً واحداً يحل محل تعددية الاجتهادية في مصر دار الإسلام. لكن الإمام مالك انطلاق من مكانته التعددية في نزوله الإسلامية، ودورها في تركيبه وتنميته الاجتهاد في الإسلام ـ رفض هذا الاقتراح ـ رغم ما فيه من اختيار لاجتهاداته، وسيادة لمذهبه ـ. فعندما قال له المنصور:

«لقد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي صنعتها فتُنسَخ، ثم أبعث في كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وأمرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوه إلى غيره»

كان جواب الإمام مالك الرفض والنهي عن توحيد الاجتهادات في فقه المعاملات ـ وهو علم الفروع ـ فقال للمنصور: **«يا أمير المؤمنين: لا تفعل هذا. فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم».**

وبعد أن هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩م) قد أعاد الكرة مع مالك «فشاوره في أن يعلق الموطأ على الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه» فأعاد مالك الرفض مالك، وقال للرشيد: **«لا تفعل؛ فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل سُنَّة مضت»** فقبله الرشيد ورضي مالك، وأثنى عليه، فقال: «وفقك الله يا أبا عبد الله»[1]

فتصورت التعددية في فروع فقه المعاملات لمستطيله بجميع مبادئ الشريعة وقواعدها وطويت محاولة سدنة بعض التعددية في الاجتهادات وصنعت سدنة الإسلامية عبر تاريخها الخصب في تنسيق مبادئ الاجتهادات عبناء الأمصار وقصده الأقاليم في فقه المعروف ولم تعرف هذه الدولة القانون الموحد إلا بعد دخول وضمور

(١) حجة الله البالغة، ج ١، ص ٩٥.

وتوقف الاجتهاد في فقه المعاملات، وعدت وضعت بدوره بعثمانية «المجلة الأحكام العدلية» سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م وأنى وقف تقنينه ـ عندما عند جمع نقوله وتبويبها، نصيب الأوساط مصوحة أمام تمرير تقنين، المستمدة من هذه النقول عند تغاير العادات والأعراف والمصالح في مختلف الأقاليم والولايات.

بل إن مالك بن أنس إمام دار الهجرة ـ الذي أعلى من مقام «عمل أهل المدينة» حتى رأى ضرورة التزامه في كل أمصار المسلمين، واعتباره «السنة العملية» الموروثة عن نصف عصر النبوة ـ نجد الليث بن سعد (٩٤ ـ ١٧٥هـ ٧١٣ ـ ٧٩١م) وهو من هو بين علماء الفقه الإسلامي يرجع في هذا الرأي، ويكتب إليه صفحة مشرقة في الدفاع عن حق علماء الأمصار في تعددية الاجتهادات، حتى في الاختلاف مع «عمل أهل المدينة» .. يكتب الليث إلى مالك فيقول:

«... وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة، وبروك من بروك عليه من طهري أصحابه، ومن عظمهم الله به، وأن الناس صاروا به بعدهم فيه، فكذلك ذكرت

وأما ما ذكرت من قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (...)﴾ [التوبة . ١٠٠] فإن كثيراً من السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة.. فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يزالوا عليه حتى قُبضوا، لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يحوز لأجناد المسلمين أن يُحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا في الفتيا في أشياء كثيرة ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ ـ سعيد بن المسيب ونظراؤه ـ أشد الاختلاف، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها، ورأسهم يومئذ ابن شهاب، وربيعة بن أبي عبدالرحمن، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفتَ وحضرتَ.. ومن ذلك:

القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق، وقد عرفت أنه لم يرد يُقضَى بالمدينة به، ولم يقض به أصحاب رسول الله ﷺ بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، ثم ولي عمر بن عبدالعزيز، وكان كما قد علمت في إحياء السنن، والاجتهاد في إقامة الدين، والإصابة في الرأي والعلم بما مضى من أمر الناس، فكتب إليه رُزيق بن الحكم:

إنك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق

فكتب إليه عمر بن عبدالعزيز:

إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة، فوجدت أهل الشام على غير ذلك، فلا تقضي إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين

ولم يجمع - (عمر بن عبد العزيز) - بين المغرب والعشاء قط بيله المطر، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بحذصورة ساكب - (وأهل مدينة يجمعون) - ومصر الشام أكثر من مطر المدينة مما لا يعلمه إلا الله، ثم يجمع منهم إمام قط في ليلة مطر، وفيهم أبوعبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل. . »[1]

قد قطع الليث بن سعد عن جل علماء الأمصار في عصره الاجتهاد في [illegible] دون أن يلزم منهم بالعمل أهل المدينة من وسائل الشهادة على الحقوق في غير المدينة على اجتهاد به فيها، فعمر بن عبدالعزيز وهو يرى على أهل المدينة أن يأخذوا بما يذهب إليه، فيما وقع خلافاً له، يشاهد من اجتهاد أهل الشام فكان يسير في هذه المجرى مع صنيعة الشافعي (٥٠ - ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ - ٨٢٠م) عندما صحح في مصر ما ذهب جديد خالف به ما ذهب إليه في القديم الذي سبق به عندما كان بالعراق[2].

---

١ - [illegible] رسالة صغيرة من أعمال جلسات [illegible] الدولية

٢ - [illegible] (الموقعين عن رب العالمين) ج٣ ص ٨٣ - ٨٦ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

فهذه تعددية في الاجتهادات هي التعبير عن الاختلاف المشروع في [illegible] المتميزة بتميز واقع الأمصار والأقاليم، والاختلاف نظر المجتهدين في [illegible] الأحكام.

وهذه التعددية في الاجتهادات [illegible] الفروع لا تمس خلافاً في [illegible] ولا تفرق المسلمين في الدين. ومن هنا يرى الشافعي أن الاختلاف جائز في الفروع، وفيما يجوز فيه التأويل - وبين الخلاف المحرم فيما حسم أمره بيّنات [illegible] الكريم [illegible] «إلى أحد أهل العلم - قديماً وحديثاً - محتفين في بعض أمورهم فهل يسعهم ذلك؟» [illegible] الاختلاف من وجهين: أحدهما مُحَرَّم، ولا أقول ذلك في الآخر، فالاختلاف المُحَرَّم كل ما أقام الله به الحجة، في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً بيّناً، لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه. وما كان من ذلك يحتمل التأويل، ويُدْرَك قياساً، فذهب المتأوّل أو القياس في معنى يحتمله الخبر أو القياس، وإن خالفه فيه غيره، لم أقل إنه يُضَيِّقُ عليه ضيق الخلاف في المنصوص، ويبيّن فرق ما بين الاختلافين [illegible] قول الله في ذم التفرق [illegible] وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة [illegible] [البينة: ٤] ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات [illegible] [آل عمران: ١٠٥] فذم الاختلاف فيما جاءتهم به البينات»[٢].

وهذا الشاطبي (٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) [illegible] عبد العزيز بن عبد السلام في «الافتراق في الدين» وهو المحرم [illegible] وبين «الاختلاف في أحكام الدين» وهو المحمود لأنه [illegible] لا يؤدي إلى الافتراق في الدين. فالأول هو الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]

---

(١) (حجة الله البالغة) ج١ ص ١٤٠ - ١٤٣، و الشاطبي (الموافقات في أصول الأحكام) ج٤ ص ١٥١، ١٥٢. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. طبعة مكتبة محمد علي صبيح. القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) [illegible] ص ٥٦٠، ٥٦١، تحقيق: أحمد محمد شاكر. طبعة [illegible] مكتبة الحلبي. مصورة عن طبعة [illegible]

وهو اختلاف الذين في قلوبهم زيغ، الذين أشار إليهم القرآن الكريم في آية ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٧)﴾ [آل عمران: ٧]

أما الاختلاف المشروع الذي لا يمس وحدة في الدين وهو تعدد الاجتهادات في أحكام الدين فقد وجد أصحاب رسول الله ﷺ من بعده قد اختلفوا في أحكام الدين، ولم يتفرقوا، ولم يصيروا شيعاً، لأنهم لم يتفرقوا في الدين، وإن اختلفوا فإنما كان اختلافهم من اجتهاد رأي ولاستنباط من الكتاب والسنة، فيما يحتمله النص، واختلفت في ذلك قلوبهم، **فصاروا محمودين لأنهم اجتهدوا فيما أمروا به** وكانوا مع هذا في مودة وناصحة، أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة﴾[1]

والتعددية والاختلاف المشروع في إطار الجامع المشترك هو الصفة التي تتسم بها الحضارة الإسلامية، وتعددت وجوه المعارف والمصالح المشروعة في الملائم من أحكام الدين.

وإذا كان ذلك جائزاً في أحكام الدين وفقه الفروع فإنه جائز - من باب أولى - في السياسات التي يتم بها تدبير شئون الاجتماع والعمران.. وإذا كانت وحدة الأمة وأخوة العقيدة قد وسعت حتى الغُلاة الذين احتكموا إلى العنف في تحقيق بعيهم، فتحدث عنهم القرآن باعتبارهم جزءاً من الأمة المؤمنة، ولم يجردهم من الإيمان، وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين(٩)﴾ [الحجرات: ٩] فإنه وجب تطبيق هذه المبادئ في الخلاف الإسلامي

---

(١) الموافقات، ج ٤ ص ١٢١ ـ ١٢٤

علي بن أبي طالب، وهو يقوّم مكانة الفرقاء المتحاربين في الفتنة الكبرى. فلقد سُئل عن خصومه في «موقعة الجمل»:

«أمشركون هم؟!.

ـ فقال: من الشرك فرُّوا.

فسُئل:

ـ أمنافقون هم؟!

فقال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا!

فسُئل:

ـ فمن هم إذن؟!

ـ فقال: إخواننا، بغوا علينا!»[1].

وكذلك كان تقويم الإمام علي للذين بغوا عليه فقاتلوه. خلف معاوية بن أبي سفيان ـ من أهل الشام، في «صفين» ـ فتحدث عنهم فقال: «لقد التقينا، وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء[2]. إنا ـ والله ـ ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء ـ (الخوارج) ـ من التكفير والفراق في الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة. وإنهم لإخواننا في الدين، قبلتنا واحدة، ورأينا أننا على الحق دونهم»[3]!.

فالتعددية والاختلاف والتنوع لا يمثل افتراقا في الدين، طالما ظلت تحت جامع الإسلام، يتمثل في أصوله الثوابت التي هي وضع إلهي، معلوم بالفطرة

---

(١) [illegible] وانظر في ذلك: د. طه جابر العلواني (أدب الاختلاف في الإسلام) ص٦٧، طبعة واشنطن سنة ١٤٠٧هـ وسنة ١٩٨٧م.

(٢) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) ج١٧ ص٤١.

(٣) الباقلاني (التمهيد) ص٢٣٧، ٢٣٨.

[illegible] كانت هذه المعدودة في فروع الأحكام [illegible] كانت من السياسات.

[illegible] «لستُ أقولُ ولا أحد من أهل العلم: «هذا مُجْتَمَعٌ عليه» إلا لما لا تلقى عالماً أبداً إلا قاله لك، وحكاه عمن قبله، كالظهر أربعٌ، وكتحريم الخمر، وما أشبه هذا»[1]

[illegible] والاختلاف بين الاجتهادات في مناديها قد استقر الإسلام على اعتبارها سنة فطرية من [illegible] «فنا» من فنون العلم الإسلامي، قصده العلماء بالتأليف والتصنيف[2].

* * *

(١) (الرسالة) ص ٥٣٤

(٢) [illegible] ص ٣ ١٤١ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٧ هـ سنة ١٩٨٧م

إلـه واحـد

لـه صفات الكمـال.. والأسماء الحسنى

[illegible] تصوراتهم [illegible] الكون والوجود .. من البدء .. إلى المسيرة .. إلى المصير [illegible]

[illegible]

[illegible] لا تستطيع [illegible]

[illegible] ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] ﴿قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوًا أحد (٤)﴾ [الإخلاص ١-٤]

[illegible] «كل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك!».

بل إن هذا التصور الإسلامي يريد هذا التوحيد تنزيهًا وتجريدًا عندما يضع المقابلة بين التوحيد الخالص لله وبين التعددية فيما وفيمن عدا الله! فكل من عدا الله وجميع ما سواه قائم على التعددية والثنائية والازدواج والاجتماع والتركيب والاشتراك. تعددية في كل عوالم المخلوقات، تحيا في ملكوت الألوهية الواحدة. فقوام الأحياء - وكل ما في الكون أحياء بمعنى ما - مؤسس على قاعدة وفلسفة التعددية والازدواج ﴿من كل زوجين اثنين﴾ [هود: ٤٠، المؤمنون: ٢٧]. وعلى التعددية والجماعية والارتفاق والتساند والتركب والتعاون والاجتماع، تمضي السنن والقوانين في المخلوقات ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨]. أما الخالق سبحانه وتعالى - فهو وحده الواحد المنزه عن الازدواج والاشتراك والتركب والتعدد، وعن المماثلة والتشبيه، وعن الحاجة والاجتماع.

* * *

وفي التصور الإنساني - ووفق تفاوت مدارك ومعارف الإنسان - تتعدد وتتدرج مراتب ودرجات هذا التوحيد!.

فهناك «وحدة» في حقيقة التوحيد للذات الإلهية. وهناك تعددية في مراتب ونسب ودرجات المُدْرَك الإنساني من هذه «الحقيقة التوحيدية» الواحدة.

وبعبارة حجة الإسلام الغزالي - وهو الحسن الذي مارس تجربة الصعود على أعلى هذه الدرجات! - «فإن للتوحيد درجات.

أولى درجاته: قول «لا إله إلا الله» باللسان دون اعتقاد القلب، وكل المنافقين يشتركون في ذلك، ولهذا التوحيد أيضًا حُرمة، فإن سعادة هذا العالم تحصل به، ويعصم ماله ودمه، ويأمن أهله وولده.

الدرجة الثانية: اعتقاد معنى هذه الكلمة على سبيل التقليد دون المعرفة الحقيقية فجميع عوام الخلق قد انتهوا إلى هذه الدرجة.

الدرجة الثالثة: هي أن يكشف معنى هذه الكلمة (لا إله إلا الله) - بل هي محجوبة حتى يعرفها - فهذه الدرجات الثلاث متفاوتة. فالأولى (صاحبها) صاحب مقالة

، شبة (صاحبها) ـ صاحب عقيدة و شبهة ـ (صاحبها) صاحب معرفة وبس أحد من هذه صاحب حقيقة، وأرباب الحقيقة (من الصوفية) ـ غير أرباب المعارف والأقوى

الدرجة الرابعة أن يكون مع معرفة صاحب الحقيقة، بأن لا يكون له معبود إلا واحد، وكل من غلب عليه هواه فمعبوده هواه ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية ٢٣]

الدرجة الخامسة أن لم يقتصر صاحبها على توحيد في باطنه في تعلقه على الشهوة وحقيقة الهوى متبعاً، بل قضى على الهوى والشهوة، بحيث لم يكن يتبع شهوة في أي عمل، لا قصد في شيء ولا فيما يحدثه، بل أصبح صاحب عزم وهمة، بحيث لا يتحرك ولا يسكن إلا لله، ولا يتكلم إلا لله

الدرجة السادسة هي أن يخرج توحيد صاحبه من أن يكون، ويخرجه عن أن يعلمه، بل ويخرجه عن أن لا يجد كما خرجه من فقد العلم به، فلا يعلم إلا الحق تعالى، وينسى نفسه ولا يذكر سوى الحق تعالى، فيغيب عن علمه بجميع ما سوى الحق تعالى، فلا يبقى إلا هو ولا يعلم، فيبقى الحق فقط، ويكون في حالة كما قال تعالى: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم ٣٢]، ويكون عند وقته ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص ٨٨] فهي مقصورة على هذه الدرجة في الحقيقة، لأن ما عدا هذه الدرجة يكون فيه شيء من الجمع، ولكن كمال التوحيد هو هذا، وبهذا ورد الحديث القدسي «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به».

فصاحب هذه الدرجة السادسة لا يرى ولا يسمع ولا يشهد شيئاً، ولا يعلم شيئاً، (وصاحب الدرجة السادسة) لا يرى إلا الله، ويقول: «لا موجود إلا الله»

فتوحيد الرجل الذي نفى معبوداً غيره يكون جزءاً لتوحيد الرجل الذي نفى موجوداً غيره؛ لأن في نفي الموجود نفي المعبود، فكل من جمع في توحيده كان توحيده

[illegible] في توحيد من نفى معبوداً غيره، فتوحيد هذا [illegible] في طيّ توحيد من نفى وجوداً غيره»[1].

[illegible] سبحانه وتعالى ـ واحد، وحقيقة التوحيد واحدة، وعلى الطريق إلى هذه الحقيقة الواحدة تتعدد المراتب والدرجات [illegible] وأحوال الموحدين.

وفي هذا التصور الإسلامي [illegible] الذات.. فمن الصفات البرهانية: القدم.. والبقاء.. ونفي التركيب.. والحياة [illegible] الكلام.. والبصر.. والسمع[2].

[illegible] تعددت الأسماء الحسنى لهذه الذات»[3].

فوحدة الذات الإلهية في التصور الإسلامي تبلغ قمة التنزيه والتجريد، وتعددية درجات المُدْرك الإنساني من هذه الحقيقة التوحيدية الواحدة.. وكذلك تعدد صفات الكمال الإلهي، وأسمائه الحسنى.. وأيضاً تعدد وسائل التقرب إلى الله الواحد، وتعدد حالات الذكر لله الواحد: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [آل عمران: ١٩١]. وتعدد نوايا الأعمال التي يتقرب بها العباد إلى المعبود الواحد.. كلها ـ في التصور الإسلامي ـ مصادر للتعددية في إطار الوحدة، تزكي هذه الفلسفة في ثقافة الإسلام وحضارة المسلمين.

* * *

---

(١) [illegible] على طبعة تونس ١٩٧٢م.

(٢) الإمام محمد عبده (رسالة [illegible] ٣٦ [illegible] ٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م.

(٣) [illegible]

خَلْقٌ واحد
وتعدُّدية في المخلوقات

[illegible] الكريم عن [illegible] خلق [illegible] السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم (١٠) هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين (١١) » [[illegible]] فهذا [illegible] خَلْقٌ واحد لخالق واحد

لكن عوالم هذا الخلق الواحد لا يعلم عددها إلا الله - سبحانه وتعالى - بل إن التعددية والتمايز والاختلاف هي عوالم وآيات إلهية تتنوع إليها وتتمايز فيها كل وحدة من وحدات هذه المخلوقات..

فكل صنف من أصناف الأحياء المخلوقة يتنوع ويتعدد إلى أمم وجماعات، فتقوم التعددية في إطار هذا النوع من الأحياء، كما قامت التعددية في إطار الخلق الحي الذي خلقه الله ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون (٣٨) ﴾ [الأنعام: ٣٨]

وهذه الأرض التي خلقها الله وسواها، فيها ألوان وألوان من التعددية والتمايز والاختلاف، فهي سبع أرضين ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض

منهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴿١٢﴾ [الطلاق : ١٢] .

وفي هذه الأرض نوع وتعدد لا يعلم عدده إلا الله . تنوع في جنسها الرئيسي والأولي الذي تنتظمها كلها . وتنوع في الأنهار ـ سحة وتعدية . نوع يتوسطه سراب كما في تحالف وتمتد منه كل بحر من بحار وبحر من الأنهار . وتنوع في طبائع قطع الأرض المتجاورات . وتنوع في الثمرات التي تثمرها تلك الأرض الواحدة التي خلقها الله . عالم ـ بل عوالم ـ من التعددية والتنوع والاختلاف ، التي لم يحص العلم الإنساني أعدادها في هذه الأرض ﴿ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٣) وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٤) ﴾ [الرعد : ٣ ـ ٤] ﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون (١٣) ﴾ [النحل : ١٣] فهي هذه الأرض الواحدة عوالم عديدة من التعدد العجيب . فيها قطع بعضها بجوار بعض بعضها سبخة ، وهي مختلفة تربة مع ذلك ، بعضها قاحل ، وبعضها خصب ، وهي تختلف تربة فبعضها حامض يصلح لكروم العنب ، وفيها زرع يحصد ونخيل مثمر ، وهي مختلفة ومتفرقة ، ومع أنها تسقى بماء واحد يختلف طعمها . وعلى سطح هذه الأرض خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ كثيرا من نوع الحيوان والنبات والجماد ، وجعل في كوكبها كثيرا من المعادن المختلفة الألوان والأشكال والخواص ، وإن في هذه المختلفات لدلائل واضحة على قدرة الله لمن يعقل ويفكر فيه . ﴾[1] .

ومثل الأرض ـ في تعددها وتنوع عناصرها الواحدة ـ خلق الله السماء وتعالى بالسماء . فهي سبع سموات . وفيها ما لا يعلم عدده إلا الله من عوالم الكواكب والنجوم والمجرات ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء

---

(١) سبحانه في تفسير القرآن ص ٣٨٣ ، ٣٨٦ . وضع : يحيى الأعلى مشورة الإسلامية الطبعة الثانية ١٩٨٦ م .

فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴿٢٩﴾ [البقرة ٢٩] ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴿٦﴾﴾ [الصافات ٦] ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴿١٢﴾﴾ [فصلت ١٢]

والشمس والقمر تتعدد مدارات ومشارق ومغارب والليل والنهار بالنسبة لكل موقع على سطح الأرض، وفي كل لحظة من لحظات ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴿٣٧﴾﴾ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴿٣٨﴾ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴿٣٩﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴿٤٠﴾﴾ [يس ٣٧ - ٤٠] ﴿إن إلهكم لواحد ﴿٤﴾ رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴿٥﴾ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴿٦﴾﴾ [الصافات ٤ - ٦] عوالم من التعدد والتنوع والاختلاف في إطار السماء التي خلقها الله.

وهذا الماء الذي أنزله الله من السماء، منه العذب السائغ شرابه ومنه الملح الأجاج ومنه البحار والأنهار، وما سلكه الله في الأرض ينفجر عيونا ويتبع مع التنوع الذي يدركه علم الإنسان في طعومه وخصائصه ودرجات الحرارة والمكونات ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴿٢١﴾﴾ [الزمر ٢١] ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿١٢﴾﴾ [فاطر ١٢] ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣].

ومن هذا الماء الذي تخرج عوالم وألوان وأصناف متعددة ومتنوعة ومتغايرة ومختلفة من الثمرات ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا

ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (٢٧) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور (٢٨)» [فاطر: ٢٧، ٢٨]، «وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣) كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤)» [طه: ٥٣، ٥٤]. «إن الله -سبحانه وتعالى- أنزل من السماء ماء، فأخرج به ثمرات مختلف ألوانها، منها الأحمر والأصفر والأخضر والمر والطيب والخبيث، ومن الجبال جبال ذوو طرائق وخطوط بيض وحمر، مختلفة بالشدة والضعف. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك [illegible] ثمرات مختلفات الألوان، يروى شجرها ماء واحد، وحبات من ألوان مختلفة يرجع أصلها إلى مادة واحدة، وهكذا سنة الله واحدة؛ لأن الأصل واحد، والفروع مختلفة متباينة، فالثمرات من ماء واحد، والجبال من صخرة واحدة، وكذلك اختلاف الألوان في الناس والدواب والأنعام لا يظهر في الصفات التي نشاهدها ولو فُحصت بالمجاهر القوية، وإنما هي دقائق وأسرار تحتويها في داخلها (جيناتها) [illegible] وفي هذا متاع وفائدة للإنسان [illegible] بل إن ألوان الناس لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز في توأمه الذي يشاركه حملا واحدا في بطن واحد!»(٢)

وهذه الرياح التي تختلف الواحدة منها عن الأخرى [illegible] والاختلاف [illegible] «ريح فيها صر» [آل عمران: ١١٧] [illegible] «ريح طيبة» [illegible] «ريح عاصف» [يونس: ٢٢] شديدة الهبوب والتدمير [illegible] «قاصفا من الريح» [الإسراء: ٦٩] [illegible] «الريح تجري بأمره رخاء» [ص: ٣٦] [illegible] «الريح العقيم» [الذاريات: ٤١] [illegible] «بريح صرصر عاتية» [الحاقة: ٦] [illegible]

(١) المنتخب في تفسير القرآن ص ٦٤٧، ٦٤٨

(٢) (في ظلال القرآن) ج٥ ص ٢٩٤٢

[illegible] ٢٢] [illegible]
[illegible] [الروم: ١٠] [illegible]
[illegible] الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف
يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم
يستبشرون (٤٨) ﴾ [الروم: ٤٨]

[illegible] الاختلاف ـ ذلك الخلق الواحد الذي أبدعه بديع
السماوات والأرض ـ سبحانه وتعالى

[illegible] التعددية [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر
[illegible] إن الله عزيز حكيم [illegible] [لقمان: ٢٧] [illegible]
[illegible]

[الكهف: ١٠٩]

* * *

وهذا الخَلْق الواحد، الذي أبدعه الخالق الواحد الأحد، قد أودعه [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
جميع الأسباب في جميع المُسَبَّبات،

[illegible]
[illegible]
[illegible]

لأسلام هو الذي وضعها وسوّاها بحيث تكون بعض الأسباب في بعض الأسباب قوية بحيث تقول إن الأسباب والمسببات كلها بعض في بعض في هذه المسببات الأسباب. والله تعالى هو الخالق لكل شيء من غير شريك ولا معين ولا شبيه ولا نظير ولا مضاد ولا ضد ولا ند ولا مثل ولا ضد ولا ضدّ، ولكنه رتب الأسباب والمسببات، وذلك أمر وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العلم...»[1].

فمسألة الأسباب قد شاء الله حكمته أن تتعلق الأسباب الموضوعة في خلقه، وأن يترتب فعله على هذه الأسباب القوى التي أودعها وخلقها في هذا الخلق، جعلاً ذلك سنة من السنن وقانوناً من القوانين المكونة التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى يقول ولي الله الدهلوي (١١١٠ ـ ١١٧٦هـ/ ١٦٩٩ ـ ١٧٦٢م) في شرح الآية الكريمة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]

«اعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه من وجوه الترتب، شبيه بترتب المسبَّب على السبب، وبعض أفعاله [...] إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب، [...] عن النبي ﷺ أنه سئل عن الشبه في الولد؟ فقال: «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت» [...]

ولا أرى أحداً يشك في أن الإماتة تستند إلى الضرب بالسيف أو أكل السم، وأن خَلْق الولد في الرحم عقيب صب المني، وأن خلق الحبوب والأشجار يكون عقيب البذر والحرث والسقي. ولأجل هذه الاستطاعة جاء التكليف، وأُمروا ونُهوا، وحوسبوا بما عملوا، فتلك القوى منها: خواص العناصر وصفاتها، ومنها الأحكام التي أودعها الله في كل صورة نوعية، ومنها أحوال عالم المثال والوجود المقتضي لهلاك قبل

[1] [illegible] ٣٦٣ [illegible]

الوجود الأرضي، ومنها أدعية الملأ الأعلى بجهدهم لمن هذّب نفسه أو سعى في صلاح الناس، وعلى من خالف ذلك. ومنها الشرائع المكتوبة على بني آدم، وتحقق الإيجاب والتحريم فإنها سبب ثواب المطيع وعقاب العاصي. ومنها أن يقضي الله تعالى بشيء فيجرُّ ذلك الشيء شيئاً آخر؛ لأنه لازمه في سنة الله، وحَرَمُ نظام اللزوم غير مُرضي، والأصل فيه قوله (ﷺ): «إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة» فكل ذلك نطقت به الأخبار وأوجبته ضرورة العقل. أما هيئات الكواكب فمن تأثيرها ما يكون ضرورياً، كاختلاف الصيف والشتاء، وطول النهار وقصره، باختلاف أحوال الشمس، وكاختلاف الجزر والمد باختلاف أحوال القمر..»

فالخلق واحد، ودع الخالق فيه العديد من الأسباب والقوى الفاعلة في المسببات فتعددية الأسباب في إطار وحدة الخلق ووحدة خالق الأسباب والمسبب الأول فيها معلم من معالم التصور الإسلامي للكون الذي يعيش فيه الإنسان، له آثاره على قضية التعددية في ثقافة هذا الإنسان.

* * *

وإذا كان «العالم» واحداً، فإن هناك تعددية في زاوية الرؤية لهذا العالم، باعتبار موقعه من «القدم» ومن «الحدوث» تفضي إلى تعددية في الحكم على هذا العالم الواحد باعتبار حظه من «القِدَم» أو «الحدُوث»!

بل إن هذه التعددية في زاوية الرؤية قد حدثت ـ في الفلسفة الإسلامية ـ إشكاليات لم تجد لها حلولاً تبعد الثنائيات المتناقضة ـ في الفلسفات غير الإسلامية.

فالذين قالوا بقدم العالم نظروا إليه من زاوية شبهه بالقديم، وباعتبار الأجرام العلوية التي لا يعتريها الكون والفساد. بينما الذين قالوا بحدوثه قد نظروا إليه من زاوية شبهه بالمحدثات. فالتعددية إنما هي زاوية الرؤية، والحقيقة أن هذا العالم ليس خالصاً في القدم ولا خالصاً في الحدوث!.

---

(١) (حجة الله البالغة) ج١ ص ١٧

[illegible] ٣٩ هـ [illegible] ١٠٠٠م) [illegible] الاختلاف [illegible]

[illegible] أقديم هو؟ [illegible] محدث؟ [illegible]

[illegible] شيء [illegible] ثم وجد شيء [illegible] فحكم [illegible] حدوث [illegible]

[illegible] حدوث [illegible]

[illegible] لا يكون [illegible] لا يفسد [illegible] لا يعتريه [illegible]

فكان النظران صحيحين، من الجهتين المختلفتين [illegible]

[illegible] هي الأدق [illegible]

[illegible] الاختلاف [illegible]

[illegible] يكون [illegible] الاختلاف [illegible]

هاهنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان، وواسطة بين الطرفين، [illegible] الطرفين، واختلفوا في الواسطة.

فأما الطرف الأول [illegible] من شيء [illegible] شيء [illegible] فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه، أعني على وجود [illegible] هذه هي حال الأجسام [illegible]

وأما الطرف المقابل لهذا فهو [illegible] من شيء [illegible] شيء [illegible]

[illegible]

وأما الصنف من الموجودات الذي بين هذين الطرفين فهو [illegible] زمان، ولكنه موجود عن شيء أعني عن فاعل [illegible]

[illegible]

[illegible] ويقابله «الفساد» الذي هو زوال الصورة عن المادة بعد أن [illegible] في اصطلاح [illegible] يكون هو الوجود [illegible] (المعجم الفلسفي)، وضع مجمع اللغة العربية

قديما حقيقيًّا، فإن المُحْدث الحقيقي فاسد ضرورة، و[illegible] القديم الحقيقي ليس له علة[1].

[illegible]

[illegible] إطار الجمع موحِّد لسمات وقسمات هذا الاختلاف.

* * *

(١) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٤٠ - ٤٢

دين واحد وتعددية

في

الشرائع والمناهج والسياسات

الدين: وضع إلهي ثابت، وجوهره: توحيد الألوهية، وإفرادها بالعبودية، وشكر نعمها بالعمل الصالح، إيماناً بالبعث والحساب والجزاء على هذا العمل، بعد هذه الحياة.

ولأن الله واحد، ولأن الدين ثابت إلهي، [illegible] الرسالات بآدم - عليه السلام - وحتى ختمها بمحمد ﷺ.

وهذا الدين الإلهي الواحد هو «الإسلام»، أي الطاعة لله، والإسلام الوجه له في هذه الثوابت التي يتدين بها الإنسان: توحيد الألوهية وإخلاص العبودية لله وحده، والعمل الصالح الذي سيتم الحساب والجزاء عليه يوم البعث والنشور.

وفي إطار هذا الدين الإلهي الواحد، وعبر رسالات الرسل، وتمايز أمم الرسالات في الزمان والمكان والمصالح والعادات والأعراف ومستويات التطور ودرجات الارتقاء، تعددت الملل والشرائع، التي هي طرق ومعالم ومناهج يسلكها أهل كل رسالة وأمة كل ملة للتدين بالعقائد الثوابت لهذا الدين الإلهي الواحد.

وعلى هذه الحقيقة الدينية يؤكد القرآن الكريم - الكتاب الذي تمم الدين، عندما جاء بالشريعة الخاتمة والعالمية، واللبنة التي أكملت البناء القائم على ذات عقائد الدين

[illegible] عرفنا [illegible] الإسلام [illegible] إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب (١) فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد (٢) ﴾ [آل عمران: ١٩: ٢٠] ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٨٥) ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين (٦٧) ﴾ [آل عمران: ٦٧] ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (١٢٨) ﴾ [البقرة: ٢٧، ٢٨] ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (٥٢) ﴾ [آل عمران: ٥٢] ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب (١٣) ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (٧٨) ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨] ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [المائدة: ٣]

قال ابن [illegible] الإسلام في أصوله الثوابت [illegible] ولا [illegible] دين الله [illegible] في كل الشرائع والملل والرسالات.

* * *

[illegible] في الدين [illegible] والأمة [illegible]

والشريعة [illegible] الأمم [illegible] فتختلف في الشرائع ﴿ وما كان الناس إلا أمة

واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون (١) ﴾

[[illegible] ٩] ﴿ وكان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم

الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة ٢١٣] [illegible] الاختلاف

[illegible] على تعدد الأمم [illegible] الاختلاف الطبيعي [illegible]

[illegible] الشرائع [illegible] اختلفت فيه هذه الأمم والجماعات [illegible]

[illegible] الاختلاف الطبيعي في الشرائع [illegible] من سنة الله في الاجتماع [illegible] ﴿ ولو

شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١) إلا من رحم ربك ولذلك

خلقهم ﴾ [هود ١٠٨ ، ١١٩] [illegible] ﴿ وللاختلاف خلقهم ﴾ [illegible]

[illegible] حديث رسول الله ﷺ [illegible] ﴿ الأنبياء إخوة لعلات [illegible]

دينهم [illegible] أمهاتهم شتى ﴾ [illegible] الاختلاف [illegible] في الشرائع

[illegible] ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو

شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله

مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٢) ﴾ [[illegible] ٤٨]

ولأن الاختلاف في الشرائع [illegible] الدين [illegible] عن [illegible]

[illegible] بالشرائع المتعددة [illegible] الدين [illegible]

[illegible] ﴿ إن الذين

آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) ﴾ [البقرة ٦٢] ﴿ إن الذين

آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا

---

(١) (الجامع لأحكام القرآن) ج٩ ص ١٤ ، ١٥

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والإمام أحمد

حرفُ عيسى ولا هم يحرفون (٥) ﴿ [المائدة ٦٩] وهؤلاء هم الذين وهم على شرعهم الكتابية - منهم من آمن بما جاء به محمد ﷺ وهو مصدق لحقيقة ما جاء به موسى وعيسى في عهده ولا تجد ﴿ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٦) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (٧) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨) فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (٩) ﴾ [المائدة ٨٢ ٨٥] فهم على كونهم مؤمنون كمسلمين يعتقدون التوحيد والنبوة كثير من الذين يحرفون عن التوحيد الأوهية والإخلاص لعبوديته والعبادة لله الواحد ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (١٤) وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين (١٥) ﴾ [آل عمران ١١٣ ١١٥] فهم مؤمنون بالله إلهي واحد ونصارى بنبوتهم - على تحريف وتبديل في العقائد - على شريعة تستكون بالعقائد والإخلاص لإله واحد «إن دين الله عند الله الحنيفية المسلمة، لا اليهودية ولا النصرانية، من يعمل خيراً فلن يكفره» كما يقول الرسول ﷺ.

وفي تفسير هذه الآيات - التي تحدث عن هذه الجماعات من أهل الكتاب - يقول الإمام محمد عبده (١٢٦٥ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ١٩٠٥ م) «هذه الآية من أعظم الآيات في القرآن الكريم، وهي دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء، وأن كل من أخذه بإخلاص، وعمل فيه بإخلاص، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين وفي هذا تعليم قطع لاحتجاج أهل الكتاب الذين يعترفون من أنفسهم بالإيمان والإخلاص في العمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه استمالة لهم، وبيان

(١) رواه الترمذي

من معرفة ... الأمم والشعوب التي ... كل تعارف فيما بينها بقصد ... وأن ... يتأخر ... تحدث عنه ... في بعض الأشياء ... وإن كان معذوراً ... حسابه ... وظاهر أن هذا في أهل الكتاب. حال كونهم على دينهم. خلافاً للمفسر (الجلال) ـ (جلال الدين السيوطي) ـ وغيره الذين حملوا المدح على من أسلم منهم، فإن المسلمين لا يُمْدَحُون بوصف أهل الكتاب، وإنما يُمدحون بعنوان المؤمنين [1].

فالشرائع السماوية هي ... ومناهج ... وفروع ... التي ... فيها ... وتغيرها ... بتغير ... فلا تطلق وحدة الدين في الأصول الثلاثة، التي تمثل أصل الدين وجوهره، وفلسفته الثابتة المتحدة، وهذه الوحدة ثابتة في كل شرائع الرسل، فهي في جميع الأديان وحدة ... تختلف الأحكام والفروع التي تختلف باختلاف ... في الأصول فلا خلاف فيها، قال تعالى ... قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٦٤) ﴿آل عمران ٦٤﴾ [2] ... الدعوة إلى التوحيد وإلى الله وتعبيد الناس له وتحريرهم من الأخلاق الذميمة مشتركة في جميع [3].

على هذه الحقيقة ـ وحدة الدين ... وتعدد الشرائع ـ أجمع المسلمون حتى الجاحظ ... من أبرز ... الاعتزال الإسلامي، يقول في بحث له في كتاب الحيوان ... تحدث فيه عن الشعوبية ... في كتابه المفرد (حجة الله البالغة) ... الدين واحد والشرائع والمناهج مختلفة ... الدين واحد، والله عز وجل عبد الأمم عبيده بالإقرار بالله والإخلاص له، وترك الاختلاف في الشرائع والمناهج [4].

فالدين ... واحد من حيث العلاقة بين الخالق والمخلوق، والاختلاف ... في التشريع الإسلامي ـ الذي مرت بعض ... التي تعقد عليها الجمع

* * *

(١) (الأعمال الكاملة) ج٥ ص ٧١

(٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج٤ ص ٤٤، ٤٥

(٣) (حجة الله البالغة) ج١ ص٨٦

وبهذه التعددية في الشرائع والمناهج وطبيعة فكرية وحضارية، فالاختبار فيها ومنها محك ومعيار لتمايز أممها وتيارتها ومذاهبها وفرقائها، فيه وبه يتمايزون ويتفاضلون وفق ما يختارون، وفي ذلك امتحان واختبار وابتلاء؛ لأن الاختبار اختبار ومتحن، ولولا التعدد في الشرائع والمناهج لما كان هناك محل لهذا «الاختبار ـ الاختبار» كما أن هذا «الاختبار» هو مدعاة للتنافس والتسابق والتدافع بين الفرقاء الذين تحيزوا في الاختيار، الأمر الذي جعل ويجعل هذه التعددية وصيغة علاقتها وعروبتها وثقافتها الخارجية، التي هي ـ في جوهرها ـ مسئولية واختيار!..

[illegible] ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات [illegible] ٤٨] على هذا فالتعددية هي التي تصنع تمايز الاختيارات المتعارضة بين الفرقاء المتحاورين المتنافسين والمتسابقين التي هي جوهر التعددية والارتقاء، وبدونها تتحول الأمة إلى وحدية وسكون وموات!..

في هذه الحقيقة أشار [illegible] ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن جعلكم شرعة ومنهاجا؛ لاختلف منهج إرشاده في جميع الأعصار، ولكن جعلكم هكذا ليختبركم فيما آتاكم من الشرائع، ليستمر نفعها وتعاضدها إلى انقراض العالم، وتستغني كل أمة بخير [illegible] ولكل منه جعل منكم شرعة ومنهاجا، حكمة منه تعالى ليستوعب بما شرع إلى كل أمة منهم مقتضى نظامها، ويتم لكل واحدة على الخصوص صلاحها، وكل ذلك يقتضي أن دعوته في كل أمة من الأمم لمصلحة تخيرها والإرشاد على حسب استعدادها، وذلك من الاختلاف في جميع ما اقتضاه من العقل والنظر، فيظهر التفاضل بين أفراد نوع الإنسان»[٢].

وهذا الاختلاف الأمم في شرائع ومناهج يكون اختلافها تعدد [illegible] في «استبقوا الخيرات» التي تتفرد بها كل منها في مقصودها وحدها، ولكن منه جعل منكم شرعة ومنهاجا ذكّرهم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا

---

(١) (المنتخب في تفسير القرآن) ص ١٥٥

(٢) محمد الطاهر بن عاشور: (التحرير والتنوير) ج٦ ص ٢٢٤ طبعة تونس ١٩٨٤م

[illegible] ﴾[illegible]﴿ [الحج: ٣٤]. فتوحيد الألوهية جامع لوحدة الدين في كل أمم [illegible]

[illegible]

[illegible] [الحج: ٦٧] [illegible]

[illegible]

[illegible] [الإسراء: ٨٤]

[illegible]

[illegible] في بواعثه، مختلف في اتجاهه، مختلف في

[illegible] ٩٣

٢ [illegible] ج٥ ص ١٩٤ و(الميزان في تفسير القرآن) ج١٣ ص ١٩٢ [illegible] (التفسير [illegible]) مجلد ١ ج ٢١ ص ٣٧ طبعة بيروت ١٤٠١هـ، ١٩٨١م

[illegible] الناس في هذه الأرض تختلف مشاربهم، وتختلف قدراتهم، وتختلف همماتهم، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص. هذه حقيقة. ولكن هناك حقيقة أخرى، تجمعه مع أشتات البشر جميعا، وتضم هذه العوالم المتباينة بعضها إلى بعض، تتمثل في قول الله: ﴿ فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) ﴾ [الليل ٥، ٦]، ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون (٩٠) ﴾ [النمل ٩٠]. هذان هما نقيضان لا ثالث لهما: شتات الناس، وشتات السعي، وشتات المناهج وشتات الغايات. »(١)

فكيف تتعدد الشرائع وتتغاير في إطار دين واحد، تتعدد وتختلف بما يكفل للناس، وتسير جميعها في صراط مع مناهج وغايات التي تسلكها البشر ويقصدون إليها.

وهذه التعددية التي [illegible] وتنوعت وتغايرت بعضها عن بعض في جزئياتها وتفاصيلها، وتنوعت وتغايرت في ذاتها، وفي تباعد خطوط المسافات بين الخير والشر، والصحة والمعصية ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٢١) ﴾ [الإسراء ٢١] ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما (٣٢) ﴾ [النساء ٣٢]

فهي هذه التعددية [illegible] بين الناس في الاختيار والاختلاف، وتدعوهم إلى التجدد والتقدم والارتقاء.

* * *

وكما تعددت الشرائع في إطار وحدة الدين، تتعدد السياسات في إطار الشريعة الواحدة، وذلك بتنوع مصالح الأمم المتعددة وتغير وقائع اجتماعها وعدتها وأعرافها، بتغاير الزمان والمكان، وبتعدد الأمم الأصولي من [illegible] أحمد بن علي بن [illegible]

(١) (في ظلال القرآن) ج٦ ص ٣٩٢٢

سعد دي (٤٧٩ هـ ٥٨ هـ ١٠٨٧ ـ ٢٤ ١م) «فإن شرع سياسة ... شرعه ... عباده، والناس مختلفون في ذلك بحسب اختلاف آرائهم، فيكون ... نوع من السياسة خيرا، وحقا من الطرفين، ومصلحة يختص به ... كما أن لكل أمة نوعا من السياسة يصلحهم، وإن كان ذلك مفسدة في حق غيرهم...»[1].

فالسياسات ـ بمعنى التدابير المتعلقة بالجزئيات والتفاصيل ـ متغيرة لتغير ... بسبب اختلاف مصالح متعلقة من ورائها، فيما نقل الشريعة جامعة في نصوصها، طرا مرجعة حكمتها ... السياسات ... ويعبر عن هذا المعنى ابن القيم (٦٩١ ـ ٧٥١هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م): «فهناك سياسة جزئية، بحسب المصلحة، تختلف باختلاف الأزمنة، وهناك شرائع عامة لازمة للأمة إلى يوم القيامة، أي شرائع كلية لا تتغير بتغير الأزمنة. أما السياسات الجزئية التابعة للمصالح فتتقيد بها زمانا ومكانا... على هذا اجتمع الفقهاء»[2].

فتعدد التعددية والتنوع والاختلاف ـ في السياسات والتدابير الجزئية المتعلقة بالمصالح المتغيرة ... منفتح للتنوع والتعددية والاختلاف، وذلك في ضوء وحدة الشريعة في نصوصها ومقاصدها وفلسفة حكمتها بروح هذه السياسات ... ذلك أن السياسة في الرؤية الإسلامية ـ لا تثبت إلا بثبات النصوص، ولا تتناهى إلا بتناهي هذه النصوص، لأنها لا تنحصر فيما جاء به النص، وإنما تتسع لكل ما لا يخالف ما جاء به النص ... ويعبر عن هذا المعنى أبو حامد الغزالي الطوسي (٤٣١ ـ ٥١٣ هـ ١٠٥٩ ـ ١١٢٠ م) «فالسياسة كل فعل وتدبير يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولم ينزل به وحي. وعبارة "لا سياسة إلا وفق الشرع" صحيحة إذا كان المراد منه ألا يخالف ما نطق به الشرع، أما إذا أريد به "ألا ينطق به الشرع" فغلط، وتعطيل للمصالح، فقد جرى من الخلفاء ... الناس ما كان لا بد منه على مصلحة لأمور لم يسبق فيها رسم، ولم يرد فيها المقصود الناس بالمصلحة، وهو بعد الذي قد نص عليه الأصوليون، فقد ظهرت ... الصحابة ... وأنفقوا وجوها لم يكن في عصر النبي ﷺ شرع لها وذلك ... لعلمهم وحكمهم وعلمهم أن لكل حق مقدارا وعلامة تشير، ثم ينبغي ما هو أظهر

---

١) ... ابن تيمية في كتاب الاختلاف في الإسلام ص ٩ ... صنعة وتنقيح ... ٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

٢) ينظر حكمه في السياسة ... عابدين ٢٧.٢٥ ... ابن عابدين ... صنعة ... ٩٧٠ ...

[illegible]

[illegible]

[illegible]

محالفة له . »[1].

[illegible]

والأعراف.

وتعدد [illegible]

إنسان

[illegible]

وتعدد الشرائع، بتعدد أمم الرسالات، عبر الزمان والمكان . .

[illegible]

محمد عليهم الصلاة والسلام . .

وفي هذا الميدان واحد من معالم التعددية في إطار الوحدة [illegible]

الإسلام.

* * *

(1) المصدر السابق ص ١٧ ـ ١٩

شريعة واحدة
وتعددية فى الأحكام والإفتاء

الشريعة [illegible] الأنبياء [illegible] التي قبض الله من الدين [illegible] مع تمكين [illegible] المكلف معاشاً ومعاداً.

[illegible] الأمة الواحدة [illegible] الرسالة [illegible] الإلهية [illegible] شريعة [illegible] الإسلامية [illegible] مستقبل الإنسانية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وبعد حديث القرآن الكريم عن [illegible] الشرائع التي أنزلها الله [illegible] للأمم التي [illegible] الإسلام [illegible] على درب الرسالات السماوية [illegible]

---

(١) الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) مادة «الشريعة» ـ طبعة دار التحرير ـ القاهرة و(الكليات) لأبي البقاء الكفوي

محمداً ﷺ، فقال: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (١٨) إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين (١٩) هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون (٢٠)﴾ [الجاثية: ١٨، ٢٠]

فلمحمد وأمته - العالمية - الخاتمة شريعتها الإلهية المتميزة - بصائر وهدى - الواجبة الاتباع، تكليفاً من الله. وغير هذه الآيات شاعت في القرآن الكريم الآيات المنصحة عن التكليف الوجوبي بفريضة تحكيم الشريعة الإسلامية، من مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله﴾ [الشورى: ١٠]، ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا (٥٩)﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما (٦٤) فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٥)﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥]

فلأمة الإسلام شريعة إلهية واحدة، واجبة التحكيم، لأنها حكم الله وحاكميته في هذه الأمة الخاتمة.

لكن... هل يعني حكم الله بحاكمية الشريعة الإسلامية الواحدة، انتفاء الحاكمية البشرية في فقه الأحكام والفتاوى؟ أم أن وحدة الشريعة قد مثلت «الجامع الإلهي» في الشريعة، الذي يتسع لحاكميات بشرية، استخلفها الله - سبحانه وتعالى - لتتعدد أحكامها وفتاواها بتعدد وتنوع المصالح والوقائع والعادات والأعراف، وما يقتضيه هذا التعدد والتنوع من تعددية في اجتهادات الحكام (القضاة) والمفتين؟.

إن تعدد الحاكميات البشرية في الأحكام واختلاف الاجتهادات الإنسانية في الفتاوى، وذلك في إطار كليات وحدود ومبادئ وقواعد الشريعة الإسلامية الواحدة - حقيقة من حقائق الشرع الإسلامي التي لم يختلف عليها أحد من أهل العلم بالإسلام.

لكن لأن هذه القضية موضع رفض وإنكار من «العوام المقلدين» ومن قطاع محسوب على الثقافة الإسلامية المعاصرة، وجود حاكمية بشرية في إصدار الحكمية الشرعية الإلهية، ومن ثم تعددية الحاكمية الإسلامية، في إصدار الشريعة الواحدة، احتجت هذه القضية إلى تأصيل وتفصيل..

لقد بدأت شبهات هذا الفريق - في الثقافة الإسلامية المعاصرة - حول قضية الحكم عند علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عندما رفض الخوارج «لا حكم إلا لله»، وهم يقصدون تحريمه وتحريم حكم البشر في النزاع الذي نشب بين علي ومعاوية حول مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أجمع المسلمون على أن الحكم لله وحكمه وليس حكمية الإنسان. لكن الإمام علي بن أبي طالب قد حلل هذه الشبهة عندما قرر بأن حكم الله وقضاءه وشريعته، هدى لا شريك له فيه، وليس حاكمية البشر الذين استخلفهم الله لإقامة حاكميته - وخاصة في مناطق الفقه والاجتهاد التي لم تحسمها النصوص قطعية الثبوت والدلالة؛ لأن الحاكمية الإنسانية هنا - حتى وإن تعددت بتعدد الاجتهادات - هي مقتضى حكم الله باستخلاف الإنسان ليقيم حكم الله.

حلل الإمام علي هذه الشبهة عندما رد على صيحة الخوارج، فقال: «إنها كلمة حق يُراد بها باطل! نعم، إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله! وإنه لا بد للناس من أمير برٍّ أو فاجر..»[1]!

فالإنسان حاكم، وله حاكمية الخليفة، وحاكميته هذه هي حكم إلهي بدونها لا يتحقق حكم الله في الاستخلاف!..

وفي عصرنا الحديث وجدت شبهة الخوارج تربة مكنت لها عند بعض المعلاة. من أهل الجمود والتقليد الذين يتزعمون عبارات كسيد أو الأعلى المودودي (١٣٢١ - ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣ - ١٩٧٩م) يرفضون بقصد وتصور حاكمية البشر، ويقررون بقصد تقرير حاكمية الله وليس حاكمية الإنسان، ورفض إعطاء الخلافة والاستخلاف أي دور في حاكميته في الأمور الاجتهادية. تنزع هؤلاء المعلاة عبارات المودودي من سياقها، وتجتزئ عبارات أخرى كثيرة له تضطرب فكره في هذا الموضوع!

---

(١) (نهج البلاغة) ص٦٥، طبعة دار الشعب بالقاهرة.

[illegible] في الإسلام [illegible] تُنتزَع جميع سلطات Powers الأمر والتشريع من أيدي البشر ـ منفردين ومجتمعين ـ ولا يؤذن لأحدهم أن ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه، أو ليس قانونًا لهم فينفذوه ويتبعوه، فإن ذلك أمر مختص بالله وحده، لا يشركه فيه أحد غيره

فالخصائص الأولية للدولة State الإسلامية.. ثلاث.

١ ـ ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر الناخبين في الدولة نصيب من الحاكمية، فإن الحاكم الحقيقي هو الله، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده، والذين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطانه العظيم.

٢ ـ ليس ـ لأحد ـ من دون الله ـ شيء من أمر التشريع، والمسلمون جميعًا ـ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ـ لا يستطيعون أن يشرعوا قانونًا

٣ إن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون الذي جاء به النبي من عند ربه.. مهما تغيرت الظروف والأحوال(١).

إن الإسلام يستعمل دائمًا لفظ خلافة Vicegerency، في الحديث عن الذين يقومون بتنفيذ القانون الإلهي في الأرض، بدل لفظ الحاكمية Sovereignty وذلك [illegible] الذين منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم» ولفظ «إله» واصطلاح «حاكمية» هما سيان لحقيقة واحدة(٢)!

[illegible] وفي هذا نص صريح في حكمه بإطلاق على الإنسان ـ منفردين أو مجتمعين ـ وفي نفيه خلافته و«استخلافه» أن يكون من حاكمية البشر، في أي عصر من العصور وحتى في التنفيذ!!

وتجاهلوا النصوص الأخرى لمودودي، والتي قرر فيها للإنسان حاكمية بشرية، بحكم خلافته واستخلاف الله له. وذلك من مثل قوله: «إن الخلق تعالى وحده هو

[illegible] الإسلام [illegible] ص ٣٣ [illegible] الأصل [illegible] مجموعة ١٩٥٥م.

(٢) النظرية الإسلامية السياسية ص٤٩

(٣) [illegible] الإسلامية ص ٦٥ [illegible] ١٩٧٠م.

[illegible]

[illegible] (Dominion)[2] وهو نص صريح في أن «الإنسان هو خليفة لا حاكم» [illegible] إن الله قد خوّل المسلمين – في الحكومة الإسلامية – حاكمية شعبية مقيدة (Limited Popular Sovereignty)[3].

[illegible] فالكتاب القرآن الكريم، ليس هو بكتاب الجزئيات، بل هو كتاب المبادئ والقواعد الكلية، ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الإسلامي بوضوح ثم يثبتها تثبيتًا قويًا بكلا الطريقتين: الدليل العقلي، والتحريض العاطفي. أما ما يتعلق بالصورة العملية للحياة الإسلامية فإنه لا يرشد الإنسان إليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية، بل إنه حدد الحدود الأساسية [4] «فقط» وما لم يرد فيه نص شرعي – وهو المجال الأوسع – فلأهل الحل والعقد أن يجتهدوا في سن الأنظمة التي تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة، على أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة»[5].

[illegible]

(١) المرجع السابق، ص ٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٤.

(٣) [illegible] ص ٣٤، ٣٥، و«الإسلام والمدنية الحديثة»، ص [illegible]

(٤) [illegible] ص ٣٢، ترجمة حسن أحمد [illegible]

(٥) «الإسلام والمدنية الحديثة»، ص ٤٠.

«الاجتهادات» لتهيئ تحقيق حكم الإنسان المستخلف عن الله في إقامة العمران وتنزيل حكم الله على وقائع هذا العمران.. وهو - المودودي - قد تكمن عبقرية فكره - فيما نرى - للعاصرين - من استمرار - في بعض حكمة الإسلام في نصوصه التشريعية من سياق، مستخلصين غيره من النصوص التي تستغرق وتصبغ فكر الرجل في هذا الموضوع!..

* * *

إن حكم الشريعة حتى عندما يرد في نص قطعي الدلالة والثبوت فيه لابد من اجتهاد في فقه النص وفهمه، ومن ثم اجتهاد في استنباط الحكم من النص واجتهاد في نص الصياغة لهذا الحكم صياغة قانونية.. وذلك فضلاً عن الاجتهاد في تكييف الواقع المراد الحكم - بعد فهمه واستنباطه - وصياغته - على الوقائع والحالات الخصوص عندما تكون هذه الوقائع - كما هو الغالب فيها - مختلفة خلال المصالح والعادات والأعراف ومتغيرات الزمان والمكان.

أما إذا كان النص الشرعي قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، واضحاً في ثبوته ودلالته معاً، فإن اختلاف الأفهام، وتعدد الاجتهادات، وسعة الأحكام المستفادة منه تتسع فيها وأمامها الميادين والآفاق..

وكذلك الحال عندما يكون النص المتعلق بالعقيدة والعبادة والمعاملة الشرعية، فإن الاجتهادات تتسع وتختلف فيما يستنبط من هذه النصوص العقدية، وهذه المعاملة الشرعية من الأحكام. يختلف هذا الأمر باختلاف الاجتهادات، في ضوء الواقع المتجدد، فضلاً عن الأسس المنهجية، والقواعد المتبعة.

وإذا كان الإنسان هو المستخلف عن الله في فقه حاكمية الشريعة الإلهية، ومن ثم في تقعيدها وتقنينها وتطبيقها. حتى لقد قال الإمام ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ - ١٠٦٤م) عبقرته الخالدة وكلمته الناصعة، في تقرير الحاكمية للإنسان المستخلف: «إن من حكم الله أن يجعل الحكم لغير الله»[1] فإن وجود حاكميات

(١) ابن حزم (نقاضة من الصحابة) ص١١ - والنص في د. مصطفى حلمي (نظام الحكم في الإسلام) ص ١٧١ طبعة دار الدعوة الإسكندرية

بشرية متعددة، في إطار حاكمية للشريعة الإلهية الواحدة، وذلك بتعدد الاجتهادات فيما يرد فيه الاجتهاد، هي إحدى حقائق الشرع الإلهي والفقه الإسلامي في هذا الميدان..

[illegible] الإسلام لا يعرف «السلوية» التي تحصر الرأي في واحد معصوم وتحول كلمته إلى شرع إلهي مقدس، دون كلمات الآخرين. والإسلام عندما تحدث كلمته الكريمة عن عصمة تحصنه بها الأحكام والاجتهاد في الشريعة، فتح باب هذه العصمة لكل من يحصل فيستوفي شروطها العلمية: ﴿وما كان المؤمنون ليفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ [التوبة: ٢٢]. ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ [النساء: ٨٢]. ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء: ٨٢، ٨٣]. فهي عصمة في الاستنباط والاجتهاد. وهي عصمة في الاستنباط والاجتهاد تعتمد على (وإلى أولي الأمر) منهم. وهذه العصمة تحكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا عصمة لغير الرسول ﷺ فيما يبلغ عن ربه!

وبهذا بدأ تاريخ هذه الحقيقة من حقائق التشريع الإسلامي والشريعة الإسلامية ـ فكراً وتطبيقاً ـ منذ عصر النبوة، وفي ظلال الوحي، وتوجيه من المعصوم (ﷺ) فحتى في ذلك العصر لم يحتكر الوحي ـ وهو الذي يمثل الحاكمية الإلهية الواحدة ـ الحاكمية، وإنما تقررت ومورست حاكمية الإنسان، المؤسسة على الاجتهاد، تحقيقاً لأمانة الاستخلاف التي حملها الإنسان. تقررت ومورست الحاكمية الإنسانية في ظلال توالي نزول وحي السماء!

[illegible] كان قد أوصى [illegible] بأن [illegible] فيحصن [illegible] حصن، وفتحه عنوة بعد المقاومة والتصدي، لا يستوجب عصمة الحاكم لأهله وذراريه وأموالهم بتلك العصمة الخاصة التي يحتكرها الوحي في التوراة في حروب الصهيونيين ـ وإنما استوجب وصية الرسول لأمراء الجيوش بالاجتهاد الذي يتوخى حكمها هو وحكمتهم هم. فقد روى في الحديث الشريف أنه [illegible] كان إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه: «إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن

تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»[1]:

فهو أمر بالاجتهاد الذي يثمر حكماً إنسانياً وحاكمية بشرية، تتعدد بتعدد الحاكمين المجتهدين. وأمر بالتمييز بين الحاكمية الإلهية الواحدة وبين الحاكميات البشرية المتعددة بتعدد الاجتهادات.. وبذلك - ومنذ ذلك التاريخ - تأسست في التشريع الإسلامي تعددية الحاكميات الإسلامية في إطار الشريعة الإلهية الواحدة.

* * *

[illegible]

المصالح والمفاسد، والتي لم ترد فيها حدود ثوابت؛ لخروجها من [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

---

[1] [illegible]

[2] [illegible] ص ٣٤ [illegible]

[3] [illegible] ص ٥

[illegible] الجويني (٤١٩ - ٤٧٨هـ/ ١٠٢٨ - ١٠٨٥م) [illegible] الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد»[1]

[illegible] عضد الدين الإيجي (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) [illegible] (٨٠٦هـ/ ١٣٤٠ - ١٤٠٣م) [illegible] الإمامة [illegible] بل هي من [illegible] [2] [illegible] (٤٠٩ - ٥٤٨هـ/ ١٠٦٦ - ١٠٥٣م) [illegible] الإمامة [illegible] الاعتقاد»[3]

[illegible] ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) [illegible] الإمامة [illegible] من [illegible] لأنها من مصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق»

[illegible] الاجتهاد [illegible] المفوضة إلى نظر الخلق [illegible] الاجتهادات والأحكام والحاكميات [illegible] حاكمية الشريعة الإلهية الواحدة

[illegible] السلفي في تراثنا الفكري، بل إن الذي لا يدركه الكثير [illegible] عبقرية أئمة هذا التيار تتجلى أكثر ما تتجلى في حقل الفكر السياسي. [illegible] فليس غريبا أن مجد ابن القيم (٦٩١ - ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٥٠) يميز في الأحكام بين الخاص [illegible] تتعدد فيها الأحكام والحاكمية، وبين الخاص بالثوابت، والتي تتمثل [illegible] الشريعة الإلهية الواحدة، فنقول: إن الأحكام نوعان:

نوع: لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها: لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف مع ما وضع عليه

---

(١) (الإرشاد) ص ٤١٠ طبعة القاهرة ١٩٥٠م

(٢) (شرح المواقف) ج٣ ص ٢٦١ طبع القاهرة ١٩٥٠م

(٣) (نهاية الإقدام) ص ٤٧٨ [illegible] ألفريد جيوم [illegible] مصورة، بدون تاريخ أو مكان للطبع

(٤) (المقدمة) ص ١٦٨ طبعة القاهرة ١٣٢٢هـ

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانًا ومكانًا وحالاً، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها - (وهي المساحة الأوسع في التشريع) - فإن الشارع يتنوع فيها بحسب المصلحة.

وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير، بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودًا وعدمًا.

فأغلب الأحكام الشرعية تتعدد فيها الحاكميات[1].

[illegible] في هذا [illegible] الحاكميات الإسلامية - في إطار حاكمية الشريعة الإلهية [illegible] الخلاف المتوهم بين النص وبين المصلحة في التشريع الإسلامي [illegible] الشيخ محمد مصطفى شلبي [illegible] قسم المصلحة [illegible] قسمين:

أولهما: المصلحة المتغيرة بتغير الزمان والبيئات والأشخاص [illegible] هي المصلحة التي تقدم على النص والإجماع، في أبواب المعاملات والعادات، [illegible] المصالح غير الثابتة، التي يلحقها التغيير والتبدل حسب الأزمان والبيئات والأحوال.

وثانيهما: المصلحة الثابتة على مدى الأيام، وهي في أبواب العبادات [illegible] والنص والإجماع فيها يقدمان على المصلحة[2].

وهكذا [illegible] الإسلامي [illegible] على تعدد الأحكام والحاكميات في إطار الشريعة الإلهية [illegible] الحاكميات والأحكام بالاجتهاد في [illegible] المعاملات [illegible] أحكامها بتغاير المصالح والعادات والأعراف عبر الزمان والمكان.

* * *

---

(1) [illegible] العامة للشريعة الإسلامية) ص٤٧ - ونص ابن القيم في كتابه (إغاثة [illegible] ٣٤٩ - ٣٤٠

(2) النظرية العامة للشريعة الإسلامية) ص١٦

وهذه الأحكام هي قد تتعدد بتعدد اجتهادات الحاكم - أو المفتي - والفقهاء المجتهدين) ... ست معزولة عن مصدر الشرعي (الشارع) وتكييف الإلهي ... ن الذي قد عُدّت - في الأصول الإسلامية - من «الأحكام الله»، دون أن يضفي ذلك التوصيف على المجتهدين فيه عصمة أو كهنة؛ لأنهم اجتهدوا فيها وليست هي بذاتها، وهي حكم الله في حقهم، يجب التزامهم به!..

وإذا كان البعض يتردد فيتحرج من أن يعطي لبشر صفة «الإنشاء» للأحكام، مفضلا القول بأن الإنسان يشرّع «ابتناء»، أي منشئ «الأحكام ومستديبها فهو الله وحده. فإن هذا التردد والتحرج لم يعرفه الأصوليون القدماء، الذين أدركوا دور الإنسان المجتهد في ابتناء وإنشاء الأحكام في إطار حاكمية الشريعة الإلهية ومصادرها وحدودها وقواعدها، فلله - في هذا الإطار - «إنشاء» و«ابتناء» بحكم الاستخلاف الإلهي!

وتتلخص في هذا البحث بعض ... ن بتاع الأمة الإمام الأصولي المجتهد ... ن حمزة بن إدريس الذي توفي في (٦٨٤هـ - ١٢٨٥م) في كتابه «نفائس الأحكام في ... ن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام» الذي وضعه في ... ستة مثلت مشكلات فكرية وإجابات ... وذلك عندما قال

«السؤال الأول: ... ل حكمه حكم الله تعالى يتبع حكمه، أم يتبع ظنه؟

جوابه: إنه إنشاء إطلاق أو إلزام في مسائل الاجتهاد المتقارب فيما يقع فيه النزاع لمصالح دينية»

«السؤال الثاني: ... ل يكون ... لله تعالى ... جعل لأحد ... ينشئ حكمًا على ... عند؟ وهل هي الأحكام الله تعالى؟ فيكون ... وقع في ... ريعة وتابعة لها ... ار وتوضيحه؟

جوابه: الأخير، في ذلك، ... لأكثر، إلا أن الله تعالى قرر ... وجبات والمكروهات والمباحات على ... ومع ذلك قرر في أصل شريعته أن للمكلف أن يشيء الواجب فيما ليس بواجب في أصل الشرع فيتقرب (بالندب) - أي المندوب شاء فيجعله واجبًا عليه - وقرر الله - تعالى - لإنشاء للمكلف في صورة أخرى - وهي إنشاء الأسباب فيما وكل إنشاءه مسببته إلى المكلف - فله أن

منشئ لنسبه في المدونات وأبو حنيفة وسحرمت والمكروهات والمباحات وما ليس فيه حكم شرعي بتة. فيشئ السبب ويعلق عليه الحكم، فدخول الدار مثلاً ثم يجعله شرع - في أصل الشريعة - سبباً لطلاق امرأة أحد. ومن ثم جعله سبباً لذلك. وإذا تقرر أن الله تعالى جعل لكل مكلف - وإن كان عامياً جاهلاً - الإنشاء في الشريعة لغير ضرورة، فأولى أن يجعل الإنشاء للحكام (بالقضاء) - مع علمهم وجلالتهم بضروره درء العباد، ودفع الفساد، وقطع الخصومة. والدليل على ذلك هو الإجماع من الأئمة قاطبة أن حكم الله تعالى ما حكم به الحاكم في مسائل الاجتهاد وأن ذلك الحكم يجب اتباعه على جميع الأمة، ويحرم على كل أحد نقضه. وهذا لشيء يشأ بعد حكم الحاكم لا نقضه، لأن الواقعة كانت قبل هذا قابلة لجميع الأقوال، ولأنواع الفروض والاحتمالات. ولا معنى للإنشاء إلا هذا القدر.

«السؤال الثالث» هل ما قررته من [illegible] بالقضاء [illegible] لا ينشئ؟

جوابه: أن الحاكم [illegible] بالقضاء، مع علمه بأن الله [illegible] بالقضاء في المختلف فيه، [illegible] في حكمه، وأن حكم [illegible] لأن حكم [illegible] والكلمات الصادرة على الحاكم [illegible] كما يجب [illegible] لا يجب [illegible]

والحاكم في الحكم بشيء من الإلزام بالقضاء والقضاء لإلزام عليهم مما لم يقرره مستنبطه الذي هو القاضي الأصلي، فهو ممنوع مستنبطه من وجه أنه فوض له ذلك وقد امتثل، وغير ممنوع له من وجه أن الذي صدر منه من الإلزام لم يتقدم مثله في هذه الواقعة من مستنبطه، بل هو أصل فيه. فالحاكم - مع الله - يتمثل في كونه فوض إليه ذلك، فيفعله بشروطه، وهو منشئ؛ لأن الذي حكم به تعيّن، وتعيّنه لم يكن مقرراً في الشريعة، وليس إنشاؤه لأحد الأدلة التي تُعتمَد في الفتوى؛ لأن الأدلة يجب فيها اتباع الراجح، وهذا له أن يحكم بأحد القولين المستويين على غير ترجيح ولا معرفة بأدلة القولين إجماعاً، بل الحاكم يتبع المصلحة، والمفتي يتبع الأدلة.

[illegible] على الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ص ٢٠، ٢٦، ٣٠ [illegible] عدد [illegible] سنة ١٩٦٧م.

[illegible] الأحكام الملزمة، والتي تُعدُّ في حقهم وفي حق من تلزمهم «أحكامًا لله»؛ لأنها صادرة ممن استخلفهم الله للاجتهاد والحكم في إطار الشريعة الإلهية [illegible] أحكامهم هذه اجتهادات غير معصومة، تتميز في ذلك عن الشرع الإلهي المعصوم.

[illegible]

* * *

وهذه الحاكميات المتعددة التي تحدث عنها [illegible] الشريعة الإلهية الواحدة - جد الإمام الشاطبي (١٩٠هـ - ٣١٨هـ) [illegible] في الإفتاء.

صحيح أن «الشارع» بإطلاق هو الله - سبحانه وتعالى - ولذلك يقرر الشاطبي أن المفتي هو «شارع» بالاستخلاف، بوجه من الوجوه هو «شارع» عندما يكون مستنبطًا للأحكام والفتاوى، لا مجرد ناقل ومبلغ؛ لأنه في الاستنباط «شارع» بالاستخلاف عن الشارع بإطلاق وإذا كان الإفتاء النقلي لا تعددية فيه، فإن الإفتاء الاستنباطي فيه تعددية، في إطار وحدة الشريعة الإلهية [illegible] بل وفيه «إنشاء للأحكام»! [illegible] يسه الشاطبي على هذه الحقيقة من حقائق الأصول الإسلامية، فيقول «إن المفتي شارع من وجه. لأن ما يبلغه من الشريعة إما منقول عن صاحبها وإما مستنبط من المنقول، فالأول يكون فيه مبلغًا، والثاني يكون فيه قائمًا في مقامه في إنشاء الأحكام، وإنشاء الأحكام إنما هو للشارع، فإذا كان للمجتهد إنشاء الأحكام بحسب نظره واجتهاده فهو - من هذا الوجه - شارع واجب اتباعه، والعمل وفق ما قاله، وهذه هي الخلافة على التحقيق، بل القسم الذي هو فيه مبلغ لا بد من نظره فيه من جهة فهم المعاني من الألفاظ الشرعية، ومن جهة تحقيق مناطها وتنزيلها على الأحكام، وكلا الأمرين راجع إليه فيها، فقد قام مقام الشارع أيضًا في هذا المعنى، وقد جاء في الحديث: «إن من قرأ القرآن فقد أُدرجت النبوة بين جنبيه»[1]

---

(١) (الموافقات) ج٤ ص ١٦٣

فبهذا الاستخلاف تتعدد الأحكام الشرعية بتعدد الاجتهادات والاستنباطات.

وإذا كان حكم الحاكم (القاضي) يقطع الخلاف في الأحكام، فإنه لا يقطع الخلاف في قواعد الشريعة وأصول الفقه، فيظل الإفتاء متعدداً بتعدد الخلاف في القواعد والأصول، إذ لا قضاء في «المدارك» (الحجج والأدلة) وإنما القضاء في منازعات المصالح الدنيوية..»[1]..

وهكذا يظل باب التعددية مفتوحاً، حتى بعد صدور الفتاوى والأحكام! إذ لا قضاء في «المدارك» ولا في «قواعد الشريعة وأصول الفقه» - كما يقول القرافي.

هذا إلى ألوان أخرى من التعددية في الفتاوى، وذلك من مثل:

«تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد..»[2].

وتغير الفتوى بحسب عادات وأعراف واصطلاحات بلد المُستَفتي[3].

وتغير الفتوى بحسب مذهب المُستَفتي.. وليس مذهب المفتي[4].

وتغير الفتوى بحسب حال المُستَفتي ودرجته في الورع والتقوى.. «فإذا عُرفت درجة المُستَفتي في الورع، فإنه يُبنى بما تقتضيه مرتبته فيه؛ كما يُحكى عن أحمد بن حنبل أن امرأة سألته عن الغزل بضوء مشاعل السلطان؟ فسألها: من أنت؟ فقالت أخت بشر الحافي (١٥٠-٢٢٧هـ/٧٦٧-٨٤١م) - (وهو من أكابر الصوفية) فأفتاها أحمد بن حنبل بترك الغزل في ضوء مشاعل السلطان»[5]. فالحلال في حق العامة قد يكون خلاف الأولى في حق الخاصة، وحسنات الأبرار سيئات المقربين[6].

إلى غير ذلك من ألوان التعددية في الإفتاء..

---

(١) (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام) ص٦٩

(٢) ابن القيم (إعلام الموقعين) ج٣ ص ٣-٥٨ وهو عنوان باب عقده ابن القيم بهذا الموضوع

(٣) (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام) ص٢٤٩

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢١

(٥) (الموافقات) ج٤ ص ١٦١، ١٦٢

فهذه الأحكام المتعددة المتعددة اجتهادات حكمية، هي حكمة الله الشرعية وشريعته المحمدية - في إطار حكمة الواحد الشريعة الإلهية - تمثل التشريع الإسلامي المتعددة فيها في اعتبارها جميعاً «حكم الله» في حق كل مجتهد فيها وتعتبره الله في «فإن الأمة مجمعة على أن المجتهد إذا أدى اجتهاده إلى حكم، فهو حكم الله في حقه وحق من قلده إذا قام به مثله ويقول لمن له أهلية الاجتهاد: حكم الله تعالى عليك أن تجتهد وتنظر في أدلة الشريعة ومصادرها وموادها، فأي شيء غلب على ظنك فهو حكم الله تعالى في حقك وحق من قلدك»[1].

والخيوط التي تتعدد فيه في مصادر تشريع الأحكام فهي «الكتاب» و«السنة» و«الإجماع» وكل مصدر من تلك تنعكس عنه المتعددة في فقه الأحكام

ثم «الكتاب» منه المحكم ومنه المتشابه و«السنة» منها ما جاء «بيانًا» لما في «الكتاب»، ومنها ما شرعت وفق «فوق الكتاب» لم ترد ظاهرًا في «الكتاب»[2] ومنها سنة «العادة» وسنة «العبادة» ومنها سنة البيان سوى بلاغ للقرآن، وهي دين داخل في بلاغ الإلهي، وتشريع ملزم لكافة المشرعة، في كل زمان ومكان ومنها غير تشريعية، وهي الاجتهادات البشرية في تغيير المدينة قضاء في المنازعات، أو سياسة الدولة بحكم الإمامة سلمًا وحربًا، اجتماعًا واقتصادًا وهو مبحث هام، إذ غاب عن عوام المثقفين المسلمين فقد اهتم به كثير من علماء الأصول[3].

هكذا تعددت الأحكام والحكمات في إطار حكمة الواحد الشريعة الإلهية، وتعددت المذاهب والمشارب وتنوعت المدارس من الشريعة الواحدة وتغيرت المذاهب الفقهية، بل وتعددت الاجتهادات داخل المذهب الواحد، في العصر الواحد ولكن الواحد فضلاً عن تعددها عبر الزمان والمكان حتى تقررت التعددية المشروعة في اجتهادات المجتهد الواحد، عندما تختلف رؤاه أو توقعاته التي يبنى عليها الأحكام

كل هذه الألوان من التعددية ومثلها كثير في إطار شريعة الإسلامية الواحدة، التي هي واضح إلهي ثابت، غير الزمان والمكان!.

---

(١) (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام) ص٢١٩، ٢٢٣

(٢) الشافعي (الرسالة) ص ٢٠، ٢٢، وابن القيم (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) ص١٠٧

(٣) انظر الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام) ص٨٦ - ٩٠ و حجة الله البالغة ج ص ٢٨، ٢٩

إيمان واحد .. وحقيقة واحدة وتعددية فى مراتب التصديق ومستويات الخطاب والمخاطبين

الإيمان: تصديق [illegible] الكفر الذى هو الجحود [illegible] الإيمان هو تصديقه فى جميع ما جاء به

[illegible] الإيمان حقيقة نابعة من وحدة ما يؤمن ويصدق به المؤمن [illegible] واحد، جاءنا من مصدر معصوم

لكن هذا الإيمان الواحد هو ميدان للتعددية فى سبل تحصيله [illegible] وفى مراتب التأويل ودرجات الوجود لحقائقه وعقائده .. وفى مواضع وجود هذه الحقائق والعقائد، وفى مراتب ودرجات القبول والرفض لهذا الإيمان [illegible] التعددية القائمة فى ميدان الإيمان الواحد..

[illegible] الإيمان لا تعنى وحدة السبل والوسائل والآليات التى يسلكها المؤمن [illegible] بالأدلة الكلامية [illegible] بالأدلة

[illegible] الغزالى (إلجام العوام عن علم الكلام) ص ٢٩٤ و(فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)

الوعظية والخطابية [illegible] وهناك طريق السماع ممن [illegible] يُلقى في القلب محفوفاً بالقرائن المركبة لصدقه.. وهناك التصديق بما يوافق الطباع..

[illegible] في تحصيل [illegible] الأمر الذي يجعلنا [illegible] وبعبارة حجة الإسلام الغزالي: [illegible] الإيمان.. إنما يحصل على ست مراتب.

الأولى: [illegible] ما يحصل بالبرهان المستقصى، المستوفى شروطه، [illegible] تلك المرتبة، وقد يخلو العصر عنه، [illegible] نفت النجاة [illegible]

الثانية: أن يحصل بالأدلة الوهمية الكلامية المبنية على [illegible] لإشهارها بين أكابر العلماء، وشناعة إنكارها [illegible] لا يشعر صاحبه بإمكان خلافه أصلاً.

الثالثة: أن يحصل التصديق بالأدلة الخطابية، [illegible] على خلاف مقتضى [illegible]

الرابعة: التصديق بمجرد السماع ممن حَسُن الاعتقاد فيه [illegible]

[illegible]

المرتبة الخامسة: التصديق الذي يسبق إليه القلب عند سماع الشيء مع قرائن تحيط به، ولا يعلم عند التحقيق، ولكن يقع في قلب العاقل عقدٌ جازم، كمن يسمع في المنام أن فلانًا قد مات، فيعتقد لعامي جزمًا أنه مات.

المرتبة السادسة: أن يسمع القول فينساب طبعه وأخلاقه فيدوم إلى التصديق لمجرد موافقته لطبعه، لا من حسن اعتقاده في قائله، ولا من قرينة تشهد له، لكن لمناسبة ما في صفاته، فهو ينقاد إلى موافقة عدوه وقبله وعزله يصدق جميع ذلك بأدنى توقف، ويستمر على اعتقاده جازمًا، ولو أخبر بذلك في حق صديقه، أو بشيء يخالف شهواته وميوله توقف فيه أو أباه كل الإباء. وهذه أضعف التصديقات وأدنى الدرجات[1].

هكذا جميع ما يعتقده الإنسان بعقد جازم وتصديق بأنواع التحصيل والاكتساب للتصديق بهذا الإيمان الواحد. وهذه وحدة حرى للتعددية في ميدان الإيمان بوجود الله، وتعدد صفاته، تبعًا لتعدد مراتب تأويل وجود ما يصدق به، مما أخبر عنه الرسول ﷺ.

والإيمان بوجود الله هو التصديق الجازم الذي يجتمع في جميع ما يصدق به من صفات وجود هذا الذي أخبر عنه فيها تتعدد تتعدد مراتب التأويل لهذا الوجود.. فالوحدة هي في تصديق بوجود الله، والتعددية هي في صفات وجوده بوجوده.

والإيمان بوجود الله هو التصديق الجازم بما وصف به نفسه ورسوله من صفات وجوده، لا على حقيقته لأعرف بوجوده من خبر الرسول عن وجوده، إلا أن للوجود خمس مراتب. ذاتي، وحسي، وخيالي، وعقلي، وشبهي. فمن عرف بوجوده من أخبر رسوله عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق.

أما الوجود الذاتي: فهو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل، ولكن يدرك بحس ويتعقل عنه بعقل فمعنى وجوده [illegible] الوجود [illegible] الأرض

(١) راجع بعوام عن علم الكلام، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧.

[illegible] معروف [illegible] لا يعرف [illegible]
[illegible]

وأما الوجود الحسي [illegible] في القوة [illegible] خارج [illegible] فيكون موجودًا في الحس [illegible] كما يشاهده المريض [illegible] حتى يشاهدها كما يشاهد [illegible] في اليقظة [illegible] صورة [illegible] إليهم الوحي والإلهام بواسطتها فيتلقون من أمر [illegible] في اليقظة [illegible] غيرهم في النوم، وذلك لشدة صفاء باطنهم، كما قال [illegible] [illegible] ١] [illegible] لا [illegible] ثم تحركه بسرعة حركة [illegible] حسك، لأن الموجود في الخارج [illegible] فلا يكون الخط موجودًا في [illegible] واحدة.

وأما الوجود الخيالي [illegible] صورة [illegible] على أن تخترع في خيالك صورة [illegible] مشاهدة [illegible] لا في الخارج.

وأما الوجود العقلي: فهو أن يكون [illegible] مجرد معناه دون أن يثبت صورته في [illegible] مثلًا [illegible]

وأما الوجود الشبهي [illegible] لا يكون [illegible] الشيء موجودًا [illegible]

بحقيقته لا في الخارج ولا في الحس ولا في الخيال ولا في العقل، ولكن يكون الموجود شيئاً آخر يشبهه في خاصة من خواصه وصفة من صفاته.

فهذه مراتب وجود الأشياء. وكل من [illegible] قولاً من أقوال صاحب الشريعة على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين. ولا يلزم كفر المتأولين ما داموا [illegible] قانون التأويل. فقد اتفقت الفرق على هذه الدرجات الخمس في التأويل، وأن شيئاً من ذلك ليس من جنس التكذيب، واتفقوا أيضاً على أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر، والظاهر الأول هو الوجود الذاتي، فإنه إذا ثبت [illegible] الجميع، فإن تعذر فالوجود الخيالي أو العقلي، وإن تعذر فالوجود الشبهي [illegible] ولا رخصة للعدول عن درجة إلى ما دونها إلا لضرورة البرهان»[1]

فالإيمان واحد. وهو التصديق بجميع ما أخبر به الرسول ﷺ. وفي إطار التصديق الجازم بجميع ما أخبر به الرسول تتعدد مراتب التصديق، بتعدد صورة [illegible] الوجود الذاتي [illegible] الوجود الخيالي [illegible] الوجود العقلي [illegible] الوجود الشبهي [illegible] أمام لون من ألوان التعددية في إطار وحدة الإيمان.

كذلك، فإن العلم [illegible] يكون [illegible] شيء واحد، فإنه يكون [illegible] إلى مكان وجود هذا الشيء الواحد [illegible] فللشيء الواحد وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في الصحف التي يسطر فيها [illegible] فيتعدد أماكن الوجود للشيء الواحد [illegible] مثلاً [illegible] وجوداً في [illegible] وأعني بهذا الوجود العلم [illegible] وجوده في اللسان، وهي الكلمة الدالة عليه، أعني [illegible] وبهذا وجود في [illegible] المكتوب عليه بالرقوم»[2] كما يقول حجة الإسلام العراقي.

* * *

(١) (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص ٥ - ١١

(٢) (إلجام العوام عن علم الكلام) ص ٢٩٠

وإذا كان الإيمان واحداً فإنه متعدد باعتبار طبيعته [illegible] من [illegible]

فإيمان الملائكة مطبوع، قد صغر [illegible] معصوم بالاصطفاء الإلهي، حتى يكون التبليغ معصوماً. [illegible] إيمان المؤمنين مقبول لوعد الله الذي لا يخلف وعده. أما إيمان المبتدعين فهو موقوف، كما أن إيمان المنافقين مردود[1].

فهي خمسة [illegible] من حيث [illegible] حيث [illegible] للإيمان.

* * *

وكحال الإيمان [illegible] مع التعددية في زوايا الإدراك [illegible]

[illegible] الأسلام [illegible] ولا علاقة لاختلاف [illegible] في الحق [illegible] اختلاف [illegible] في الحق [illegible] المركبة عليه، والحق في نفسه واحد[2].

وفي [illegible] الحق [illegible] الأسماء [illegible] الواحدة.. فاختلاف الأسماء وتعددها للحقيقة الواحدة من مثل [illegible] هو تعدد في الدرجة، والهيئة، والمكان، والزمان، والمعرض [illegible] في إطار وحدة الحق التي لا يعبر من وحدتها اختلاف الأسماء[3].

[illegible]

(٢) [illegible] محمد [illegible] (الإنصاف في تنبيه على المعاني والأسباب التي [illegible] الاختلاف بين المسلمين في آرائهم) ص ٢٧ تحقيق د. محمد رضوان الداية طبعة دمشق سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٧م.

(٣) أبو حيان التوحيدي (المقابسات) ص ٢٠٢

[illegible] وتظل التعددية في الحدود والتعريفات [illegible] الحقيقة الواحدة [illegible] الحد ليس [illegible] الحد راجع إلى واضعه. أما حقيقة [illegible] فهي [illegible] محفوظ حقيقته عين الشيء، وموضوع الحد ليس هو عين الشيء [illegible] الحقيقة واحدة، مع التعددية في الحدود التي توضع لها..

[illegible]

[illegible] وتعالى ـ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ [illegible] هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] [illegible] الحكمة [illegible] الموعظة [illegible] استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منه كما يشمئز طبع [illegible] يبين الآدمي، وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن [illegible] من القرآن [illegible] غذى البدوي [illegible] وهو لم يألف إلا التمر [illegible]»[3].

[illegible] بهذه الحقيقة الواحدة

[illegible]

---

(1) (الإمتاع والمؤانسة) ج٣ ص ١١٣ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٤م

(2) أبو حامد الغزالي [illegible] من رسائل حجة الإسلام الغزالي) ص ٨٢

(3) (القسطاس المستقيم) ص ١٠ ـ ١٢ ضمن مجموعة القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي

[illegible] فضلاً عن [illegible]

[illegible]

مسلم من الطريق الذي اقتضت جبلته وطبيعته من [illegible]

[illegible]

[illegible] البرهان، إذ ليس في طاعة أكثر من ذلك [illegible]

[illegible]

طرق [illegible] ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل: ٢٥]

فالحقيقة واحدة، وفي إطارها تتعدد [illegible]

خطاب، باختلاف مستويات المخاطبين.

وكما تعددت وتتعدد مستويات ومراتب المخاطبين [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وبديهيًا!..

[illegible]

المرتبة الأولى: [illegible]

[illegible]

(١) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ص٥، ٣٠، ٣١

والمرتبة الثانية: [illegible]

والمرتبة الثالثة: الذين صار بهم العلم وصف من الأوصاف [illegible] البديهية في المعقولات الأول، أو تقاربها، [illegible] لا يحتاج إليه، فهؤلاء لا يحملهم العلم [illegible] بهم الحق، بل يرجعون إليه رجوعهم إلى دواعيهم البشرية وأوصافهم الخلقية. فهم أولوا العلم من أجل العلم، لا من أجل غيره..»[1].

هكذا تعددت وتنوعت الاعتبارات في ميدان الحقيقة الواحدة. وذلك باعتبار الأسماء والحدود ومراتب الخطاب ومستويات المخاطبين ومراتب العلماء. فوجدنا أنفسنا بإزاء تعددية في إطار الوحدة. كما وجدنا ذلك من قبل في ميدان الإيمان الواحد، الذي تعددت فيه مراتب التصديق ودرجات التصورات.. وحظوظ المؤمنين من القبول للإيمان.

* * *

(١) (الموافقات) ج١، ص٣٤، ٣٥

نزوع إنسانى إلى المعرفة
وتعدديّة فى نظريّاتها

[illegible]

ومع هذا المشترك الإنسانى العام ـ النزوع إلى المعرفة ـ تتمايز مذاهب الأمم والحضارات فى نظريات المعرفة، أى فى تحديد مصادر المعرفة، وفى سبل اكتسابها.

[illegible]

فى القرن الخامس قبل الميلاد. فرأت المادة المصدر الوحيد للمعرفة، ورأت الفكر انعكاساً لها وحدها، [illegible] المعارف غير المادية انعكاساً لأوهام الخوف من الظواهر المادية والطبيعية المجهولة [illegible]

ولقد ظلت هذه النزعة المادية [illegible] الحضارة الغربية ـ حتى عصرنا [illegible] عبر ذلك التاريخ.

[illegible]

فقه يستحق أن يكون سبيلاً للمعرفة الحقة والعلم الحق.

[illegible]

في الديانات الوضعية - غير السماوية - في الشرق الآسيوي، وخاصة في شبه القارة الهندية وما حولها.

[illegible]

[illegible] الذين كانوا ينكرون الوحي والنبوة والرسالة - كانوا ينكرون وجود [illegible] للمعرفة، ومن ثم يقفون بها عند الدنيا والواقع والمادة. كما كانوا [illegible] اكتسابها عند «المشاعر والحواس»، فيقولون: «إنه لا طريق للعلم سوى الحس» [illegible]

[illegible]

أما النص الذي يذكر هذه [illegible] أقدم كتاب كتب في [illegible] البلخي (٣١٩هـ/٩٣١م). [illegible] السمنية أتوا جهم بن صفوان، فقالوا له.

[illegible] مادة «السمنية» طبعة الهند سنة ١٨٩٢م

ـ هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة؟

ـ فقال: لا.

ـ فقالوا: فحدثنا عن معبودك ـ الذي تعبده ـ أشيء وجدته في هذه المشاعر؟!

ـ قال: لا.

[illegible] فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك وليس معبودك منها، فقد دخل في المجهول!

فسكت جهم!»

[illegible] «الواقع المحسوس» [illegible]

[illegible]

[illegible] الوضعية[1]»

* * *

[illegible] في نظرية المعرفة، تلك التي احتقرت المادة والواقع، [illegible] المعرفة عند «الفيض» و«الهبة» و«الإلهام»، [illegible] من سبل المعرفة «بالحدس» القلبي و«التأمل» الوجداني [illegible] «المعرفة» في هذه [illegible]

---

(١) (المعجم الفلسفي) وضع مجمع اللغة العربية ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م

[illegible] العصر الحديث و معاصر بنيه [illegible] في [illegible] معرفة [illegible] في [illegible] المقدسة الوضعية

كانت الكنيسة الكاثوليكية بنت هيمنتها على الحضارة الغربية ـ سواء في ظل «القيصرية ـ البابوية» التي هيمنت فيها الكنيسة على السلطة الزمنية أو في ظل «البابوية ـ القيصرية» عندما أصبح «البابوات» «قيصرة» أيضاً ـ كانت هذه الكنيسة قد جعلت «اللاهوت» هو المصدر الوحيد للمعرفة، فقدست المعرفة وشيطنت الحياة، عندما جعلت لها قدسية لدين وثباته ـ وبمقابل «الواقع» عن أن يكون المصدر الثاني للمعرفة، منعت «الشرعية» عن ثمرات معرفة هذا «الواقع»، ومن هنا كان «التحريم» لمكتشفات الحديثة، و«الحرمان الديني» لمن يصنعون «المعرفة» خارج «اللاهوت»!

لقد جعلت الكنيسة من «المعرفة» شأناً سماوياً خالصاً، لا مكان فيه لـ«الواقع» وأدوات إدراكه وتصوره، فجاءت النهضة الغربية الحديثة كرد فعل عنيف ومضاد لهذا الموقف الكنسي، لتجعل من «الواقع المحسوس» المصدر الوحيد للمعرفة، ولتجعل من التجربة الحسية ـ لمذاهب التجريبية بأنواعها ـ الأسس الوحيدة لتحصيل المعارف والعلوم!..

لقد فتحت هذه النهضة الغربية الحديثة صفحة جديدة لمنهج المعرفة الحسية، الذي عرفه تاريخ الفكر البشري لدى أصحاب النزعات المادية بشتى أنواعها، ولدى أهل الديانات الوضعية ـ مثل «السُّمنية» التي أشرنا إلى نموذجها من قبل ـ فجعل هذا التيار الوضعية الغربية إلى حد ما رغم أن «لدين وضع بشري»! وليس «وضعاً إلهياً»، وذلك عندما أنكرت هذه الوضعية «الوحي» كمصدر من مصادر المعرفة الحقيقية، واعتبرته ـ في أحسن الحالات، وأحب وألطف التعبيرات ـ ميتافيزيقا، وخيالات، إن جاز أن تكون تصورات لمرحلة من مراحل طفولة وسذاجة العقل الإنساني، فغير جائز أن تكون «معرفة» بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح!.

[illegible]

وكما قال «السمنية» قديمًا: إن ما عدا «المعروف بالحواس» هو «مجهول» [illegible] من المعرفة [illegible] مذهب الوضعي [illegible] وحسب كونت (١٩٠٩ - ١٨٥٠ [illegible]) [illegible] «الواقع» المحسوس هو «أهم» من الأوهام! [illegible] [illegible] مستمدة من الحس أو التجربة المباشرة، وليس من الفطرة أو المصدر العقلي [illegible] [illegible] «الوضعية» [illegible]!

[illegible] اللاهوتي في مصادر المعرفة وسبل تحصيلها. لقد جعلت الكنيسة المعرفة شأنًا سماويًا خالصًا، لا علاقة لها «بالواقع» [illegible] فجاءت الوضعية لتجعلها شأنًا أرضيًا «وضعيًا» خالصًا، لا علاقة لها بالوحي ولا بنبأ السماء!..

والأمر الذي يؤكد هذه الحقيقة هو ما ذهب إليه أبو الوضعية العربية، و«مبتني دينها الوضعي» [illegible] وحسب كونت [illegible] راها مراحل ثلاثة:

١ - المرحلة اللاهوتية: هي مرحلة الحكم الديني.. التقليدية، التي اتسقت فيها [illegible]

---

(١) انظر (القاموس الفلسفي) - مادة «المذهب الوضعي» [illegible] ثلاثة، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

(٢) (القاموس الفلسفي) - وضع مجمع اللغة العربية - مادتي «وضعية» و«عقلية».

٢ـ والمرحلة الميتافيزيقية: التي حدث فيها نوع من الفوضى، تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم

٣ـ والمرحلة الوضعية: [illegible] وتسود فيها المعرفة الوضعية، وتصبح الدين وضعياً أيضاً [illegible] الإنسانية [illegible] الاجتماعية»[1] [illegible] «إننا ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي ـ الذي نجح في علوم الطبيعة ـ يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير»[2]

لأنه قد رأى كل أبعاد التفكير وكل ألوان المعارف، وكافة العلوم صادرة عن مصدر واحد للمعرفة، هو «الواقع المحسوس» فكل المعارف «تجريبية»، ومن ثم يمكن التعبير عنها «بلغة الفيزيقا»[3]!

[illegible] الوضعية [illegible] الوضعية المنطقية، والتجريبية [illegible]

[illegible] ٦٤٢ [illegible] الوضعية [illegible] العقل البشري عندما تجاوزت الإنسانية مرحلة طفولتها

[illegible]

---

(١) (الموسوعة الفلسفية المختصرة) ص٢٦٦، ٢٢٧ [illegible] ١٩٦٣م

(٢) محمد أمزيان (منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية) ص٥٢ [illegible] الإسلامي [illegible] ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

(٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٤١٧

هي «كتاب الوجود»، معرضة عن [illegible] الأخرى [illegible] الخلل القديم، من جديد!

* * *

[illegible] المادة وحدها، [illegible] وتعالى ـ كتاب الوحي المسطور، وكتاب الكون المنظور. ـ أي [illegible] غير المادية [illegible] في الأنفس والآفاق.

ولقد انطلقت هذه الوسطية الإسلامية الجامعة ـ في نظرية المعرفة ـ من [illegible]

[illegible]

[illegible] يتدبر فيها؛ ليستخلص المعارف، ويحصل العلوم، ويستلهم المثل ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١] ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣) ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط (٥٤)﴾ [فصلت: ٥٣]

و وحي الإلهي ـ كتاب الله المسطور ـ وكتاب الله المنظور الذي خلقه من أجل أن يتدبره الإنسان ويتعرفه، وعلوم ومناهج التربية في صياغة النفس الإنسانية وتركيبها. لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (آل عمران ١٦٤) ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (الأنفال ٢)

هكذا تتعدد الإسلام بمعارفه المصدرية من أجل التحكم على النفس الإنسانية، محققا بها التوازن الذي يحقق توازن الإنسان المعارف في هذه الحياة.

وفي سبيل معرفة الحق الإسلام قد تعددت عند المسلمين مدارس ومناهج تخصصت في معارف وعلوم وثقافات تتعلق بمعارفه وبيانات كتابه وسنة تخصصت هي الأخرى بالعقل والتجربة والوجدان تتراوح وتتداخل وتتكامل في تحصيل المعرفة بكتاب الله المسطور وفي كتابه المنثور في كتابه المسطور، مع تفاوت دور كل هداية من هذه الهدايات ووزن كل سبيل من هذه السبل، حسب طبيعة حقل المعرفة التي يكون الإنسان بصدد تحصيلها..

ففي العلوم الكونية تتسع الآفاق أمام العقل والتجريب، وذلك دون أن يغيب النقل والوجدان عن المقاصد منها، والضبط لتصيقاتها.

وفي علوم الشرع، تتسع الآفاق أمام العقل والنقل، وذلك دون أن تغيب التجربة عن تطوير الاستدلالات والبرهنات، أو يتخلف الوجدان عن إحياء هذه العلوم.

وفي علوم التزكية للنفس والمجاهدات الروحية تتسع الآفاق أمام النقل والوجدان، وذلك دون أن تغيب التجربة عن ربط هذه النفس الزكية بالواقع الذي تعيش فيه.

وفي كل الحالات، وجميع الميادين، تظل هذه الهدايات جميعا ـ دائما وأبدا ـ منظومة متكاملة ومتفاعلة في تحصيل المعارف والعلوم في السبق الفكري للإسلام.

وكم أقصت النظرة الإسلامية في المعرفة العلمية من مدارس ومناهج تعارضت مع الوحي والكون ـ المسلم بصورة ثابتة في سبل معارفه وبيانات تخصصاته. فلو

كسبها ... فلا يقف عند عقل و تجربة واحدة، كما هو حال الوضعية المنطقية ولا عند نص و نوعين واحدة، كما هو حال الإشراقة و الباطنية و الصوفية. وهي تستدعي تجربة الإسلام في المعرفة بما استطاع تكوين ... بهذا الاسم" العقل و النقل و التجربة و يوحد ... منظومة متكاملة، متداخلة متحاورة و كسب المعارف و العلوم.

وهي عندما تحقق هذا التوازن المعرفي لدى المتلقي تؤدي وظيفة تربوية، وفي تفاعل أسماء يستمر فيتأثر بعض ... ويتأثر بعضه الآخر، كما تحقق هذه الإنسان المسلم من حصر ومحاصرة المثلثات المتداخلة والمتقاطعة، تلك التي أشعت الإنسان العربي عندما قطعت عنه الاتصال بالخالق روحي وجوده المعنوي في محاصرة المعارف وحكمتها ومقاصدها، وعندما قطعت "الجزيرة" بين "العقل والنقل" المتوازنين تعيشان دماراً لروحانيته ولطبيعة من حوله.

وتحقق هذه الوظيفة التربوية للمثلثات المتداخلة التي "همشت" الإنسان، عندما حضرته في توحيد ... بدلاً من أن يجعل وحدته هو ... ومنطقه و مقدماته المنطقية منطلقاً، هذه هي الإنسان

تلك هي معالم نظرية المعرفة الإسلامية مستخلصة من ... الكريم

ولأن بناء "العقلانية الإسلامية المعاصرة" في ... يحتاج إلى ... فإن هذا الموقف الذي ... يعتبر رأساً واصل بن عطاء يستعيد الخلاف بين صفوان ... عندما انهزم في معركة "السمنية" حين ... نظرية المعرفة في الإسلام في نظرية المعرفة، ذلك الذي لا تنفصل بنيتها عن "الشعور و الحواس الخمس" و ... لا يستطيع أن "يتجاوز" لسبب غير عادي لإدراك مدرك غير عادي، ... الذي قد يكون عادياً. و الحدس وحدسيّ، أو من بوادر التغير و التجاوز.

وعندما كان الخلاف بين صفوان بن ... و واصل بن عطاء في سبب "تعرف الحسية" عن "المشاعر الخمسة" ... حيث ... واصل بأن "المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة وعن سبيل ... فرجع إليهم لأن، وقل لهم هل تفرقون بين الحي والميت؟! وبين العاقل و المجنون؟!. فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يُعرف بالدليل لا بغيره!

هنا - في هذا الجزء من هذا النص الذي كتبه واصل بن عطاء - يقدم واصل الإضافة الإسلامية في نظرية المعرفة. فهو لا ينكر المعرفة الحسية، ولكنه لا يقتصر عليها، وإنما يضيف إلى أدواتها - المشاعر - الحواس الخمسة - يضيف «الدليل». والدليل ليس حاسة مادية. وبه يدرك الإنسان المعروف والعلوم غير المادية، والتي لا تخضع لتجارب الحس والحواس.

[illegible]
[illegible]
[illegible]
الاستدلال المنطقي[1].

فالدليل ليس فقط الحاسة التي تدرك المحسوس - كما هو الحال في نظريات «المعرفة الحسية» - بل قد يكون لازم العلم بالمحسوس. والإدراك به ليس مباشراً، كحال الإدراك بالحواس. ومثاله أن نلزم من العلم بالمصنوع البديع - وهو محسوس - العلم بوجود الصانع المبدع، وهو معلوم غير محسوس، لا تدركه الحواس!

[illegible] واصل بن عطاء «الدليل» إلى «الحواس الخمس»، فعبر عن الرفض الإسلامي للمعرفة الحسية، التي تقف بالمعروف عند «الواقع المحسوس»، وبأدوات الإدراك وسبل المعرفة عند الحواس الخمس وحدها.

[illegible] تتأمل الأمثلة التي طلب واصل من الجهم بن صفوان أن يتحدى بها [illegible] الإسلاميون أصحاب [illegible] والمعرفة الحسية في هذا الميدان.

لقد طلب منه أن يقول لهم: «هل تفرقون بين الحي والميت؟ وبين العاقل والمجنون؟» وإذا كان جوابهم - ولابد أن يكون - «نعم»، لزمتهم الحجة؛ لأن هذه التفرقة لا سبيل إليها إلا بـ «الدليل». [illegible] «فالحياة» ليست مادة تُدرك بالحواس و«الموت» ليس مادة. وكذلك «العقل» و«الجنون». جميعها ليست مادة محسوسة تدركها الحواس!..

---

(1) انظر: الجرجاني (التعريفات) و(المعجم الفلسفي) - وضع مجمع اللغة العربية - القاهرة.

... واصل بن عطاء يصدر هنا عن حقيقة معرفية هي صميم العقل العربي، الذي أثمرته موجة الفلسفة الهندية واليونانية. فطن أن «العقل» هو مادة «المدرع»، و... يفكر؛ لإدراك ما هو لا يعقل من الأشياء... واصل بن عطاء يقف على حقيقة تقع في صميم "العقل" فهو يجعل من عطاء واصل حقيقة تقع في الإنسان ذاته، فيحدث عنه بأنه عقل و"قلب" جوهر لأنه يرى بالعقل، ثم يحدد "القلب" بأنه "محله ومصدره" فالقلب لأيسر من الصدر، وإنما يعني أن «قلب» الجوهر... اللب... الذهني... من يعقل به... الذي يضم الحس ويجمع عليه المعلومات والأفكار، هي قضية ربانية، بها يتصل الحسي الذي تعلق به، هي: حقيقة الإنسان، التي يسميها الفلاسفة: النفس الناطقة(١)! لقد صدر واصل بن عطاء، في حديثه عن «المعروف غير المدرك بالحس» من مثل الحس... والموت... والعقل... والجنون... الذي يدرك بـ«الدليل»، وليس بالحواس الخمس... صدر عن حقيقة انطلق منها عن انطلاقه الإسلامية في معرفته، تلك التي لا تعترف بالمعرفة عند الواقع المحسوس، ولا بوسائل المعرفة عند الشاعرة والحواس!

... حقيقة هذا النص هي التي جعلت منه أن يكون أول نص يعبر عن... الإسلام وفكره المستمد في نظريته المعرفية... هذا النص... التي سنحاول في كتابنا (العقلانية الإسلامية... نظريتها المعرفية) أن نبين... واصل بن عطاء... هذا النص "الجوهر" الذي نجد عليه "المعتمد" في...

ـ ليس هذا من كلامك! فمن أين لك؟!

ـ فقد كتب به إليّ رجل من العلماء ـ بمصره ـ يقال له واصل

فخرجوا إليه ـ (يعني واصل). وكتموه، فأجبوه إلى الإسلام!...(٢)

---

(١) الجرجاني (التعريفات)

(٢) [illegible] طبقات المعتزلة ص ٢٢٦ [illegible] سنة ١٩٧٢م

[illegible] الإسلام في المعرفة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible][1]

* * *

[illegible] الإسلام في المعرفة، موضوعية وملحوظة في التراث الإسلامي [illegible]
[illegible]

[illegible] الإسلام [illegible]
[illegible]
[illegible] الرباني»[2].

وولي الله الدهلوي يتحدث عن دلالة العقل و [illegible] والتجربة على أن [illegible] الإنسان [illegible] فالعقل [illegible] والقلب [illegible] والنفس [illegible]
[illegible] المعرفة الإسلامية [illegible]
[illegible]

[1] [illegible]
[2] [illegible] الغزالي من رسائل الإمام [illegible]

[illegible] مصادر المعرفة، وسبل اكتسابها وتحصيلها..

[illegible] الإسلام في المعرفة [illegible] أعلام مدرسة الإحياء [illegible] في عصرنا الحديث [illegible] فالإمام محمد عبده يتحدث عن "كتاب الكون" [illegible] يمكن للإنسان أن يصل إلى معرفة [illegible] وعن "كتاب الوحي والغيب" [illegible] يخبر عن الله سبحانه وتعالى [illegible] كما يتحدث عن سبل المعرفة [illegible] "الهدايات الأربع" [illegible] في سورة [illegible] الصراط المستقيم (١) [illegible] [الفاتحة: ٦] [illegible] عن هدايات العقل" [illegible] و"التجربة" و"الوجدان"

"الهداية في اللغة [illegible] الدلالة [illegible] على ما توصل إلى المطلوب. ولقد منح الله تعالى الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته.

أولاها: هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري، [illegible]

الثانية: هداية الحواس والمشاعر، [illegible] الإنسان [illegible] الأعجم [illegible] من الإنسان [illegible] الحواس [illegible] الإنسان [illegible] في [illegible]

الثالثة: هداية العقل: خلق الله الإنسان ليعيش مجتمعًا، ولم يُعط من الإلهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل [illegible] هداية [illegible] الإلهام [illegible] العقل [illegible] يستحق غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه. وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرًا، ويرى العود المستقيم في الماء معوجًا، والصفراوي يذوق الحلو مرًّا، والعقل هو الذي يحكم بفساد هذا الإدراك

---

(١) (حجة الله البالغة) ج٢ ص٨٨

(٢) (الأعمال الكاملة) ج٤ ص٤٦٦ - ٤٦٧

الهداية الرابعة: الدين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] شخصية و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حتى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ثم إن مما أودع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان، [illegible] [illegible] كل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ثلاث [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] هذه الهداية الرابعة: الدين، وقد منحه الله تعالى إياه.

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أخرى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وهناك معنى هداية أخرى، وهي المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠] فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره [illegible] ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كل شيء سواه»[1]

[1] (الأعمال الكاملة) ج٤ ص [illegible]

وهكذا صار [illegible] نظرية معرفية في [illegible] الفكر الإسلامي [illegible] "الوحي" [illegible] "العقل" [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible] محددًا لفكر الإسلام. وكتب الشيخ محمد الفاضل بن عاشور (١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ / ١٩٠٩ - ١٩٧٠م) عن شمول [illegible] على «المتصلة بالمادة، والمتصلة بما وراءها [illegible] [illegible] العربية، و[illegible] المدركات الحسية، ثم المدركات [illegible] المدركات العقلية [illegible] المدركات اللغوية الآتية من طريق الوحي. [illegible] هذه المدركات متفاوتة متساندة، لا يمكن [illegible] [illegible] بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطرق، يمكن أن يصل به طريق آخر منها، [illegible] فعقل الإنسان، وعقيدته، وحسه المادي، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يجافي بعضها بعضًا، ولا يقطع أحدها سبيل الآخر»[1].

[illegible] والتصور، والمعقول للموجود[2] والمعلوم.

---

(1) محمد الفاضل بن عاشور (روح الحضارة الإسلامية) ص ٢٠، ٢١ طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن سنة ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

(2) [illegible] المعرفة الإنسانية، والعلم الإنساني عن العلم الإلهي، المتصف بالإحاطة، [illegible] الإنسانية والعلم الإنساني.

فإلى المعرفة هناك نزوع إنساني عام، على امتداد التاريخ، وفي كل البقاع، ومن كل الأجناس..

أما في نظريات المعرفة ـ مصادر المعرفة.. وسبل اكتسابها ـ فتتمايز وتتعدد مذاهب الأمم والحضارات..

ومن هذه المذاهب في نظريات المعرفة

ـ **المذهب المادي الوضعي**: الذي جعل المعرفة حسية، مصدرها الواقع المادي المحسوس.. وسبلها العقل الإنساني والتجربة بالحواس.

ـ **والمذهب الإشراقي الباطني**: الذي أثار ظهوره بالواقع المادي.. والعقل والنقل.. مختزلاً مصادر المعرفة في الفيض والإلهام.. وسبلها في الحدس القلبي.

ـ **والمذهب الإسلامي**: الذي تكاملت فيه مصادر المعرفة، عندما جمعت بين عالمي الغيب والشهادة، وكتابي الوحي والكون.. وتكاملت فيه كذلك سبلها وأدوات اكتسابها، فجمعت بين العقل والنقل والتجربة والوجدان.

فكان ذلك في الإسلام واحداً من ميادين التعددية ـ في نظريات المعرفة ـ بالنظرة الموحدة في النزوع الإنساني إلى المعرفة.

❊ ❊ ❊

إنسانيّة واحدة وتعددية فى الأمم والشعوب والقبائل والأجناس

فى التصور الإسلامى لبداية البشرية والإنسانية [illegible] السلام [illegible] وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (٢٩) [الحجر: ٢٨، ٢٩] [illegible] وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون (٣٠) [البقرة: ٣٠] [illegible] يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (١) ﴾ [النساء: ١]

وفى إطار هذه الوحدة تعددت وتمايزت واختلفت الأجناس والألوان والأمم والشعوب والقبائل والألسنة واللغات والقوميات والحضارات، إلخ، إلخ، أنواع وألوان من التعددية فى إطار الإنسانية الواحدة، والبشرية التى يرجع إليها وينتسب الجميع.

ففي إطار الإنسانية الواحدة يتميز كل إنسان ببصمة لسانه ونغمات صوته، وذبذبات نطقه وبصمة بنانه ـ بل وعيه ونفسه ـ عن سائر إخوانه من بني الإنسان!.

وفي إطار البشرية الواحدة تتميز الأمم باللغات التي ترسم على خارطتها دوائر القوميات.. كما تتميز في هذا الإطار الألوان والأجناس..

[illegible] ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢].

[illegible] الإنسانية ـ بكل مثال!..

ويعد الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ ١٠٧٥ ـ ١١٤٤م) [illegible] والألوان وتنويعها»(٢) أما إذا كان الاختلاف والتنوع والتعدد في اللغات ـ التي ترسم حدودها دوائر الأمم والقوميات ـ فإن أمر هذا التنوع واضح للعيان.. وهو تنوع لا ينفي الاختلاف في الألسنة عند كل فرد من الأفراد..

* * *

(١) الطبرسي [illegible] ج٣ ص ٢٨١ انظر (أصول العلوم الإنسانية [illegible]) ج١ ص ٢٢٥

(٢) (الكشاف) ج٣ ص ٢١٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م

وتمييز [illegible] في الأنسان [illegible] والأجناس [illegible] الإنسانية إلى شعوب وقبائل [illegible] وذلك [illegible] كل شعب وقبيل على [illegible] الشعوب [illegible] في الإطار الإنساني الجامع لسائر الشعوب [illegible] ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات، ١٣].

[illegible] الاختلاف بين الجماعات والشعوب والقبائل، هو [illegible] في [illegible] الإنسانية [illegible] قد جعل حكمته في التعارف بين بني الإنسان [illegible] وهو منطق مؤسس لفلسفة إنسانية ترفض التعصب للعنصر والجنس ضد بقية الأجناس، وتنكر دعاوى احتكار الفضائل في أمة بعينها دون الأمم الأخرى، وترى الفضائل والرذائل مشاعا بين كل الأمم والشعوب، تتفاوت فيها بالكسب والتدافع والاستباق، فتتعدل مواريثها منها، وتتفاوت أرصدتها فيها، دون أن تكون حظوظها منها طبعًا وجبلة يستعصيان على التعديل والتغيير.

ولقد صغت هذه الفلسفة - في التعددية والتنوع بين الأمم والشعوب في إطار الجامع الإنساني - طبعت الثقافة الإسلامية بالطابع الوسطي الذي راوح ما بين الخصوصيات التي تتمايز بها وفيها الأمم والشعوب، وما بين شيوع الفضائل والرذائل في سائر الأمم والشعوب، فكان الاعتزاز بالخصائص والمميزات، دون إنكار الخصائص ومميزات الآخرين [illegible] الثقافة الإسلامية [illegible] الشعوبية الأعجمية والتعصب القبلي العربي كليهما [illegible] ذلك أن الاعتبار الفضل [illegible] على [illegible] والرديء والرأي الصائب والفضائل، والنظر في الأول والآخر [illegible] الأمر على هذا، فلكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضي [illegible] الخيرات والفضائل والشرور [illegible] على جميع الخلق، [illegible] كلهم

---

(١) (في ظلال القرآن) ج٥ ص ٣٣٤٨

فتفرس سياسة و أدب و حدود و علوم تعلم و حكمة و بهجة تفكر و [illegible] و حفظ (شعوذة) و سحر و [illegible] و سرت شجاعة و إقدام و بسالة و تكبر و تفرج و تعرب تحدد و تقرى و [illegible] و خلاعة و خبث و حصانة و [illegible]

ثم إن هذه الفضائل المذكورة ـ في هذه الأمم المشهورة ـ ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ثم في جملتها من هو عار عن جميعها، وموسوم بأضدادها. فقد بان بهذا الكشف أن الأمم كلها تقتسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة، واختيار الفكرة

ثم إن كل أمة جارت على صنفها، وهذا أمر مكشوف [illegible] وهبك في دولة يونان الإسكندر، ثم غلب وسار وملك [illegible] وكذلك [illegible] في حديث كسرى أنوشروان وحدث هذه الأحوال بأعيانها [illegible] وقد رأيت العرب حين هبّت ريحهم وأشرقت دولتهم بالدعوة [illegible] وعرب فيهم [illegible] وعلت سوتهم بالشريعة، [illegible] وتشرف خلافتهم بالسياسة [illegible] وتدوينه [illegible] تحولت جميع هذه الأمم إليهم [illegible] وغلب فضلهم لاحقين عليهم

وهذا التحول من أمة إلى أمة يشبه [illegible] فيض جود الله تعالى على جميع [illegible] بحسب استعدادهم لقبوله، واستعدادهم على تحويل بعضهم في بعض بشيء من فضله

فالأمم كلها شرع واحد في علم الكتاب، إلا أنهم متفاضلون بعد هذا فمنهم [illegible] بالخلقة الأولى، وبالاختيار الثاني [illegible] (1)

فهذه الفلسفة الإسلامية ـ في تعددية ـ يصير المجتمع الإنساني ـ قد أثمرت ثقافة إنسانية في انطوائها على خصائص وثمرات الأمم والشعوب [illegible] سواء منها الموروث بالخلقة الأولى ـ أو المكتسب بالاختيار الثاني ـ وهي ثقافة محققة لأهمية [illegible] وإلى تعدد وتغاير واختلاف بين الأمم والشعوب [illegible] حكمة تعارف [illegible] المتغايرين في الإطار الإنساني العام.

(1) أبو حيان التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة) ج1 ص 73، 75، 81، 89

من تقرير هذه الفلسفة الإسلامية بين "الجامع الموحِّد" وبين "التعدد والتمايز والاختلاف" يتضح أن لا قيام لأحدهما دون الآخر. فلا "جامع" لا يمكن تصوره إلا في "فرقاء" يجمعهم هذا الجامع. ولا "تعدد" لا يدرك ويتصور إلا في "جامع" يتم هذا التعدد. وبعبارة أخرى فإن "الأمم" تجري في الحكمة الإلهية غير هذه الفلسفة، لأن الاشتراك والتواصل لا تتصور بين كل شتات، ومتباين وغريب من الأشياء. فلا يتصور أن يتواصل أحد مع أحد إلا في إطار ما يتصورون به مشتركين.

فهي تعددية في إطار التوحيد، وتنوع في نطاق الجامع، واختلاف وتمايز في الإطار الإنساني العام.

فالتنوع والتعدد والاختلاف سنة الله في الخلق، لا يمكن لأي مخلوق أن يحيد عنها أو يغيرها، فهو في حقيقته تعبير عن هذا التنوع والاختلاف ﴿وخلقكم أزواجا﴾ [النبأ: ٨]. فلا توحيد في الإنسان إلا من فرقاء متمايزين ومتعددين مختلفين. فالإنسية الموحدة في التصور الإسلامي أمم وشعوب وقبائل، وألسنة ولغات وألوان وأجناس. تتنوع وتتمايز وتتعدد وتختلف في الإطار الإنساني الجامع.

من هذه الفلسفة الإسلامية في التعدد والتمايز والوحدة لا تقف عند هذا الحد في تصوره، بل تتجاوزه لتشمل أيضاً علاقة الخالق بالمخلوق: فهو ربّ الجميع ﴿ثم قد خلت من قبلكم من القرون﴾ [الأعراف: ٣٨]. وتقرر لهم العبادة والشريعة والمنهج، كما تقرر في الإنسان ﴿وإما شاكراً وإما كفوراً﴾ [الإنسان: ٣]. ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ [المائدة: ٤٨]. ﴿وأما الذين أسلمت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ [آل عمران: ١٠٧]. ﴿وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ [آل عمران: ١٠٦].

إنها سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل: التعددية في إطار الوحدة، والاختلاف في إطار الجامع المُوَحِّد، والتمايز في إطار الائتلاف

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢١٢

أمـــة واحدة
وتعددية فى الملـل .. والأقـوام..
والمذاهـب والأحـزاب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لأمم تتكون عادة اعتماداً على التاريخ المشترك ووجود عناصر [illegible]

[illegible] الذي يرى «الأمة [illegible] الأفراد الذين يكونون وحدة [illegible] وآمال [illegible]»[2].

[illegible]

وبعضها [illegible].

فالحضارة العربية قد صنعت «الأمة» أمثال هذه [illegible] حتى خلطت بينها وبين [illegible]

[illegible]

(1) (قاموس علم الاجتماع) تحرير ومراجعة د. محمد عاطف غيث، [illegible] القاهرة ١٩٧٩م.
(2) (المعجم الفلسفي) وضع مجمع اللغة العربية، القاهرة.
(3) [illegible]

وشيوع هذا المفهوم - الذي يطابق بين «الأمة» و«الدولة» - في قواميس ومعاجم الأمم التي مزقها القهر الاستعماري الغربي، أو المصالح الإقليمية الضيقة لبعض العشائر والفئات والطبقات، والتي أثمرت نظم «ملوك الطوائف» الذين صنعهم ويرعاهم الاستعمار وهيمنة الحضارة الغربية. إن شيوع هذا المفهوم يسهم ولا شك في تشكيك هذه الأمم بوحدتها، فيفقدها الاتجاه الموحد نحو استكمال وحدتها كأمة، ونحو إقامة الدولة الواحدة التي ترسخ وحدة الأمة وتنمي سماتها وقسماتها. وهنا تنهض المفاهيم العربية - عندما توظف خارج إطارها وتزرع في غير أرضها - بدورها في مؤازرة غيرها من أدوات القهر والاستلاب التي صنعها ويصنعها الاستعمار. وفي هذا الإطار، وتحت هذا الضوء يجب أن نرى قيمة ومرامي ونتائج دعوى الذين ينطلقون من المفاهيم الغربية عن «الأمة» لينكروا وحدة المسلمين كأمة!

* * *

ومن هذه المعاجم والقواميس [illegible] الخلط بين «الأمة» و«الدولة»، مع [illegible] في تعريف الأمة بخصائص التعريفات المنطقية [illegible] مشتركة، كوحدة الأصل واللغة و[illegible] وحدة، ويخلق عندهم شعوراً بالانتماء إلى تلك الوحدة وتعلقاً بها [illegible] تضم عناصر مختلفة، كما كان الشأن بالنسبة للإمبراطورية العثمانية [illegible]

[illegible]

(١) المعجم الكبير) - وضع مجمع اللغة العربية - طبعة القاهرة ١٩٧٠م.

وقد تعمدنا الإشارة إلى هذه الخاصية الحديثة في تعريف «الأمة» لنبرز ـ كما سيأتي ـ الفرق والخلاف مع المنهج العربي الإسلامي في تعريف «الأمة» ذلك المنهج الذي ابتعد ـ قصداً وعامداً ـ عن الضبط والتحديد ووقف في التعريف للأمة عند حدود «الجماعة»، فاعتبر «الجماعة» أية جماعة ـ التي يربطها رابط ويجمعها جامع ـ أمة، كما هو واضح من عشرات «الأمم» المتناثرة في معاجم اللغة العربية. وراء هذا المنهج العربي الإسلامي دلالات فكرية تنم عن خصوصيات الثقافة العربية الإسلامية الخالصة، ونحن قد بحثنا عن مفهوم ومضمون مصطلح «الأمة» في حضارتنا العربية الإسلامية، وذلك فضلاً عن شهادة هذا المنهج نفسه في تعريف «الأمة» بوحدة المسلمين كأمة واحدة، ذات حضارة واحدة.. وقيام الاختلاف في هذه الأمة الواحدة..

مفهوم الأمة في أصول العربية

يقول الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ ١٠٨ م) في كتابه (المفردات في غريب القرآن) عند تعرضه لتعريف «الأمة»: «هي كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً، وجمعها أمم». فهي إذن جماعة يجمعها أمر ما تشترك فيه على نحو ما، سواء أكان هذا الجامع ضعيفاً وتسخيرياً كما هو الحال في جميع الأمم (أي جماعات الأمم) غير المختارة، وفي جوامع طبيعية هي جميع جماعات (الأمم) الإنسانية ـ أو كانت جوامع مختارة وضعية كاللغة، مثلاً.

وقد استقر استخدام هذا المفهوم لمصطلح «الأمة» في تراثنا المعرفي، وفي معاجمنا العربية، وكتب التعريفات وكشافات مصطلحات العلوم[1]، وهو المنهج الذي التزمت به هذه المعاجم ـ وهو (المعجم الكبير) الذي نحن بصدد

---

١ المفردات في غريب القرآن، ص ٢٣

٢ (لسان العرب) لابن منظور ـ طبعة دار المعارف القاهرة ـ والتهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة بيروت ١٩٦٢م

و لسنة نبوية شريفة و شعر العربي - وهي دواوين لغة العربية ومصادرها الأصيلة - فكشف عن أصالة هذا المصطلح وبهائه في عقل العربية

فالأمة هي الجماعة ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [آل عمران ١٠٤] وهي الجماعة من كل حي، وهو ما تكلم الشرع ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام ٣٨] وهي الجماعة من الناس يرتبطون برباط «الجنس واللغة» ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم﴾ [الرعد ٣٠] وهي أمة النبي أي الجماعة التي بعث فيها الرسول إليهم - الذين آمنوا منهم، والذين ضلوا على كفرهم، فهم جميعا «أمة الدعوة»، ويجمعهم الجامع الدعوة ورباطها والذين آمنوا منهم هم «أمة الإجابة» يجمعهم الجامع الإيمان ورابطة الإجابة ثم هي بعد ذلك تقوم بالشهادة وتكون أمة القيام الجماعة كما شرحنا لدى الآية ١٢٠ والجامع الجامع للجميع ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا﴾ [النحل ١٢٠] والمنفرد بين الحق رغم ضلال الأمة والضلال «يبعث يوم القيامة زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده»(١)!

كما يطلق المصطلح - مصطلح «الأمة» - على «الدين والملة» كجامع يجمع الجماعة فيجعلها أمة ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (٢٣)﴾ [الزخرف ٢٣] وعلى نسبة وطريقة بهذا المعنى وكذلك على «الجنس واللون» كرباط جامع من المعيشة كما في الآية ٨ من سورة هود ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه﴾ [هود ٨] وأخيرا يصل هذا المصطلح - «الأمة» - على «الشعب» كرباط سياسي يجمع تحته برباط الدولة

وعلى هذا الدرب سار (معجم ألفاظ القرآن الكريم) - بعد ما نظر في المواضع التي ورد فيها مصطلح «الأمة» بآيات القرآن - فقال عن «الأمة»: إنها «كل جماعة يجمعهم أمر ما، وجمعها: أمم. والأمة: الدين... والحين...» ذلك لأن أربعة وأربعين موضعا

(١) رواه البخاري في صحيحه

من موضع ورود هذا المصطلح بالقرآن الكريم قد جاء معناه فيها دالا على «الجماعة من [illegible] جاء في موضعين بمعنى «الخير» وفي موضعين بمعنى [illegible] وبمعنى «القدوة ومعلّم الخير» في موضع واحد. فموسى ـ عليه السلام ـ عندما ورد [illegible] وجد عليه أمة من الناس يسقون [illegible] [القصص: ٢٣] [illegible] جامعها، إسلام الوجه لله. ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر [illegible] [illegible] ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨] [illegible] الجامع في كل منها: النظام والاشتراك في [illegible]

ولقد كانت السنة النبوية الشريفة تردف الذي سار على نهج [illegible] استخدام هذا المصطلح ـ مصطلح «الأمة» ـ قاصدة به ذات القصد، [illegible] «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة» [illegible] و: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية»[2] فالمعاصي لم تخرج أهلها من جامع الأمة و «لا تزال طائفة من أمتي قوّامة على أمر الله، لا يضرها من خالفها» [illegible] «النمل أمة من الأمم» و «ولولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها» [illegible]

فهي ـ إذن ـ الجماعة [illegible] جماعة يربطها أي رباط جامع هي «أمة» [illegible] أو بعدد من هذه الروابط الجامعة

[illegible]

٢ [illegible] الاستشهاد لأن هو المعنى الذي استخدم المصطلح لدلالته عليه

٣ [illegible]

[illegible]

٥ [illegible] والدارمي والإمام أحمد

ذلك هو المضمون الذي اجتمعت عليه أصول العربية، وساد في حضارتنا الإسلامية..

فهل لهذه «المرونة» التي رفضت التحديد والتقييد، والتي تركت الباب مفتوحاً للروابط المضافة إلى الجماعة، وكذلك لحدود الجماعة ذاتها.. وأيضاً لألوان التنوع في داخلها.. هل لهذا النهج المتميز، وهذه الخصوصية العربية الإسلامية دلالة حضارية في ميدان التمايز الحضاري والخصوصيات القومية، يمكن رصدها عندما تكون المقارنة بين الأمم والحضارات؟! [illegible] «الأمة» [illegible] «وحدة الأمة الإسلامية» [illegible] بين الأمم؟!.. وأيضاً على «التنوع» و«التعددية» في إطار جامع هذه الأمة الواحدة؟ [illegible]

• أمة تنحو نحو العالمية

في الحضارة العربية ساد مصطلح «الأمة» في مرحلة تبلورت فيها القوميات، على أنقاض الرابطة اللاهوتية النصرانية الجامعة.. فكان الاستقلال والانسلاخ هو طابع المرحلة.. ثم كان الطابع الصراعي الذي تولد من تناقضات المصالح الرأسمالية عاملاً هاماً في تأجيج العصبية القومية، فكان البحث في إطار الفكر القومي العربي عن الفواصل والفروق وعوامل التمايز بين الأمم والقوميات.. فرأينا الضبط والتحديد للسمات والشروط الجامعة المانعة في تعريف «الأمة» إذكاء لروح التميّز، الذي صار بوتقة لروح «المغايرة» القومية، وشحناً للوجدان القومي كي يدفع كل أمة إلى العلية في حلبة الصراع على المصالح والأقاليم، داخل أوروبا أولاً، وخارجها بعد ذلك، إن في العالم الجديد أو القديم طلباً لمصادر الثروة، والأيدي العاملة الرخيصة، وتحقيقاً للهيمنة والاحتواء..

[illegible] مصطلح «الأمة» [illegible] العربية [illegible] وما كانت ملابسات [illegible] طبيعة مضمون هذا المصطلح في حضارة [illegible] الإسلامية [illegible]

بل وعلى نقيض منها. فقد كان عند هذا المفهوم و مضمون مصطلح «الأمة» تميزاً كما

فالتطور العربي الإسلامي حضارة، بدأ تتبلور على أرض أمة بعد الإسلام، وبدأ تعيشه هذه الأمة، كما بدأ تتطور مؤسساتها الحضارية و الفكرية التي سبقت ظهور الإسلام. هذا التطور العربي الإسلامي لم يكن تطور انسلاخ عن رباط أشمل، ولا استقلال عن كيان أكبر، ولا بحث عن العوامل المميزة، والفواصل والحواجز والفروق... وإنما كان - على العكس من ذلك - تطور جمع وتأليف للفكر الخلق المتوقد الذي جاء به الإسلام مع المواريث الفكرية و الحضارية التي ورثها العرب المسلمون في البلاد التي دخلت في عالم الإسلام. وللجماعة العربية المسلمة التي انطلقت من شبه الجزيرة مع الشعوب التي توحدت في إطار الدولة العربية الإسلامية الجامعة. لم يكن همّ هذه الحضارة وجماعتها البشرية - ومن ثم لغتها العربية - البحث عما يميز ويحدد ويفصل ويفرق، طلباً للاستقلال القومي عن كيان أوسع ورابطة أشمل، وإنما كان همها هو البحث عن عوامل التأليف لأمة أكبر وجامعة أشمل، وحضارة أوسع ولذلك، فلقد وقفت هذه الحضارة - ولغتها - بمضمون ومفهوم معنى «الأمة» عند مضمون الرباط الجامع للجماعة، أيّاً كان هذا الرباط، ولذلك حتى يظل الباب مفتوحاً للتأليف والاستيعاب، وحتى تمتد مساحة تأثير وفعالية «اللواء الإسلامية» فتشمل دائرة حضارتها كل الجماعات التي تدخل دائرة حضارة الإسلام، حتى ولو لم تتدين بدين الإسلام. فكان هذا التوجه بمثابة العملة ذات الوجهين: الأفق المتسع، دائماً وأبداً، للاستيعاب. ووجه التنوع و التعددية في إطار هذه الأمة!

ولقد دعّم من هذا التوجه: عالمية الرسالة الإسلامية، وأهمية العقيدة في الدين الإسلامي. ولقد كان لهذه الرسالة الخالدة في جوهر مضمونها الثابت الحي - بالإحياء و التجديد - ومضمونها المتغير لإسلام - حضارة ومدنية، دائم الرفع على الفكر البشري غير المتحجر، ولا نحاربها، ولكنها تهذب شذوذها وعلوها بتوصيف معياري للأمة في صورة، بناء وتصوير أمة واحدة، صاحبة حضارة ذات طابع عالمي. بعد كان وقوف هذه الأمة عند الحد الأدنى من الرباط في مضمون

«الأمة» ومفهومها، هذا محركه، ومروع للاستبداد والتوحيد لتأليب، ورفض لعصبية الانغلاق وتعصب لاستعلاء على غيره من جماعات والأمم والحضارات.

لقد كان توحيد الإسلام للاستبداد الداخلي، لا للاستغلال الخارجي، وكان جمع على أن «الحقيقة» هي هو مهمة دائمة ومستمرة، لا تمسح، تسع بتغير البيئات والتجارب الحضارية الأخرى - كما حدث وتحدث ذلك حضارة العربية مع غيرها من حضارات. وهي الإحياء والتجديد والتطوير والاستفادة هو في وضع الإحياء والتجديد والاستفادة من موارث فكرية وحضارية على اختلاف مواطنها وميادينها وألوانها..

به مفهوم التغيير والتوجه المتغير، تظهر هذا التغيير مفهوم «الأمة» في حضارة العربية الإسلامية عنه في غيرها من الحضارات وعنه في الحضارة العربية على وجه الخصوص.

■ ففي قريش بمكة مع الوحي الإلهي على مصطفى محمد بن عبد الله (ﷺ)، برسالة الإسلام فكان «التوحيد الديني» الإسلامي - الذي بلغ ذروة في بقاء النبوية والقمة في التجريد - كانت هذا «التوحيد الديني» الذي يعطي في «التوحيد الهوية» الجماعة البشرية للعربية، التي كانت الوثنية متعددة تجسد وتزمر بين بشر وتفرقهم وتعلي في الجاهلية. وذلك دون أن يعني هذه «الجماعة القومية العربية» السيادة قريش، ولا ظهر التغييرات نفسية أو عقلية على وفقها. وهي كانت هذه الظاهرة التوحيدية بوتقة «تأليف» بعد أن تغير، و«توحده» لا تذكر «التعددية» التي عند من معجزات الإسلام التي أبدعها الله - سبحانه - في الواقع الإسلامي الجديد «وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾ [الأنفال ٦٣]

وبهذا المفهوم للوحدة الحضارية بمعنى الأمة» مفهوم عن حدود «التفاعل العربية» فقد كانت مرحلة تجاوزها «أثر التوحيدي الذي به من قريش، متسعة بها على بحر الكرة الأرضية أوسع، هي دائرة وحدة «التفاعل» و«شعوب» «معارف» «تأليف» في ظل «التعارف» الذي لا يعني التغيير، ولا يقتصر على خصوصيات، وإن تتيح الفرص

[illegible]

[illegible] ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢) ﴾ [الروم: ٢٢]

إنها أمة «دائمة التخلق»... بل إن ديمومة هذا التخلق هي [illegible] برسالتها العالمية والخالدة التي أرادها لها الله!

ولذلك، فلقد وازنت هذه الأمة ـ وهي [illegible] «الخاص» و«العام»... فكما أنجزت «وحدة» القبائل، دون إلغاء [illegible] في بناء أشمل، هو بناء الأمة الجديد. وذلك بعد أن كانت [illegible] [illegible] كأمة وحضارة [illegible] ينكر عليها التمايز القومي المبرأ من العصبية العرقية [illegible] فعرف مفهوم الأمة ـ في فكرنا الحضاري، وفي تجربتنا [illegible] الدوائر التي تبدأ من «الفرد» إلى «الأسرة» ـ أو القبيلة والعشيرة ـ [illegible] «الأمة» ـ بالمعنى القومي إلى «الجامعة الإسلامية» [illegible] الدائرة الإنسانية الخيوط والعلائق والأسباب.

[illegible] «الحضارة العربية الإسلامية» ـ كإبداع تزامل في صنعه: الوحي الديني وعمومه مع [illegible] «الدولة» كأداة [illegible] كان جميع ذلك في مسيرتنا الحضارية [illegible]

[illegible] وممارستنا الاجتماعية [illegible] ما يكون بالدوائر الدائمة الاتساع، [illegible]

[illegible] ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم ﴾

[العلق: ١-٥]

■ وفي «الدين» بدأ الرسول ﷺ فجعل «أمة الدعوة» الأقربين من عشيرته [illegible] ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين (٢١) [illegible] ﴾ [illegible]

[illegible]

[illegible] والمسئولية معًا، في إطار هذه الدعوة العالمية، فقال لها [illegible] ﴿ [illegible] الذي أوحي إليك [illegible] على صراط مستقيم [illegible] وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون [illegible] ٣٠، ٤٤ [illegible] النبي العربي - ومبلغ الإعجاز للعربي - هو رسول الله إلى العالمين ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [illegible] ٥] [illegible] العرب - موجه إلى العالمين ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين (٩٠) ﴾ [الأنعام: ٩٠]

[illegible] العرب في الإسلام الذي تمثل في اصطفائهم - كجماعة [illegible] وجامعة في إطارها [illegible]

■ وفي «الدولة» [illegible] «العالمية» التي صنعت ثوبها من نسيج سداه دائرة

[illegible]

«العروبة حضارة» و«الإسلام حضارة» صياغة جديدة لمشروع حضاري الجديد والفريد!

... أسست دولة المدينة، التي أقامها المسلمون الأوائل تحت قيادة النبي - عليه الصلاة والسلام - وفق معيار «العروبة حضارة» و«الإسلام حضارة» الذي شهد في تاريخ «مصدرية» و«الصحيفة» و«الكتاب» بعد «ليست» التي كونت أول تجربة في هذه الدولة، فإذا هي تحيف «قابل غربة» وفي هذا «الدستور» و«الوحدة» تتميز بين «أمة المدينة» و«أمة المؤسسة»، كما وحد جمع بينهما في وحدة قائمة على أساس «التعايش» لقبائل متوحدة في أمة واحدة من المهاجرين والأنصار هم «أمة المدينة» وهم مع القبائل العربية المجاورة من قبائل مختلفة يكونون «أمة واحدة» أمة سياسية وراء الدولة المسلمون «نواة» لهذه الدولة، تتسع شاملة العرب المتوثنين، ستشرف الدعوة أوسع دائرة لتشمل الشعوب الأخرى والقوميات الأخرى

وعلى هذه الحقيقة حول مفهوم الأمة في الدولة العربية الإسلامية لأول مرة «دستور» دولة المدينة

«هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين للمؤمنين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف وليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف وليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف وليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف وليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ولبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم لموالي ثعلبة كأنفسهم ولبطانة يهود كأنفسهم وإن لكل واحد من يهود بني عوف مثل ما ليهود بني عوف على مواليهم وأنفسهم على ما في هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنه إذا دعا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، وعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه

الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله».

فبعد أن عدد «الدستور» وهو يحصر [illegible] الأمة والرعية [illegible] العربية التي آمنت بالإسلام من المهاجرين والأنصار ـ ومن لحق بهم وجاهد معهم [illegible] «أمة واحدة من دون الناس» [illegible] شرع [illegible] المتهودة من [illegible] العربية [illegible] أي اليهود العرب ـ الأميين ـ لا [illegible] ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾ [البقرة: ٧٨] وجعل لهؤلاء العرب المتهودين مع [illegible] ومواليهم ـ كامل الحقوق [illegible] [illegible] «أمة مع المؤمنين» [illegible] الأمة [illegible] [illegible] في مسيرة الإسلام [illegible] «الأمة الجماعة» عند «أمة الدين» وإنما تجاوزتها، دون أن تسقطها [illegible] لقد تداخلت الدائرة دون أن تهمل المركز أو تتخلى عن النواة بأي حال من الأحوال [illegible] فالمنطلق قائم وفاعل وقائد، والمرجعية في الأمة ـ المتعددة الشرائع الدينية ـ هي للشريعة الخاتمة للشرائع الإلهية، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ـ وأيضاً ـ فالاستشراف للآفاق الأوسع والأبعد دائم؛ لأنها أمة الاستيعاب والإضافة والاستلهام والتمثل، وليست أمة الانسلاخ والتشرذم والحدود والسدود والتعصب والعدوان على الأغيار..

• والتعددية في الشرائع

[illegible] الإسلام [illegible] الأمة [illegible] [illegible] وتعايشت التعددية

فالدوائر القبلية لم يمحها هذا التوحيد للأمة والرعية، [illegible] تعني

[illegible] الخلافة الراشدة] ص ١٥ ـ ٢١ [illegible] محمد [illegible]

[illegible]

[illegible] القيم الجديدة

[illegible] «الأنبياء إخوة لعلات (أمهات متعددات) - دينهم واحد، وأمهاتهم شتى»[1]. وهو المعنى الذي تجسد في مواد [illegible] أمة واحدة من دون الناس. ويهود أمة مع [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible] مظلومين.[3]

[illegible] «وأن أحمي جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي، وأن أدخلهم في ذمتي وميثاقي وأماني».

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible] وحدة [illegible] مرجعية [illegible]
[illegible]
[illegible] وهذه التعددية - كالعالمية - وحي إلهي [illegible]
[illegible] ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿١١٨﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

[illegible] في إطار من الأطر الجامعة للأمة، وحدة العقيدة [illegible] ووحدة الشريعة [illegible] في بناء الوحدة والتوحد.

بل إن هذه التعددية في [illegible] السماوية من يهود ونصارى، وقد شملت [illegible] كالمجوس [illegible] ثم قبلت عليهم [illegible] تعبيراً عن المفهوم المرن للجماعة والأمة المتدينة [illegible] في عهد الإسلام [illegible] الفتوحات وانتشار الإسلام.

[illegible] ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا [illegible] وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور [illegible] وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون [illegible] وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من

الكتاب ومهيمنا عليه ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ [المائدة ٤٤ ـ ٤٨].

وحمل بعض أئمة التفسير من المتكلمين الكريم على هذا المعنى من أن «التعددية» و«التنوع» في مقابل «الوحدة». فالمراد بـ«إن الشرعة والشريعة هي الطريقة المفضية إلى الماء الذي به حياة كل شيء، ومعنى الآية: أن الله قد جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، وهدى في شرائع العبادات، والأصل، التوحيد، لا خلاف فيه ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾، أي جعل شريعتكم واحدة»[1].

فكانت هذه الآية هي التي فهم منها شريعة سمحة لا تحكم لأهلها ضيق بحيث لا تترك تعدد حسن ومنهج، بمعنى «التشريع» وجعل «في» ضد «وحدة» بمعنى «الاتحاد على التوحيد» في الأوامر والنواهي الأساسية، وجعل الصحيح الصحيح، فهذه «التعددية» التي تعني وجود في ضمن الخطاب الواحد، والتي تعني تعدد الأمة الحضاري ومضمونها وبطاقتها، بل لقد وجدنا أئمة التفسير من كل المذاهب يرون في هذه التعددية «الحكمة» الإلهية و«المشيئة» الربانية من وراء جعله سبحانه وتعالى الناس. ففي تفسير قول الله سبحانه: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود ١١٨ ـ ١١٩] يقول سعيد بن جبير (٤٥ ـ ٩٥هـ/ ٦٦٥ ـ ٧١٤م): «لو شاء لجعل الأمة على ملة واحدة فلم يختلفوا، أي شريعة الإسلام واحدة». ويقول مجاهد بن جبر المكي (٢١ ـ ١٠٤هـ/ ٦٢٤ ـ ٧٢٢م) وقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ ـ ١١٨هـ/ ٦٨٠ ـ ٧٣٦م) في تفسير: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ بحتمية بقاء الناس «على شرائع شتى». والحسن البصري (٢١ ـ ١١٠هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م) وعبد الله بن شداد السعدي (٥٠هـ/ ٦٧٠م) وعطاء بن دينار (١٢٦هـ/ ٧٤٤م) فهم يفسرون قوله سبحانه ﴿ولذلك خلقهم﴾ بـ«الإشارة للاختلاف، أي وللاختلاف خلقهم»[2].

---

(١) [illegible] ص ٢٢

(٢) [illegible] ص ٤٠

[illegible] (٤٨٣هـ - ١٠٩٠م) في كتابه [illegible] [illegible] شريعة [illegible] الإسلام [illegible] ناسخة»[1].

هكذا تعددت الشرائع والملل، في [illegible]

* * *

• والتعددية في الأقوام

وكما اتسع المكون الديني للأمة الواحدة لهذه التعددية في الشرائع والملل، فلقد اتسع [illegible] الذي حكم [illegible] الأمة [illegible] لأقوام آخرين.. فكما اتسعت وحدة الأمة لتعددية الشرائع والملل، اتسعت [illegible] لتعددية الأقوام. فكلا اللونين من التعدد [illegible] ترسم حدود الدوائر الدينية المتعددة في إطار وحدة الدين [illegible] [illegible] المتعددة في إطار وحدة أمة الإسلام [illegible] ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين»[2] [الروم: ٢٢]

[illegible] الإسلام [illegible] «دعوها فإنها منتنة» [illegible] الأسقع: يا رسول الله، أمن العصبية أن يحب المرء قومه؟.

[illegible] «لا، ولكن العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم»[3].

---

(١) د. رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، طبعة بيروت ١٩٨٤م، وهو [illegible] ص ١٠١، ٢.

(٢) [illegible] البخاري والترمذي.

(٣) [illegible] ابن ماجه والإمام أحمد.

وبدلاً من هذه العصبية الجاهلية، وبديلاً عن الإصر العرقي والقبلي بالعروبة الجاهلية، أرسى الإسلام بالعروبة مفهوماً حضارياً، وحدد لأمتها معياراً فكرياً وثقافياً. فحينما نبي ﷺ في الناس، عندما بعثه الله أن منهم من يفكر على غير ما يفكر به العرب من أصلاب عربية مثل بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي - رغم بقائهم في الاستعراب درجة لغة العرب العربي المحمدي، والوعي بها هي أسرته الإسلامية، ورغم أنهم محصورون بالأمم بالعروبة، وأخصوا انتماءهم بالمجتمع الإسلامي عندما يكون بعض العروبة بدين بالعروبة حضارياً وفكرياً وولاءً وانتماءً، نصر الرسول ﷺ به بزغ مفهوم الجاهلي بالعروبة، فخصه، وذمه بالناس وخصهم، فقال: «أيها الناس، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي..»[1]

فمنذ ذلك التاريخ ووعت بهذا المعيار الحضاري، تشفي بدى حدده الإسلام بالعروبة - تتسع دائرة الأمة العربية والجماعة العربية للتضم - وعلى قدم المساواة كل الناس بالعربي بالفكر والحضارة والانتماء والولاء، مع الناس بالحضر من أصلاب عربية صريحة. فكما انفتح معيار الأمة ومفهومها ليضم - بالعرب من غير مسلمين وغير متمسلمين من أهل الملل الأخرى - فتح، كذلك ليضم عرب الحضارة والثقافة، من دون الأصول العرقية غير العربية. فاتسع الأفق الاستيعابي للأمة في نجاة العربية واعتناق التعددية في إطارها.

وبعملية المعيار الحضاري الذي يفتح أبواب «الأمة» ويوسع دائرة الجماعة، بهضت «الدولة» بتنظيم الجماعي المحكوم به «المولى». فرقاء الأمس الذين حررهم الإسلام - في المدائن التي كانوا فيها رقاء - فقد كانت نفسية، مثلهم مثل أسرته - بمنزلة الأولى في كيان الأمة. فبعد أن كانت حدودها محصورة على صراحة النسب العربي، غدت بتضم المولى نتيجة أي أن دائرة بشرية ومعنوية لم يعد هو الحر العربي بحتاً! لقد تسع بصدقها، وتعددت مكوناتها في الوقت ذاته. وقامت لهذا التنظيم الاجتماعي بدى سنة رسول ﷺ بالمدينة، في صورة أحدث، من مثل

---

[1] تهذيب تاريخ ابن عساكر، ج٢ ص١٩٨، طبعة دمشق.

«موالى لقوم منهم» و«الولاء لحُمة كلُحمة النسب»[1] فلم تعد أرحام الولادة النسبية هي فقط أرحام الجنس والعرق، وإنما غدت العروبة الحضارية والفكرية والثقافية رحمًا جديدًا تولد منه الأمة والجماعة ميلادًا جديدًا، وفق هذا المعيار الحضاري الجديد!..

وبعد عصر الرسول ﷺ انتقلت الدولة من عصر الأمة ومفهومها وفق منهج الإسلام إلى عصر الفرق حديثه. فالمد الذي بدأ من قريش فألف بين القبائل على اختلاف دينها، ودمج فيها كل من استعرب حضاريًا، على اختلاف أصولهم العرقية. هذا المد قد امتد بالفتوحات الإسلامية إلى ما هو أبعد من القبائل، عندما ضمت الدولة «شعوب» من أهل العراق وفارس والشام ومصر وغيرها من البلاد المتحضرة، التي تجاوزت طور البداوة، فكان سكانها «شعوبًا» لا «قبائل». فبدأت مرحلة جديدة ونطاق جديد في مفهوم «الأمة»، اتحدت الدولة له المعيار القرآني، معيار «التعارف» الذي يعني التفاعل القائم في إطار الوحدة التي لا تنكر ولا تتجاهل التعددية والتنوع والتمايزات. ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣]

وعلى هذا فإن «الشعوبية» التي تحتقر كل ما هو عربي، لم تكن تعني بالضرورة أن هدف مستورد هو الكيد للإسلام. وعندما استعرب الشعوبية واستعربت بعضها تلقائيًا بعربة على عهد الدولة الأموية وجدت علماء الأمة ومفكريها يتصدون لإحياء منهج الإسلام في الفكر والتوجيه، فكتبوا الرسائل والمؤلفات لتذكير الناس بالمعيار الحضاري لمفهوم الأمة، لأن فكرة الشعوبية لم تختف عن الوجود ولا تعلق لإصر جماعة. وكان الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ٦٣ ٢٥٥هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م) في مقدمة الذين أبدعوا في هذا المجال، فوجدناه يعرض لهذه القضية في أكثر من موضع في كتبه، وفي مقدمة أحدها يعلن عن هدفه من تأليفه فيقول: «وكتبت هذه الكتب لتكشف زيف من توهم أن كتب الشعوبية، وعيوب الأمم كتب مؤلفة،

---

١) رواه البخاري

٢) رواه أبو داود والدارمي

[illegible]

[illegible] ففي الفكر الإسلامي ذي الطابع والنزوع العالمي، والمفتوح لاستيعاب الموروث القديم والإبداع الجديد، تتمثل رحم جديدة ستظل دائمة الولادة لآفاق جديدة تتسع لها دائرة الأمة، ويرحب بها مفهومها كلما امتدت بأهلها البصائر والأبصار إلى جديد من الآفاق.

يمضي الجاحظ ليتحدث عن هذه الحقائق في مفهوم الأمة، فيقول: «إن العرب قد [illegible] فتق لهاته»[2] بالعربية المبينة، ثم فطره على الفصاحة، وسلخ طباعه من طباع العجم، وسوّاه تلك التسوية، وصاغه تلك الصياغة، ثم جباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها. فكان أحق بذلك السبب، وأولى بشرف ذلك الحسب، وإن العرب لما كانت واحدة، فاستووا في التربية، وفي اللغة، والشمائل والهمة، وفي الأنف والحمية، وفي الأخلاق والسجية، فسُبكوا سبكاً واحداً، وكان القالب واحداً، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط، [illegible]

[illegible]

[illegible]

حرى، حتى تكون عليها وتصاهروا من أجلها، ومنعت عددًا غفيرًا من مناكحه
ي بسبب ق، هو أحرُ سماعيل، وحدوا ذلك في جميع ما
هذه المعنى قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام أساسة "

ف شافعي وحنبلي ولأمة تجعل ذلك فيه دسيسة لاسترقاق
ش ذلك فيها بعد الأمر الذي تجعل وحدتها مبدأ مشروعًا وشعارًا، حتى يكون
تجاوز هذه الوحدة وتحطيمها؟ الوحدة، القائمة على مرونة المعايير..
وتعددية في إطار هذه الوحدة.

هكذا حتى تعيش الأمة وتتسع في مقدارها، وتتسع بمقدار ما تستطيع تقديم
وحدة، فإن حتى تدرجها في الدين وفي "الأمة" كذلك تتسع بمقدار ما تستطيع
تكون الأمة أكبر"، التي تستطيع أن تستوعب حضارة بكل ما فيها من تعدد
وتنوع، وتستطيع أن تحتويها في إطار وحدتها الدينية والحضارية. بخلاف
الجماعات التي تنحسر إلى دائرة الإسلام الضيقة وحدته الحضارية الواسعة.
دائرة الأمة ومفهومها كما يتيسر هذا الاحتضان والاستيعاب

حتى تحتضن وحدة الأمة تعددية التشريع والتنوع
والتوسع، فضلاً عن تعددية العادات والأعراف. كذلك احتضن الإسلام
تعددية الأمة والأقاليم والولايات، فوحدة الإسلام لا تعني وحدة
في مختلف الأقاليم والأوطان والولايات، ولكنها تعني وحدة تحتضن تعددية هذه
الأقاليم والأوطان والولايات، التي تتمتع فيها بالحرية، لأعراف، ومن ثم فهي
تعددية لأنظمة وقوانين

وهذه التعددية في إطار وحدة دار الإسلام - لا تصل إلى الاعتراف بالخروج
على تلك سيادة "الحسب" تصنع روابط وحدة الأمة والدار - على نحو ما هو قائم
في الدولة الحديثة والقطرية في مشروع عربي وإسلامي معاصر، وهي تعددية في
إطار وحدة، تتصارع فيها الأوطان والأقاليم دون أن تصنع "الحسب" جامع
وحدتها

) ابن خلدون ج١ ص ٢٩٣ ـ ٣١١ ـ ٤

ولقد عبر الإمام محمد عبده عن هذه الحقيقة عندما أفتى بأن الإسلام لا يعرف في [illegible] الإسلامية هو المحل الذي يباح له الإقامة فيه، ويتجه فيه طريقه كيفما عيشه، ويتمتع فيه مع أهله، ولا يجبر على موالاته، ولا على الدين الذي يدين به فيه، ولا يسلب إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذي يجري عليه عرفه ويفقد فيه حكمه هو البلد الذي انتقل إليه واستقر فيه. فهو عنه الحكم الذي يتبع نحلته وأسلافه، وله من سائر الحكام، وعليه من حقوق عليه نفس حكامه لهم وعليه ما عليهم، ولا يجبره عليهم شيء، لا خاص ولا عام.

أما الجنسية المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون» Capitulation فليست معروفة عند المسلمين، ولا بها أحكام تجري عليهم، لا في خاصتهم ولا في عامتهم. وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة أو عدة قبائل بنسب وحلف يكون من حق كل واحد منهم أن يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية الواحدة شعار خاص يتعارفون به عن غيرهم.

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا أثرها، وسوى بين الناس في الحقوق، فلم يؤسس ولا يتصور أن يؤسس في الحقوق ولا في الأحكام جنسية لا تثبت عند المسلمين قاعدة. فالاختلاف في أصناف البشرية، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه، فمن كان مصريًا وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجوه. وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكبيتولاسيون» فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة، هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية على اختلاف مذاهبها، لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه يستوون دون أحكام غيره.

[illegible]

[illegible] الإسلام، تتمايز أوطانها وأقاليمها وولاياتها مع بقائها وحدة جامعة لهذه الأوطان، فلا تتعدد أقطارها دون جامع موحد، ولا تتحدد رها دون تمايزات!

• وتعددية في الطبقات الاجتماعية

الطبقة - بالمعنى الاجتماعي والاقتصادي - هي شريحة تجمعها وتميزها عن غيرها وضع اقتصادي واجتماعي متماثل أو متقارب - في الدخل والثروة والنفوذ.

وإذا كانت المساواة المطلقة والتماثل التام بين أبناء أمة من الأمم - في أدنى صورها وأعمق تطبيقاتها - لا تتعدى المساواة في تكافؤ الفرص، وأمام القانون، فإن التمايزات الاجتماعية بين الطبقات هي حقيقة من حقائق الواقع الاقتصادي والاجتماعي في كل الأمم، وجميع الحضارات، وعبر كل التاريخ.

والفارق بين «العدل» وبين «الظلم» - في هذا الميدان - هو الفارق بين التمايز المعتدل المتوازن، الذي لا يصل فيه المعنى إلى الاستعلاء والانفراد والاستفراد بالثروات، فتكون دولة تتداولها القلة المحتكرة دون جمهور الأمة، التي تطحنها الحاجة وتقتلها الحرمان.

الفارق بين المعنى الذي هو ثمرة للعمل الواحد والاجتهاد وبين المعنى الذي يأتي من الاستغلال والاحتكار.

الفارق بين الثراء المؤسس على العمل المشروع وبين الثراء الحرام النابع من النشاط غير المشروع.

الفارق بين ثراء يوظف المال وفق ضوابط الشريعة الإلهية، وآخر يوظفه في الحرام والطغيان والاستبداد والإفساد.

الفارق بين غنى يؤدي صاحبه الحقوق الشرعية والاجتماعية المقررة في المال، وآخر ينصف صاحبه بالشح والكبر ومنع الحقوق المفروضة في الأموال.

الفارق بين ثراء يسهم أصحابه في فريضة التكافل الاجتماعي، ليحقق للأمة درجة الكفاية في الضرورات والحاجات، وبين ثراء يجاوره فقر مدقع يطحن جماهير الناس.

فالتفاوت الاجتماعي - الناتج عن التفاوت الاقتصادي - بين الطبقات حقيقة من

حقق نوع الاجتماعي الأساسي ... والاجتماعي كما هو في "العقد الاجتماعي" لروسو و"الاشتراكية" لسان سيمون الذي ساد ويسود وحدة الناس

وإذا كان النموذج الغربي قد صار ـ موضوعاً ومعنياً ـ على درب تطبيقي بالجد الذي علق فيه «رسالة التقدم» على أعناق الثورة الصناعية في النموذج الغربي والماركسي، في النموذج الشيوعي ـ فإن للنموذج الإسلامي موضع جد خاص فيه يتعلق «رسالة لتقدم» على الأمة، وليس على صفة معينة ... فهو من حيث هو عام فيه صفة عن الخصائص

وإذا كان النموذج الغربي قد عبر عن "النهج الطبقي" في حل التناقضات الاجتماعية، والنموذج الماركسي في صراع طبقي من صراع طبقة الأخرى، الأمر الذي يتعلق بالعديد من المجتمعات ... يسعى النموذج الإسلامي لأن يقدم نموذجاً إسلامياً يستهدف تحقيق مجتمع الأمة الواحدة التي تتعدد فيها الطبقات والفئات والجماعات والأحزاب، ولكن تتعدد في إطار وحدة الأمة، وتتنافس في الخير والعمل الصالح ... وتتكامل، لا لأن تصارع من أجل تحقيق أهداف أخرى، لأن الأمة ...

وذلك هو ما يميز النموذج الإسلامي ـ في مقابل الاجتماعية والطبقية ـ فإنه يحقق بها تتميز به المجتمعات الإسلامية من تعددية في الطبقات **تمزقها الصفات الاجتماعية في إطار وحدة الأمة، وتحتضن الأمة للصفات الاجتماعية المتعددة، والمتساندة في الوقت ذاته.**

ولعل في «ثقافة» المعهد الإسلامي الذي كنت أشرف على تأسيسه في مصر «الأشتر النخعي» (٣٧هـ ٣٥٧م) تجسيد الاجتماعية المهمة بالمجتمعات الإسلامية المتميزة في العلاقة بين الطبقات في المجتمع الطبقي ... الذي تتساند فيه وتتعاون الطبقات ـ بإطار جامع الأمة الواحدة ـ فهي طبقات متعددة، تكتفي بذاتها في وحدة الأمة لا تغني لواحدة منها عن الأخريات ... ولكل واحدة منها وظيفتها في الكيان الجماعي العام كتب الأستاذ في هذا المعهد الذي الأشتر النخعي يقول: «وعلم أن

الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عُمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. فالجنود حصون الرعية وسبل الأمن، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج لهم من الخراج، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات[1].

فنحن أمام تعددية في [illegible] الاجتماعية، تجمعها وحدة الأمة، [illegible]

• وتعددية المذاهب.. والفرق

المذهب: مجموعة [illegible] جماعة تربطهم معتقدات معينة.. [illegible]

[illegible] كانت عقائد الدين وأركانه، وثوابت الشريعة وحدودها هي الجامع [illegible] الاعتقاد الديني.. وفي إطار هذا الجامع كانت التعددية، وكان التنوع [illegible] الاختلاف في فروع الفقه [illegible] التي عاشت والتي اندثرت [illegible] ثراء في الاجتهادات، [illegible] التنوع، بإطار الأصول الفقهية ومصادر الاستنباط.

[illegible] الفرق الإسلامية [illegible] تنوعاً وتعددية في إطار علم أصول الدين، فإن خلافها، وتعدديتها لم تكن في ثوابت الاعتقاد.. وإنما كانت في «المقالات» أي [illegible] المتعلقة بالفروع، أو ذات الصلة والعلاقة بالأصول [illegible]

[illegible] ص ٣٣

[illegible]

فالإمامة - أي السياسة .. والدولة .. والخلافة، وهي من الفروع كانت أول الميادين وأوسعها مقالات الفرق واختلافات علماء السياسة الشرعية.

ومباحث «الذات والصفات» الإلهية هي «هوامش» على مباحث الإلهيات، لا علاقة لها بجوهر الاعتقاد. ولقد عكست الاختلافات فيها مراتب الناظرين على سلم التنزيه أو التشبيه، والتجريد أو الحشو، والعقلانية المؤمنة والتأويل أو الجمود عند ظواهر النصوص.

في هذا الإطار، عرف المسلمون تنوع المذاهب الفقهية، والتعددية في فرق علم الكلام..

* * *

ففي علم الفروع - الفقه - نشأت وتمايزت العديد من المذاهب الفقهية في إطار وحدة الشريعة الإسلامية.. وذلك من مثل مذاهب الأئمة:

١ - أبو سعيد، الحسن البصري (٢١ - ١١٠هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٨م)

٢ - أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠ - ١٥٠هـ/ ٦٩٩ - ٧٦٧م)

٣ - الأوزاعي: أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد (٨٨ - ١٥١هـ/ ٧٠٧ - ٧٧٤م)

٤ - سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧ - ١٦١هـ/ ٧١٦ - ٧٧٨م)

٥ - الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥هـ/ ٧١٣ - ٧٩١م)

٦ - مالك بن أنس الأصبحي (٩٣ - ١٧٩هـ/ ٧١٢ - ٧٩٥م)

٧ - سفيان بن عيينة (١٠٧ - ١٩٨هـ/ ٧٢٥ - ٨١٤م)

٨ - الشافعي: محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ - ٨٢٠م)

٩ - أحمد بن حنبل (٢٤٠ - ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م)

١٠ - الظاهري: داود بن علي الأصبهاني البغدادي (٢٠١ - ٢٧٠هـ/ ٨١٥ - ٨٨٣م)

١١ـ الطبري: محمد بن جرير (٢٢٤ـ٣١٠هـ/ ٨٣٩ـ٩٢٣م).

١٢ـ زيد بن علي بن حسين (٧٩ـ١٢٢هـ/ ٦٩٨ـ٧٤٠م)

١٣ـ الصادق: جعفر بن محمد (٨٠ـ١٤٨هـ/ ٦٩٩ـ٧٦٥م).

١٤ـ عبد الله بن إباض (٨٦هـ/ ٧٠٥م)

ولقد اجتمعت الأمة على أن ظاهرة التعددية في المذاهب الفقهية هي واحدة من [illegible] وثمرة [illegible] الفكري في المشروع الإسلامي، وعلى أنها [illegible] الخلاق وثمرة [illegible] التعددية [illegible] الاجتهادات [illegible] في الإسلام [illegible] الأحكام [illegible] «الوقائع» أو عند [illegible] واختلاف [illegible] الاستنباط [illegible] اختلاف الوقائع [illegible] والأعراف [illegible] اجتهادات الفقهاء

[illegible] نوعان من الفقه: فقه في أحكام الحوادث الكلية. وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس [illegible] ثم يطابق الفقيه بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع [illegible]

[illegible] الأحكام [illegible] الاجتهادات [illegible] في عصر الاجتهاد [illegible] الاجتهادات [illegible] «هذا الذي نحن فيه رأي، لا نجبر أحداً عليه [illegible] أحسن ما قدرنا عليه، ومن جاءنا بشيء أحسن منه قبلناه» [illegible] على [illegible] مختلف في مصدر الشريعة ولا على [illegible] الخلاف [illegible] النظر في هذه الأصول، والخلاف في [illegible] الأحكام

[illegible]

[illegible]

وعلى سبيل المثال:

● فمنهج النظر عند أبي حنيفة [illegible] بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت بأقضية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ ثم بأقضية بقية الصحابة، ثم [illegible] من شئت من الصحابة ولم أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، ثم فيما بعد ذلك الاجتهاد والقياس على الأصل الذي لا يخرج في القياس فيه عن أمر النبي ﷺ والصحابة، وبالقياس[1] على إبراهيم[2] والشعبي[3] والحسن[4] وعطاء[5] وابن سيرين[6] وأمثالهم اجتهدوا فلي أن أجتهد كما اجتهدوا وليس بين الله وبين أحد من خلقه قرابة[7]. اهـ.

● أما قواعد النظر عند الإمام مالك، والتي ميزت مذهبه [illegible] في الأخذ بنص الكتاب ثم بظاهره، ثم بعمومه، ثم بدليله، ثم بفحواه ومفهومه، ثم بتنبيهه، ثم بإشارته، ثم بمقتضاه، ومع هذه الأصول الخاصة بالنص مع ما يتبعه في الاستدلال مع السنة النبوية... وبعد هذه الأصول العشرة يأتي الإجماع... ثم القياس... ثم العمل أهل المدينة، ثم الاستحسان، ثم الحكم [illegible] ثم المصالح المرسلة، ثم قول الصحابي، ثم سد الذرائع، ثم الاستصحاب... ثم شرع من قبلنا.

● وفي مذهب الإمام الشافعي [illegible] لم يكن [illegible] ولم تقبل حديث [illegible]

---

(١) إبراهيم النخعي (٤٦ ـ ٩٦هـ/ ٦٦٦ ـ ٧١٥م) تابعي، فقيه عراقي من أصحاب المذهب الحنفي

(٢) الشعبي عامر بن شراحيل (١٩ ـ ١٠٣هـ/ ٦٤٠ ـ ٧٢١م) من فقهاء التابعين

(٣) محمد بن سيرين (٣٣ ـ ١١٠هـ/ ٦٥٣ ـ ٧٢٨م) [illegible]

(٤) الحسن البصري (٢١ ـ ١١٠هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م) تابعي [illegible]

(٥) عطاء بن رباح (٢٧ ـ ١١٤هـ/ ٦٤٧ ـ ٧٣٢م) تابعي من أجلاء الفقهاء

(٦) سعيد بن المسيب (١٣ ـ ٩٤هـ/ ٦٣٤ ـ ٧١٣م) [illegible]

(٧) د. طه جابر العلواني (أصول الفقه الإسلامي) ص ٣٢ [illegible] ١٤١٨هـ ١٩٨٨م

[illegible] وصح [illegible] فهو [illegible] [illegible] حديث
على [illegible] [illegible]
[illegible]
[illegible]
فإذا صح قياسه على الأصل صح، وقامت به الحجة..».

● وقواعد مذهب الإمام أحمد بن حنبل، هي:

أولاً: [illegible]
على [illegible]
قول الصحابي، أو الإجماع القائم على عدم العلم بالمخالف..

ثانياً: [illegible] لم يجد في المسألة نصاً انتقل إلى فتوى الصحابة [illegible]
[illegible]

ثالثاً: [illegible] إلى الكتاب والسنة، ولم يخرج
[illegible]
[illegible]

رابعاً: يأخذ بالحديث المرسل والضعيف إذا لم يجد أثراً يدفعه أو قول صحابي أو إجماعاً يخالفه، ويقدمه على القياس.

خامساً: [illegible] ضرورة، يُلجأ إليه حين لا يجد واحداً من الأدلة
[illegible]

سادساً: [illegible]

● أما أبرز أصول المذهب الظاهري فهي: [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

بعض الناس و منقطع، خلاف تشكيكه، خفته و خسته ولا يعلم شرح من قبل
ولا يحل لأحد يعلم أن [illegible] ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾
[الأنعام ٣٨] وتعدية حكم منصوص عينه إلى غيره تعدٌّ حدود الله تعالى ولا
يحل لأحد يكون بمفهوم مخالف أو بمفهوم حرم على بعض كما هو حرم على
بعضهم، وعلى كل مكلف جهد ما يقدر عليه من الاجتهاد[1].

وهكذا لم يختلف المذاهب على الأصول، ولا على تقديمها وإنما كان الخلاف
والاختلاف بينهم في منهج النظر في هذه الأصول، وفي قواعد الاستدلال للأحكام من
هذه الأصول، وفي موقفهم من واقعهم ومن مصادر التشريع، ولهذا
كان تعددية المذاهب الفقهية نوعًا في إطار وحدة شريعة الإسلامية، و اختلاف
يحسد لتقريره في تحمل منهج نظر متعددة بتعدد الاجتهادات وتغيره بتغير

**فإن المذاهب فروع الأديان، والأديان أصول المذاهب، فإذا ساغ الاختلاف في الأديان
ـ (أي التعددية في الشرائع) وهي الأصول ـ فلم لا يسوغ في المذاهب، وهي
الفروع؟!. ولما كانت المذاهب نتائج الآراء، والآراء ثمرات العقول، والعقول منائح
الله للعباد، وهذه النتائج مختلفة، بالصفاء والكدر، وبالكمال والنقص، وبالقلة
والكثرة، وبالخفاء والوضوح، وجب أن يجري الأمر فيها على منهج الأديان في
الاختلاف والافتراق، وإن كانت تلك منوطة بالنبوة، وما دام الناس على فطر كثيرة،
وعادات حسنة وقبيحة ومناشئ محمودة ومذمومة، وملاحظات قريبة وبعيدة، فلا بد
من الاختلاف في كل ما يُختار ويُجتنب، ولا يجور في الحكمة أن يقع الاتفاق فيما
جرى مجرى المذاهب والأديان..**[2].

ولأن هذه هي حقيقة التعددية في المذاهب الفقهية وسببها وأصولها [illegible]
أصحابها في إطار شرع واحد ومن رحمة ويسر وتكامل في الشرع، ومن في إطار مقصد
واحد وانطلاق واحد على الناس [illegible] فكان كل منهم يعذر غيره، وقد عرفنا ذلك،
وكان أدبهم في الاختلاف مضرب الأمثال، حتى سئلوا سئلة لأفت: هل مذهب
مستقيم، لا مذهب مثلي[3] [illegible] تحدث عن حديث كل إمام عن مذهب صاحبه

(١) (أدب الاختلاف في الإسلام) ص ٩٣ - ٩٩
(٢) (الامتاع والمؤانسة) ج ٣ ص ١٨٦، ١٨٧
(٣) انظر (حجة الله البالغة) ج ص ١٥٩ ـ ١٦٠

فالإمام أحمد بن حنبل، من أعلام صناعة الرواية للأحاديث، وعليه يتتلمذ الشافعي في الرواية، ويقول له: «أنتم أعلم بالأخبار الصحيحة منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلموني حتى أذهب إليه، كوفيًا أو بصريًا أو شاميًا»[1] الراوي بهذه الأخبار.

والشافعي إمام في فقه الحديث، وعلم الدراية، وابن حنبل يعترف له بذلك، ويتحدث عن فضله عليه في هذا الفقه فيقول: «لولا الشافعي ما عرف فقه الحديث، كان كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس... فانظر هل لهذين من خلف؟ أو منهما عوض؟!»[2].

وعن أبي حنيفة، وفقهه، يقول الشافعي: «الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة»[1]، كما يقول عن الإمام مالك: «مالك بن أنس مُعلِّمي، وعنه أخذت العلم، وإذا ذُكر العلماء فمالك النجم!».

وكثيرة هي عبارات التقدير والإجلال التي أردنا بها تراثنا، في ثناء مالك على أبي حنيفة.. وثناء أبي حنيفة على مالك[3]..

ولم يقف هذا المنهج عند الأئمة المؤسسين للمذاهب، وإنما كان قسمة مطردة ومذهبًا متبعًا لدى كل العلماء المجتهدين في كل المذاهب الفقهية، لم يتخلف إلا عند المقلدين في عصور الجمود!..

فالقرافي (٦٤٨هـ - ١٢٨٥م) المالكي، يتتلمذ على علماء الشافعية، كما يتتلمذ على علماء المالكية!.. ولا يقف في كتبه عند آراء المالكية وحدهم، ونبه على هذا المنهج في تأليفه، فيقول: «وقد أثرت النسبة على مذاهب المخالفين لنا من الأئمة الثلاثة، ومأخذهم في كثير من المسائل، تكميلًا للفائدة، ومزيدًا في الاطلاع، فإن الحق ليس محصورًا في جهة، فيعلم الفقيه أي المذهبين أقرب للتقوى، وأعلق بالسبب الأقوى..».

---

(١) (حجة الله البالغة) ج١ ص ١٤٨

(٢) (الرسالة) - مقدمة المحقق ص ١، ٣

(٣) (أدب الاختلاف في الإسلام) ص ١١٦، ١١٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨

كما رجع في نسبه إلى مضر [illegible]

وكذلك كان شهاب الدين [illegible] العباس حمدة المدني ٤٩ ١٢٨هـ ٢٩١ ـ ٣٢٨ م) [illegible] ومع ذلك يتتلمذ في أصول فقهه على القرافي، السبكي[٢]!..

وفي مصر [illegible] شيخ محمد [illegible] ٦٢٥ ٧٠٢هـ ٢٢٨ ـ ٣٠٢ م [illegible] حتى يصير [illegible] وحين [illegible] على [illegible] السبكي، [illegible] شافعي حتى يتندر بذلك شعراً:

صب بلعنم صبّ في صدوده ... فأغل بهمة الصبّ الصبّي

وتقنع، واشتهاب له لباس ... أدلّة مالك والشافعي!

وكان الإمام الذي ينزل السلطان عن سرير الملك بقبل يده[٣]!.

وكما تعايش التعددية المذهبية في [illegible] جاورت في فقهه [illegible] يتعايش في [illegible] حتى صنف [illegible] وسمّاه [illegible] ويسمح بتعددية [illegible] في مختلف بقاع عالم الإسلام

* * *

(١) عبد الله بن محمد صلاح (الإمام شهاب الدين [illegible] في الفقه الإسلامي)، ص ١٦٢، ١٦٩، ١٨٤، ٢٠٩، ٢٧٧، طبعة مالطا ١٩٩١م

(٢) المرجع السابق، ص ١١٣، ١٤

(٣) [illegible] ص ١١٧، ١٠٨

(٤) انظر أحمد سامي باشا (تاريخ مصر) [illegible] ١٣٣٥هـ ١٩١٧م

وكذلك كان خلاف مع فرق الكلامية التي ورث من تعدد، في تقرض تقرض تعلاه، فقد تبرت هذه الفرق الكلامية في المقالات والتعريفات، التي مثلت أطرًا جامعة، ومناهج في النظر.

وقد كان تعدد الفرق الإسلامية قد مثل فيه الاختلاف بين مؤرخي هذه الفرق ومقالاتهم حتى سمع بعض هذا التعدد الذي «الفرقة» (ت بعد شهرستاني ٤٧٩ هـ ٤٨ هـ ـ ٠٨ ـ ١٥٣ م) وهو من أبرز مؤرخي الفرق والمقالات والنحل والنحو ست نظرية في الاختلاف في تعدد الفرق يمكن أن يرجع في عامة «القاعدة والقانون» التي عامة في تفسير بين المقالات والتعريفات التي يستخدم الاختلاف فيها أن تكون فرق فيرة بين مختلفين، هي التي تجعلهم «فرقًا» متعددة، وليسوا مجرد أصحاب رأي في «مسائل» يصير مقالة لواحدة وفرقة واحدة. ولعل الشهرستاني هو من قدم في وضع «القاعدة» و«القانون» لتفسير «المقالات» و«التعريفات» الاختلاف الفرق وتعددها.. وذلك عندما قال:

«اعلم أن أصحاب المقالات فرقوا في تعديد الفرق الإسلامية، لا على قانون مستند إلى نص، ولا على قاعدة مخبرة عن الوجود، فما وجدت مصنفًا متكفلًا على منهج واحد في تعديد الفرق

وبين المعلوم أن الأمر فيه ليس كذلك، فإن عبارة «المقالة» في «المسألة» عند صاحب «المقالة»، ولا يمكن أن يخرج المقالات عن حد الحصر، بعدد يكون من مفرد «المسألة» في أحكام الجواهر مثلًا ـ معدودًا في عدد أصحاب «المقالات» ... ولكن الذي ينبغي أن يعتمد في هذا الباب هي «أصول وقواعد» يكون الاختلاف فيها اختلاف «مقالة»، ويُعد صاحبه «صاحب مقالة»

... أصحاب الاختلاف في المقالات عدة ليس ... في ... مذهب لأحد كما ... على ... من ... في ... فصل مصنف ... في أربع قواعد، هي الأصول الكبار

---

(١) انظر: بحث «تعدد الفرق» في د. محمد عمارة (تيارات الفكر الإسلامي) ص ٣٢١ ـ ٣٨١ طبعة القاهرة ١٩٩١م

(القاعدة الأولى): الصفات والتوحيد فيها: وهي تشتمل على مسائل الصفات الأزلية، إثباتاً عند جماعة، ونفياً عند جماعة، وثبات صفات الذات وصفات الفعل، وما يجب لله تعالى وما يجوز عليه وما يستحيل، وفيها خلاف بين الأشعرية والكرامية، والمجسمة، والمعتزلة.

(القاعدة الثانية) القدر والعدل: وهي تشتمل على مسائل القضاء والقدر، والجبر، والكسب في إرادة الخير والشر، والمقدور والمعلوم، إثباتاً عند جماعة، ونفياً عند جماعة، وفيها خلاف بين القدرية، والنجارية، والجبرية، والأشعرية، والكرامية.

(القاعدة الثالثة): الوعد والوعيد، والأسماء والأحكام: وهي تشتمل على مسائل الإيمان، والتوبة، والوعيد، والإرجاء، والتكفير، والتضليل، إثباتاً على وجه عند جماعة، ونفياً عند جماعة، وفيها خلاف بين المرجئة، والوعيدية، والمعتزلة، والأشعرية، والكرامية.

(القاعدة الرابعة) السمع والعقل، والرسالة والإمامة: وهي تشتمل على مسائل التحسين والتقبيح، والصلاح والأصلح، واللطف، والعصمة في النبوة، وشرائط الإمامة نصاً عند جماعة، وإجماعاً عند جماعة، وكيفية إثباتها على مذهب من قال بالنص، وكيفية إثباتها على مذهب من قال بالإجماع، والخلاف فيها بين الشيعة، والخوارج، والمعتزلة، والكرامية، والأشعرية.

فإذا وجدنا الفرد واحداً من أئمة الأمة (بمقالة) من هذه (القواعد) عددنا مقالته (مذهباً) وجماعته (فرقة)، وإن وجدنا واحداً انفرد (بمسألة) فلا نجعل مقالته (مذهباً) وجماعته (فرقة) بل نجعله مندرجاً تحت واحد ممن وافق سواها مقالته، ورددنا باقي مقالته إلى الفروع التي لا تعد مذهباً مفرداً، فلا نذهب المقالات إلى غير نهاية.

وإذا تعينت المسائل، التي هي قواعد الخلاف، تبينت أقسام الفرق، وانحصرت كبارها في أربع، بعد أن تداخل بعضها في بعض. كبار الفرق الإسلامية أربع: القدرية، والصفاتية، والخوارج، والشيعة..»[1].

---

(١) (الملل والنحل) ج١ ص ٩ ـ ١٣، طبعة القاهرة ١٣٣١هـ

لقد ميز الشهرستاني بين "الفرقة" و"الشعبة"، ورصد الاختلاف في «القواعد» وانتهى إلى أن الفرق الكبرى ـ في الإسلام ـ أربعة.

... الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ / ٨٧٤ ـ ٩٣٥م) وهو من ... رحو ... ، قد جمع عن ... في ... سمة ... الإسلامية ... اختلاف مصيب). فمعنى ذلك ... عندهم الإسلام قد جعلوا تعدد الفرق وتنوعها واختلافها قائمًا في إطار الإسلام وأمته الواحدة.. فهو اختلاف تنوع، يعكس فطرة الإنسان في الاختلاف.

وإذا كان البعض يتوهم لفرط الجمود والتعسب ... فرق الفرق الإسلامية لا يسعه الإسلام، ويستشهد على ذلك بأن الحديث الذي أشار إلى الافتراق قد حدد أن الناجية منها فرقة واحدة. فإننا نسبه إلى أن هذا الحديث ـ حتى لو صح روايه ودرايه ـ فإنه لا يسعه ... الحديث يقول: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة» ... «ستفترق أمتي على بيف وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة» ... «هي التي ... الهالكة منها واحدة» ... «كلها في الجنة إلا الزنادقة»[1]

... أن أدق ما يحتج به ... الحديث ذاته ... حجة الإسلام الغزالي، وهو أن بعض الفرق تكفر بعضها الآخر، لا لاعتقاد أن واحدة منها فقط هي ... وإنما لأن كل فرقة ... تعني بتكفير الفرق الإسلامية، وذلك خلاف ... الحديث الافتراق، في ضوء اختلاف رواياته، فقال: إن «معنى الناجية: هي التي لا تُعرَّض على النار، ولا تحتاج إلى شفاعة ... ويمكن أن تكون الروايات كلها صحيحة، فتكون الهالكة واحدة، وهي التي تُخلد في النار ... وتكون الناجية واحدة، وهي التي تدخل الجنة بغير حساب ولا شفاعة ... وباقي الفرق كلهم بين هاتين الدرجتين، فمنهم من يعذب بالحساب فقط، ومنهم من يقرب من النار ثم يصرف

... الحديث الافتراق في ... متعددة ... الترمذي وأبو داود والترمذي وابن ماجه و ... أحمد وغيرهم ... [مقالات العقول الإسلامية للأشعري] ص ١٠٩

... [الملل والنحل للشهرستاني] ص ...

بالشفاعة، ومنهم من يدخل النار ثم يخرج، على قدر خطاياهم في عقائدهم وبدعتهم، وعلى كثرة معاصيهم وقلتها، فالهالكة المخلدة في النار من هذه الأمة هي فرقة واحدة، وهي التي كذَّبت وجوَّزت الكذب على رسول الله ﷺ، بالمصلحة » أي زعمت أنه قد كذب، لكن لمصلحة الدين!

فالغزالي، مع تسليمه بصحة [illegible] حديث - لا يحصر [illegible] - يعتبر [illegible] وصحته لا تمنع في فرقة واحدة لأن [illegible] هي [illegible] ولا شفاعته. كما يجعل الهلاك من نصيب فرقة واحدة، هم المكذبون لرسول الله ﷺ، وجعل هلاك من سماهم علماء السوء الذين يجعلون الهلاك من نصيب النفس وسبعين فرقة، [illegible] فرقتهم، التي يحكمون بها صحيح الإسلام وبحده!

ثم تعرض لأهم المعتزلة الذين يكفرون من عدا فرقتهم من سائر فرق الإسلامية، محذرًا من عدم التعرض في التكفير، وذلك لأن اختلافات هذه الفرق في معتقداتها عن رسول الله ﷺ هي اختلافات في الفروع، وليست في صميم الاعتقاد، وأغلب هذه الاختلافات راجعة إلى التأويل، والتأويل حتى لو كان فاسدًا لا يدخل في التكذيب والجحود والإنكار. فسبب الاختلاف في الفروع هو "الحقد والحسد والبدعة والنفاسة" وليس التكفير و"الإيمان" بالغرض الذي يجعل من تعصبت له مشروعة بعقيدة تفرق الإسلامية بصورة واحدة لأهل الإسلام، فيقول: «اعلم أن الفرق في هذه المسائل وتعصبات فرق انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى فرقة التي ينتمي إليها والفرق كلها يُصدقون، ولا يُجوِّزون الكذب على رسول الله ﷺ لمصلحة أو غير مصلحة، ولا يشتغلون بتعديل مصلحة الكذب، بل بالتأويل والمخطئون في التأويل أمرهم في محل الاجتهاد - (أي أن تأويلهم الخاص هو اجتهاد خاص)».

والذي يسعى أن يميل المحصَّل إليه الاحتراز من تكفير من وجد إليه سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك

(١) [illegible] التفرقة بين الإسلام [illegible] ص ٢٣، ٢٤

محجمة من دم مسلم وهذه الفرق منقسمون إلى مسرفين وغلاة، وإلى مقتصدين بالإضافة إليهم . والتكفير يثير القتل والأحقاد، وأكثر الخائضين فيه إنما يحركهم التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين، ودليل المنع من تكفيرهم إن الثابت عند النص تكفير المكذِّب للرسول، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلاً، ولم يثبت لنا أن الخطأ في التأويل موجب للتكفير، فلا بد من دليل عليه، وثبت أن العصمة مستفادة من قول لا إله إلا الله، قطعًا، فلا يُدفع ذلك إلا بقاطع . . والوصية أن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله، غير متقصين لها، والمتقصة . تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ، بعذر أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

وأما القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان. قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، وما عداه فروع، واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً، إلا في مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلاً دينيًا عُلم من الرسول (ﷺ) بالتواتر لكن في بعضها تحقيقة، كما في الفقهيات، وفي بعضها تدقيق كالخطإ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة. واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينه وشروطه وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه تكفيرًا والمبادرة إلى التكفير إنما تنشأ عن طمع من يطمع عليهم الجهل . .»[2]!.

وعلى هذا الدرب سار شيخ الإسلام ابن تيمية، حتى قال: «لا نكفر أحدًا من أهل القبلة، والدليل عليه أن نقول المسائل التي اختلف فيها، مثل أن الله تعالى هل هو عالم بعلم وقدرة؟ وله كلام هل هو موجود لأفعال العباد أم لا؟ وأنه متحيز؟ وهل هو في مكان وجهة؟ وهل هو مرئي أم لا؟

لا تجوز أن تتوقف صحة الدين على معرفة هذه لا تتوقف لا أن هذه إذا كانت معرفة هذه الأصول من الدين يكون الواجب على النبي ﷺ

(اقتضاء الاعتقاد) ص١٤٣، ١٤٤

٢ انظر مقدمة (الإسلام والردة) ص ١٥، ٧

[illegible] ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلما لم يطالبهم بهذه [illegible] لا يتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه [illegible] [illegible] في هذه [illegible] في حقيقة الإسلام، [illegible] عن تكفير أهل القبلة»[1].

[illegible] التعددية في المذاهب [illegible] الإسلامية، [illegible] الإسلامي [illegible] لا يبادر إلى التكفير إلا الجهال.. كما قال حجة الإسلام الغزالي!

■ وتعددية في الأحزاب السياسية:

[illegible] السياسة - في الإسلام - [illegible] البشري والعمران الإنساني.. وجميعها من المعاملات المتعلقة [illegible] التي وقفت فيها الشريعة عند المبادئ والقواعد والكليات [illegible] «الفروع» و«المتغيرات» وليست من «الأصول [illegible] الإسلام الغزالي [illegible] فيها، بل من الفقهيات - (الفروع) -[2] والنظريات [illegible] بها - (أي في جماع الدولة والسياسة) - لا يوجب شيء منه التكفير..»[3]

[illegible] من أصول الديانات والعقائد، بل هي من الفروع [illegible]

---

(١) بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، جـ١ ص ٥٠ طبعة القاهرة الأولى

(٢) «الاقتصاد في الاعتقاد» ص١٤٣

(٣) (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص١٥

(٤) (الإرشاد) ص ٤١٠

(٥) (شرح المواقف) ج٣ ص ٢٦١

الشهرستاني، الذي يقول: «إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد»[1]. أما [illegible]

[illegible]

المفوضة إلى نظر الخلق»[2].

[illegible]

[illegible]

والتدابير.

وقد أخذ ابن القيم في التعبير عن هذا الذي نقصد إليه، عندما ميز بين «الشرائع العامة» وبين «السياسة الجزئية» فالسياسة الجزئية [illegible] والتنوع [illegible] في إطار الشرائع العامة التي لا يلحقها [illegible] [illegible] السياسة جزئية بحسب المصلحة، تختلف باختلاف [illegible] [illegible]

[illegible]

وإذا كانت التعددية في الفقه الإسلامي قد وسعتها وحدة الشريعة الإسلامية، فازدهرت المذاهب الفقهية الإسلامية، وتعددت اجتهاداتها في فروع العبادات والمعاملات [illegible] فإن التعددية في فروع المعاملات الإسلامية، ومتغيراتها الدنيوية لابد وأن تسعها كليات السياسة الشرعية، خاصة وأن أغلب أمور السياسة الشرعية إنما تقوم على الموازنة بين المصالح والمفاسد، وللاجتهاد في هذه الموازنات مجال كبير [illegible] فكما وسعت التعددية «المذاهب الفقهية»، لابد وأن تسع «الأحزاب السياسية»، التي تميزت وتتميز بها حياتنا المعاصرة والحديثة بشكل ملحوظ.

* * *

(١) (نهاية الإقدام في علم الكلام) ص ٤٧٨

(٢) [illegible] ص ٦٨

(٣) (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) ص ٢٥ ـ ٢٧

(٤) المرجع السابق ص ٢٧

إن الأحزاب السياسية المعاصرة هي «اجتهادات متعددة» في ميادين «إصلاح المعاملات» الاجتماعية في شئون العمران الإنساني. وقريب منها عرفت حضارتنا الإسلامية «المذاهب الفقهية» التي مثلت «تعددية في الاجتهادات» بميادين «فقه المعاملات» - الذي مثل علم الاجتماع الديني في تراث الإسلام. فإذا ظلت «السياسة الشرعية» بكلياتها العامة - الأحزاب السياسية المعاصرة، ومثل الإسلام - في عقائد وشرائعه الثابتة - بالنسبة لها مرجعية مشاريعها في النهضة والتغيير، كنا أمام تعددية سياسية يسعها الإسلام، كما وسع التعددية الفقهية التي تحدثنا عنها.

ذلك أن «الحزب السياسي» - في الاصطلاح المعاصر - يطلق على «مجموعة من المواطنين، يؤمنون بأهداف سياسية وفكرية مشتركة، وينظمون أنفسهم بغية تحقيق أهدافهم وبرامجهم، بالسبل التي يرونها محققة لهذه الأهداف، بما فيها الوصول إلى السلطة في المجتمع الذي يعيشون فيه..»[1].

بل إن مصطلح «الحزب» غير غريب عن التراث الديني والحضاري للإسلام، ولا هو بالوافد والطارئ على حضارتنا الإسلامية. ففي القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة نجده مستخدما، ليس بالمعنى السلبي المكروه وحده، بل وبالمعنى الإيجابي الممدوح أيضا. فمعيار التمييز ليس المصطلح - «الحزب» - إنما المعيار هو المضمون والمقاصد والغايات التي يسعى إليها هذا «الحزب» أو ذاك. وكما أطلق القرآن الكريم على المشركين وصف «الأحزاب»: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما (٢٢)﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فلقد أطلق المصطلح - «الحزب» على المجتمعين على المنهاج الإلهي: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون (٥٦)﴾ [المائدة: ٥٦].

ولقد كان المسلمون - في صدر الإسلام - يسمون - أحيانا «حزب محمد». وفي الحديث الشريف يروي أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قوله: «يَقدُم عليكم أقوام هم أرق منكم قلوبًا». قال أنس: «فقدم الأشعريون، فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة كانوا يرتجزون، يقولون:

---

(١) (موسوعة السياسة)، مادة «حزب سياسي».

عـــدًا نلقـى الأحبة محمدًا وحزبـه!!

من إن سورة القرشية سي حسب سم، لأحزاب! م تتحدث فقط عن "حزب الشيطان"، وإنما تحدثت عن نساء النبي ﷺ، ورضي عنهن جميعًا. وبالتالي جاء في الصحيح البخاري إطلاق لفظ "الحزب" على جمعين في إطارهن. فعن عائشة رضي الله عنها - "أن نساء رسول الله كن حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ".

فالمصطلح - "الحزب" - ليس غريبًا على تراث الإسلام. وليس سيئ المعنى بإطلاق وتعميم.

وإذا نحن نظرنا إلى الحضارة الإسلامية - التي مثلت العصور المختلفة لصنعة الإسلام - فإننا سنجد كل "الفرق" الإسلامية قد نشأت نشأة سياسية. وكانت تمارس وتنظيمات سياسية. وكانت حزبًا من أبرز مهامها وأهدافها. فهي تمثل "أحزابًا" سياسية، ذات مناهج فكرية معينة، وذات وسائل معينة في الإصلاح الفكري والسياسي. وكانت حتى الآن - في حدود - مع بعض الفقهية. فجمعيات التبليغ فكرية تعبر في "فقه المعاملات" وبعض العلماء في التعبير والاجتهاد في بعض الفروع، وهم بتصورهم هو معلوم من الدين بالضرورة.

وفي العصر الحديث عرفت بلاد الأحزاب والجماعات والجمعيات السياسية أو غير السياسية، ذات الصبغة الإسلامية، صمت أعلام ليقظة الإسلامية وعلماء الإحياء والتجديد الإسلامي، الذين تصدوا لها بعد عودة الاستعمار الغربي على بلاد الإسلام. وهم قد أقاموا هذه الأحزاب والجمعيات متأثرين بما في "الغرب" وليس بقصد التحضر الغربية، التي لم تكن قد نضجت فيها بعد. فحزب الأحرار الدستوريين (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) قد نشأ بمصر في سبعينيات القرن التاسع عشر - "الحزب الوطني الحر" وفي الخمسينيات من القرن العشرين "جمعية العروة الوثقى" كما أقام عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢) "الجمعية أم القرى" في وقت متأخر من القرن التاسع عشر. وجمعية مقاصد الخيرية

(١) رواه الإمام أحمد

[illegible] إسلامية، [illegible] الإسلامية [illegible]

[illegible]

تجارب الغرب الأوروبي في التنظيم الحربي[1]

فعلى حين عاشت الحضارة الغربية قبل نيرانيتها الحديثة - تنكر التعددية الدينية - بل وحتى تعددية المذاهب داخل النصرانية - تميزت الحضارة الإسلامية بالإيمان بالتعددية، كسنة من سنن الله في الخلق، المادي والبشري والفكري، وتجسد إيمانها هذا في الممارسة والتطبيق. وما غربة هذا الأمر - وهو المؤسس على فطرة الحرية التي فطر الله الإنسان عليها - وعلى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وأداتها «الأمة» الجماعة - الحزب - التي تسعى لإقامة هذه الفريضة [illegible] ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون [illegible] [illegible] ما غربة هذا الأمر - الأصيل إسلامياً - على ذهن البعض إلا بفعل «الانقطاع» الذي أحدثه تراجعنا الحضاري، الانقطاع بين عصرنا وبين التطبيقات الصحيحة لهذه التعددية في تاريخ الإسلام. وأيضاً الخلط بين التعددية في الفروع وفيما فيه اجتهاد - وهي مشروعة إسلامياً - وبين الافتراق في الأصول والمبادئ المعلومة من الدين بالضرورة - وهي التي لا تعدد فيها ولا اختلاف ولا افتراق.

فعلى [illegible] الإمام محمد [illegible] الله عليه أن [illegible] أخص من الجماعة، فهي الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضامنهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص [illegible] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [illegible]

(1) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ج [illegible] ص [illegible] بيروت ١٩٧٩م و(الأعمال الكاملة لعبد الرحمن [illegible] ص ٦٦ - ٦٦٥

(2) الأعمال الكاملة [illegible]

رئيس الجمعية العروة الوثقى — التي ضمت كوكبة من علماء الأمة، من مختلف [illegible]

حاكمين على جمهور الأمة بالهلاك!..

[illegible]

[illegible]

[illegible] لا افتراق من أي نوع كان، والاختلاف على أي أساس كان لا يصدق طبيعة الإسلام [illegible] في شيء [illegible] [الأنعام: 159] وقد ظن بعضهم أن تقييد التفرقة بالدين يقتضي جواز الافتراق في السياسة وغيرها من الأمور الدنيوية، بل وفي المسائل الفقهية الفرعية أيضاً، وذلك لأن المراد عندهم بالدين هو العقيدة والأركان الأساسية فقط [illegible] وقد غلا بعضهم في ذلك حتى قالوا: إن الاختلاف في الفروع والأمور الدنيوية رحمة. وهذا غير صحيح. فالاختلاف في الدين كما يشمل ويراد به الاختلاف في العقيدة والشريعة، كذلك يراد به تفرق أهل دين واحد أياً كان أساس هذا الافتراق. قال الله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ [الأنفال: 46] فلم يقيد الشارع بشيء ليشمل جميع أنواعه[2]

(1) [illegible] هذا الكتاب هو الشيخ صفي الرحمن المباركفوري [illegible] بالجامعة السلفية بالهند [illegible] 1407هـ 1987م

(2) الأحزاب السياسية في الإسلام، ص 65.

وإذا كان جميع من سبق وقدمناه في فصول هذه الدراسة يعتبر عمل الإمام في ورد على هذا الرأي، فإن دراسة صاحب هذه الدعوى بأن رسول الله ﷺ خلف خلف أهل المدينة فيما كانوا يصنعونه من تأبير النخل - وحتى بعد أن تبين صواب التأبير وخطأ تركه، فقد قرر لأصحابه من هذه المسألة إن هذا الاختلاف قد حدث في أمر «الرأي» فهو مشروع، وإنما يحدث في أمر «الوحي» حتى يكون ممنوعاً ومحرماً فحمل ﷺ من تصغير للاختلاف بقوله «رأي» الاجتهاد - وبقوله «وحي» الإسلام بوحي الله «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» يعني «الرأي» الرد الاختلاف والاجتهاد - وفي «وحي» والإبلاغ عن الله يجب السمع والطاعة.

ثم أليس يخالف صاحب هذا الرأي - برأيه هذا - غيره ممن يرون عكس رأيه؟ وهل خلافه لغيره لا كخلاف غيره له؟ فما الفرق بين خلاف في أمر «الرأي» والاجتهاد الذي يؤجر صاحبه حتى لو أخطأ!.

وكيف يضع صاحب هذه الدعوى خلاف بين الفقهاء في أمر الفروع في نفس الذي هو من صفات المشركين؟!

وهل يستوي خلاف في الفروع، وفي أمر لم يشرعه الله سبحانه، هل يستوي مع الشرع مؤدى النقاش وذهاب الريح، الذي نتحدث عنه الآن التي سنتشبه بها صاحب هذا الادعاء؟!..

وهل يستوي الشرع من حدود بين الحلال والحرام - هو الذي ترجع به الأمة - مع خلاف العلماء والمجتهدين في مسائل الفكر والعقيدة، والفروع والسياسة؟!

وإذا كانت «السلفية» صاحب هذه الدعوى تحول بينه وبين الاحتكام إلى ورد عن الأئمة: الغزالي.. والجويني.. والإيجي.. وأخرجتني.. والشهرستاني.. وابن خلدون عن التعددية.. فهلا قرأ ما كتبه الإمام الصنعاني - محمد بن إسماعيل الأمير (١١١٠ - ١١٧٦هـ / ١٦٩٩ - ١٧٦٢م) عن سنة الله في الاختلاف في الفروع والمناهج «إن أصل الدين واحد، والشرائع والمناهج مختلفة، والأوضاع خاصة بمن بعث

(١) رواه مسلم وابن ماجه والإمام أحمد

عنهم نوع ضرر ولا تخلف [تدبير] هي لشرعة ومنهاج [illegible] وهكذا سلفيه ابن القيم عن «أن هناك سياسة جزئية ـ بحسب المصلحة ـ تختلف باختلاف الأزمنة، وهناك شرائع عامة لازمة للأمة، هي شرع كلية، لا تتغير بتغير الأزمنة، فهي لازمة للأمة إلى يوم القيامة.. أما السياسات الجزئية التابعة لمصالح فتتغير بتغير المصالح زمانًا ومكانًا [illegible] وهذا مما اتفق على جملته جميع العقلاء»[2].

فمن أين جاء أصحاب هذه الدعوى ـ المخالفة للمسلمات ـ بهذه التي تسوي بين الأمر في «العقائد التي هي أركان الأساسية» وبين «الاختلاف في السياسة والمسائل الفرعية الجزئية»[2]؟ حتى يقول قائلهم: صاحب رأيه ولا ندري ما الاختلاف من أي نوع كان ـ ممنوع شرعًا»[3]!

[illegible] كان الإمام محمد عبده قد قال في الأمة في أيامه: «ويكفي منهم أنهم يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويعينون على النكر» [illegible] هي حصن من «الجماعة» [illegible] كل الأعضاء في نسبة الشخص» وهي ضمانة لأعضاء الجماعة أن حريتهم في [illegible] «المنفعة العامة» [illegible] التعاون على النكر، لا يمكن أن يكون التعاون على شيء لا يقتضي تنظيمًا إداريًا يتفرد به المتعاونون عن غيرهم.

[illegible] لا يقتضي حرية التعاون على هذه المنفعة العامة [illegible] في الرأي والمعسكرات وحقوق الوجاهة، ولكن [illegible] يتفرد به أهله عن غيرهم؟ [illegible] لا يقتضي التعاون على المنفعة العامة [illegible] والمؤسسات [illegible] في حقوق الوجاهة؟ [illegible] لا يقتضي التعاون على المنفعة العامة في [illegible] والصلاحيات المتخصصة في هذه المنفعة العامة، والمؤسسات [illegible] الإدارية، التي يتفرد بها أهلها؟!.

---

(١) «حجة الله البالغة» ج١ ص٨٦، ٨٧

(٢) «حقوق الحكم في السياسة الشرعية» ص ٢٥، ٢٧

(٣) «الحرية السياسية في الإسلام» ص ٤٣

(٤) «[illegible]» ص٧٩

فمن الذي قال: «إن التعاون على شيء لا يقتضي تنظيمًا إداريًا يسود به المتعاونون على غيرهم» - غير صاحب هذا الادعاء -؟!!

وصاحب هذه الدعوى لا يسلم من «التقدم لقيادة الجماعة» وتحمل عبء مسئولية [illegible] وتسمى «خروج على الجماعة» وتشبيه [illegible] بمن قال عنه ﷺ «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»[1]. والحديث القائل: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة جاهلية»[2].

ثم يوظف هذا الحديث في غير موضعه الذي مثل له صاحب هذه الدعوى، فيقول: «إن الإسلام لا يحترم في الجماعة تنظيمًا خاصًا بحيث يكون مبدأ التنظيم وقاعدته أساسًا للولاء والبراء»[3].

ويسأل صاحب هذه الدعوى عن مصطلح «الأمير» في الحديث النبوي الذي يسمى «أمير الجيش والقتال» الذي لا يحتاج [illegible] حرب [illegible] ولا حتى [illegible] مشاة [illegible] لا يعد معركة! [illegible] «الخروج على الجماعة» بعد أن [illegible] على الإسلام في بلد ما، وأصبح [illegible] بعد الاجتهاد [illegible] وبعد [illegible] حزب الاجتهاد [illegible] الاجتهاد [illegible] ولاء [illegible] في [illegible] بمجرد [illegible] شيء [illegible] لا يعد [illegible] معركة [illegible] في صراع [illegible] شيء [illegible] لا يعد [illegible] في [illegible] ولاء [illegible] داخل دائرة الأهل، وللأهل ولاء وسمة داخل جماعة الشعب [illegible] ولاء [illegible] داخل [illegible] ولاء وسمة داخل [illegible] ولاء [illegible] داخل جماعة الشعب ولاء وسمة داخل الأمة [illegible] ولاء وسمة داخل الأمة [illegible] ولاء [illegible] جميع [illegible] الإسلام، [illegible] ولاءات [illegible] ولاءات [illegible] ولاءات [illegible] تناقضات.

---

(1) رواه مسلم

(2) رواه مسلم

(3) «الأحزاب السياسية في الإسلام» ص٤٥

وصاحب هذه الدعوى - التي تُحرِّم وتُجرِّم لاختلاف، وطلاق - يحرم ويجرم لاجراء انتخابات سياسة لأنها - برأيه - وسيلة إلى «نزع الحكومة من أهلها»، «فالإمارة والحكم ليسا من الله في شيء»!

ونحن نسأل صاحب هذا «الرأي الغريب والعجيب»:

هل إذا «حكم الله» بشيء في أمر من الأمور، وفي مسألة من المسائل، فهل في أعناق الأمة صاحبه الحق في اختيار الأمور وفي استبدالهم؟!

وهل عندما يتفق بين الأمة جميعها أو جزء منها حكم خاطئ، أو انحراف على طريق الصلاح، فيرجعه في هذا الطريق توجيه عالم من علمائها، أو حكيم من حكمائها، أو نصيحهم على سبيل حكمتهم وبعد نظرهم في مواقفهم هذه، فيتسرع على الأمر بعض من يختارهم الأمة جميعها لأنهم أصلح منهم للاستخلاف به؟!

وإذا رضيت الأمة - في دستورها - بنظام سياسة، وفق ما يتضمنه هذا النظام مما يسمى ذلك «منازعة»؟! وأليس من الأولى أن يسمى ذلك على ضوء حقائق الأمور، حتى «الدفع بالتي هي أحسن» بدون تركيب حزب سياسي، وبدون أن يتعطل مكونها. والتدافع سنة الله في الإصلاح ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة ٢٥١] فهل لا يرى صاحب هذه الدعوى في تأييد السلطة بيد قوية مصرعة وبرعاتها من غير هذه العربون؟!.. اللهم إلا إذا ادعى أن الله قد خلق قوما للحكم دون غيرهم من الناس!

إذا كانت الأمة هي التي تولي وتعزل، وتبايع وتخلع، فهل يحق لها وقت البيعة أن تشترط وتضع الأسس والمؤسسات التي تحمي الشعب ولتدافع في حمل أمانة الحكم والعدل بين الناس؟!

وصاحب هذه الدعوى يعلم أن الأمة لا تملك حق ذلك إذا كانت قد بايعت الحاكم بيعة مطلقة وتضمنت البيعة «أن الإسلام جعل الشورى أساس

(٤) المرجع السابق، ص ٦٠، ٨٤

نظامه الاجتماعي والسياسي، وأعطى الحرية الكاملة لكل فرد من أفراده في إبداء الرأي والنقد والمعارضة»[1].

ونحن نسأل:

فهل يوجد مجتمع لأفراد يختلفون ويتفقون في مناهج تفكيرهم وسلوكهم ويجتمعون على إقامة مؤسسة سياسية تجمع جهودهم الفردية، وتحرمهم حرية العمل المجتمعي، بل تبيحها لهم متفرقين؟!

وإذا كان المقصود بـ«الإقناع» في تعريف الدولة الحديثة، أن تستخدم السلطة السياسية العصرية مجموعة مؤسسات الإعلام الجماعي في تعريف الناس بأهداف السياسة التي اعتنقت عقيدتها وتصلبت في تبنيها، وإقامة مؤسسات التربية والتعليم في «العالم السياسي» لتعلم وتعلم المحمود من هذه السياسة، وتعبئة الرأي العام وتشابكات الاجتماع السياسي المعاصر تقتضي قيام مجتمعات ومؤسسات معرفة بالمعروف والأمر به، ومعرفة المنكر والنهي عنه، ومعرفة مناهج الإصلاح، وتنسيق تصنيفاتها من شتى مؤسسات جمع المعلومات، وتصنيفها، وتحليلها، وكشف دلالاتها.. ومؤسسات الثقافة والصحافة والإعلام.. ومؤسسات التربية والسياسة فهل تحرّم وتحرم العمل الجمعي والجماعي في هذه الميادين، وتقصر هذه الجهود الفردية التي قد تتعثر لقصورها وعدم الإلمام بها؟! وهل يجوز لمثل هذا المسلم أن يقول: «أنا جماعة»؟! وكيف يتحدى في هذه الفروض الكفائية الاجتماعية مع فروض العين؟! فالفرد المسلم يتعلم هذه الفروض الاجتماعية على حدة، على حين أنهم يتحدثون عنها على أنها جملة واحدة، بينما الأهم في تحقيق هذه الفروض هو الصلاة والصيام خاص بالفرد المقصر وحده؟!.. دين، حتى فرائضه السنوية يزداد الأجر عليها عندما تؤدى في الجماعة والمجتمع؟!.

وقد نرى أن تعطي لرأي هذا المفكر الذي كثر من حوله الحديث عن الشورى والشمولية والتعددية والتكامل والتوحيد والتنوع وتعددية الاجتهادات.. ولتنظيم هذه الاجتهادات المتعددة، وذلك في إطار

(1) الأحزاب السياسية في الإسلام، ص٨٥

[illegible] ... [illegible] ... [illegible] ... [illegible] ...

... حتى لا يفهم من كلام صاحب هذه الدعوى ... منكرة للاختلاف ... لأحزاب ... سياسية ... بمعنى "سياسة" تدل على أن هذا هو ... كل ... و "سياسة" ... شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٦٦١ ... ٧٢٨هـ = ١٢٦٣ ... ١٣٢٨م) لم يرفض الأحزاب لمجرد أنها حزبية وحزب، وجعل معيار القبول لها أو الرفض هو موافقتها ... للحق والباطل التي تتحزب الأحزاب لأجله، فكتب فتواه في هذا الموضوع ... دعوى صاحب هذه الدعوى المنكرة للأحزاب السياسية ... مثل شيخ الإسلام ابن تيمية عن جماعة من الناس يسمون حزبًا، ويتحدون لهم رأسًا، ويدعون إلى بعض الأشياء» ... ؟ فقال

«وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب - أي تصير حزبًا - فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان، فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا، مثل أن تعصب من دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق أو الباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان»[1].

هذا ... يرجح ... [illegible] ... لا يتردد ... [illegible] ... ويدعون ... [illegible] ... لا يكون هناك عصبية جاهلية من أي حزب وقع ... [illegible] ... فكما هي ترسم ... [illegible] ... والتعصب ... [illegible] ... ذلك ينهى عن ولاء ... [illegible] ... ينهى إلى التعصب لقسم في حزب دون ... [illegible] ... حزبي ... [illegible] ... تعصبهم وإطلاق

وعلى هذا «الحزب السياسي» القديم ... [illegible] ... "السياسة" ... شيخ الإسلام ... [illegible] ... وذلك عندما ... [illegible] ... شرعية ... [illegible] ... جماعات ... [illegible] ... العمل السياسي جزء من مشروعه الإصلاحي. «ولقد سُئل ... هل تعتبر قيام

(١) د. صلاح الصاوي «التعددية السياسية في الدولة الإسلامية» ص ١٣٢، طبعة ... ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م

جماعات إسلامية في البلدان الإسلامية، لاحتضان شباب وتربيتهم على الإسلام، من إيجابيات هذا العصر؟».

- فأجاب: «وجود هذه الجماعات الإسلامية فيه خير للمسلمين، وعلى كل جماعة من الجماعات الإسلامية: - «التبليغ»، «اتحاد الطلبة المسلمين»، «الإخوان المسلمين»، «الشبان المسلمين»، «أنصار السنة المحمدية»، «الجمعية الشرعية»... إلخ - أن تتعاون مع الأخرى فيما اتفقوا عليه من الحق، وأن يتفاهم معها فيما اختلفوا، عسى الله أن يهدي الجميع إلى سواء السبيل، وعلى كل طائفة من هذه الجماعات أن تنصح للأخرى، فتثني عليها بما فيها من خير، وترشدها إلى ما فيها من خطأ في الأحكام أو انحراف في العقيدة أو الأخلاق، أو تقصير في العلم أو البلاغ، قصداً للإصلاح، وطلباً لاستدراك ما فات، لا ذمّها وتعييراً، عسى أن تستجيب لما دعيت إليه فتستكمل نقصها وتصلح شأنها، وتجتمع القلوب على الحق وتنهض بنصرته».

هكذا في جماعة المسلمة، فهناك وحدة شرعية تعددية حزبية، تكون بعيدة عن الخصومة والاختلاف، سعياً - وفق تعبير ابن سعدي - «ولتجتمع القلوب على الحق وتنهض بنصرته» - وفق تعبير ابن باز -.

فوحدة الأمة وهي في بعض سلامة لا تتحقق بنظام حزبي واحد في نوع من تعددية مذهبية وحزبية، أو تمايز في الملل والشرائع - بالنسبة لغير المسلمين - عند المسلمين كل هذه تتعارض مع وحدة الأمة في العقيدة والشريعة والخصائص والقيم، حتى وإن كان التفرق قائماً في الفروع والاجتهاد، الذي يجعل طوائف الأمة ذات منهجية ومنطلقات مشتركة، فالاختلاف في الفروع، والتعددة الصحيحة، هي مقصورة على الثغور، ومنصبات للتدافع والاستباق على طريق التقدم والإصلاح.

ومن خصائص التي حددت الدراسة في تعريف "الأمة" أنها تستوعب كل الجماعات التي تنتمي وتدعي، وتحتضن الجماعات التي تخرج عن ثوابت هذه الأمة وتهدد موقف الاستخلاف، الذي يجعل "خير" الأمة "خير أمة مستخلفة"، فالأمة حريصة على هذه الأمة على "التعايش وفق الاختلاف والتعدد" غير الاختلاف في

(١) د. عبدالرحمن بن عبدالخالق "الرد الوجيز على الشيخ ربيع بن هادي المدخلي" ص ٦٠، ٦١ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م دون تحديد مكان الطبعة

مكونات هذه الأمة [illegible] وأخصائها، فكانت «الوحدة» و«التنوع» وحمى [illegible] الحضارية» التي تميزت بها و امتازت فيها في منتدى الحضارات!

وصدق الله العظيم [illegible] في [illegible] الكريم بين «[illegible] الوحدة [illegible] التنوع والاختلاف»

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ [النساء [illegible]]

﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ [الحجرات ١٣]

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ [الروم ٢٢]

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ([illegible]) ﴾ [الأنبياء ٩٢]

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨) ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ﴾ [الحج ٦٧]

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ [الإسراء ٨٤]

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ [الليل: ٤]

تلك سنة الله في [illegible] الخلق وحميته [illegible] الإبداع [illegible] الكوني منه والحيواني [illegible] المادي منه والفكري [illegible] الإنساني منه والنسائي

سنة التعددية والتنوع والاختلاف في إطار الجوامع الوحدة والائتلاف [illegible] لسنة الله تبديلاً . ولن تجد لسنة الله تحويلاً!

• التعددية بين الواقع والمثال

لكن [illegible] هل يعني هذا أن تصنيفات وممارسات الحضارة الإسلامية المتعددة قد [illegible]

[illegible] ؟ وما [illegible] بين الحضارات؟ وما [illegible] تحدث فيها اصطدامات وتوترات مع أبناء الملل وبين المذاهب؟؟

إنما يجب أن نميز - في هذا الموضوع - بين «المثل» وبين «الواقع». فالمبادئ الدينية، والصيغ الفكرية، والنظريات الفلسفية هي «مثل». والمثل - عادة - تستعصي على كمال التحقق والتطبيق، ولا فرغت حياة الإنسان من «المثال»، وأصبحت جحيمًا لا يطاق، أو مواتًا لا أمل فيه ولا رجاء. فوجود «المثل» - لدى لم يطبق بعد - هو الذي يبعث الحيوية والأمل والرجاء في حياة الإنسان. فوجود «مفهوم» في «جدوى أعمال» هذه الحياة.. تتطلب السعي لتحقيقها، والاستمرار على طريق الخير التي فيها. فتطبيق و«الواقع» لا يمكن أن يرقى إلى درجة «المثال»، ولا أن يستنفد كل «المثل»! تبقى قاعدة عامة في كل الديانات والفلسفات والحضارات على مر التاريخ.

لكن بقدر ما يكون «المثال» سامياً، وبقدر ما يكون ديناً، تتحور مقاصد تطبيقاته وإقامته المنفعة الدنيوية، إلى حيث تصبح هذه الإقامة «للمثال الديني» قربة إلى الله، وشرطًا لسعادة الدار الآخرة، التي هي خير وأبقى. بقدر ما يعين ذلك على أن يكون التطبيق و«الواقع» أقرب إلى السمو، وأكثر تعلقًا «بالمثال».

ولقد كان هذا هو حال التعددية وتطبيقاتها في حضارة الإسلام.

فقد [illegible] لاختلاف [illegible] لا لفوضى ولا لأعراق، لأن الإسلام قد جمع عصبته هذه وعرقه و[illegible] سوية [illegible] في حدود ما [illegible] «دعوها فإنها مُنْتِنَة»[1].

وكانت الاختلافات بسبب [illegible] مشروعة منضبطة على [illegible] حرية، تنبع من فهم على الإطلاق لتصور الله، والمبادئ عن الخلق والكون أمام أبناء الملل والشرائع الدينية المختلفة.

فلم نعرف عن اضطهاد بعض اليهود والنصارى - بسبب معتقداتهم، وفي بعض البلدان - في ظل الحضارة الإسلامية، كما في أحيان كثيرة، وقد تعرض لها خلال حياته الاستعمارية الصليبية والتغريبية [illegible] من [illegible] على [illegible]

(١) رواه البخاري، [illegible]

لوطن، وبذلك لأمة. خصائص التي تميز بها شخصيته ولاحتفاظ بشخصيته
التي شهد أعداء هذه الأمة ضد الإسلام، والتي هددت وجود أمته وحضارته.

وعلى سبيل المثال فإن الحملات الصليبية على بلاد الشام تعرف
في المصادر العربية باسم "الفرنجة" وتسمى الحملة التي قادها لويس التاسع "
(١٢٤٣ ـ ١٢٧٠م) عام ١٢٤٥ م بعثة إلى عاصمة الدولة التركية في الشرق الأدنى
بهدف التعرض رأسها مندوب البابا جون دي بيان كارپيني" وحملت بعثة لويس
جان دي جوانفيل" اسم "جنجص" [١٢٢٤ ـ ١٣١٧م] في سنة لويس التاسع ٢٤ ـ
٢٥ م، أثناء وجوده بالمنصورة، وهو في طريقه لغزو الشام ومصر، أثناء ٢٤٨
٢٤٩ م. جاءت مع صليبية وصلت بالفعل إلى الشرق ومنهم [illegible] الدعاة
البعثة التبشرية إلى بلادها من قبل، صحبتها بعثة فرنسية ضخمة لاستكشاف
[illegible] وتسجيل ما في المناطق التي تمر بها من [illegible]
في "الوفد" من خصائص تكاد تضيع بعثة فرنسية، أشبه ما تكون بالوفود
العلمية التي تسافر في بلاد "ما وراء" البحار "المتخلفة" لتسجيل
وجه نحو تضييع في إقامة هذه المناطق فجأة من حضيرتها إلى بلاد
الإسلام، بعد أن كان التخطيط أن تتجه إلى أوروبا!.

وقد استعان لويس على هذه المناطق بعثة من المصادر [illegible]
كان يهود وجود ويهود في بلاد التتار، واستعان ـ في ذلك ـ بإحدى روحات "هولاكو" ـ
دوقوز خاتون" ـ وكانت نصرانية الدين، نسطورية المذهب!.. بل إن قائد جيش
"هولاكو" الذي دمر بغداد (٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨ م) وبلاد الشام وزحف نحو مصر وانتهى
أمره في "عين جالوت" ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠ م كان نصرانيا نسطوريا، هو "كتبغا"!

وقد كان لهذه البعثة النصرانية في هذه الحملات التي هددت وجود الأمة
وحضارتها بعكس ما كان من موقف نصراني في مثل هذه الحالة، فحملت
حملات وحاصة من صور ما دعت تعريبه من وكشف هذه الصور عن
حقيقتها، فأعلنت تحديها للوطن والدولة والأمة في ساعة العسرة وحطات الشدة.

---

(١) د. محمد عماره، المعركة ضد الغزو، ص١١٦ ـ ١١٨، طبعة دمشق ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م

في دمشق [illegible] خاصة بمصر ـ وقد شاهد المقريزي (٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ/ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١م) عُمدة مؤرخي العصر ـ:

«لما سلطان النصارى بدمشق على المسلمين، وأحصروه، فرمنًا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يمرون به في الشوارع إلى كنيسة مريم ويقفون به ويحطون في الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، وخربوا مساجد ومدن كانت بجوار كنائسهم، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو ـ وهو كُتُبُغا ـ فأهانهم وضرب بعضهم، وعظم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعائرهم»[2].

وكان طبيعيًا أن تكون لهذه الخيانات التي جاءت للوطن والدولة [illegible] في [illegible] وحصاد خراج وشمة [illegible] بعض [illegible] بالنصرانية ذات [illegible] ـ كان طبيعيًا أن تكون لهم [illegible] ـ بعد تحرير هذه المدن ـ لاضطهاد النصارى ـ فبعد هزيمة التتار يعيد كُتُبُغا في «عين جالوت»، بحسب موجة اجتياحهم للشام، وعندما وصل إلى أهل دمشق سبب [illegible] المعظم [illegible] (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م): «يبشر الناس بفتح الله له، وخذلانه التتر [illegible] ويدرو إلى دور النصارى فنهبوها، وأخربوا ما قدروا على تخريبه»[3].

وكذلك صنعت الجيوش الإسلامية [illegible] بالنصارى [illegible] باحتلال الصليبيين للقدس سنة ١٠٩٩م، فصاروا [illegible] «البطريرك النصراني [illegible] «ميخائيل» ـ في موكب الصليبيين «الدلائل الاحترام والتوقير، فإن [illegible] يشبه خلاص من الأسر [1] ـ في حين شاهد [illegible] من أيدي غير المؤمنين»[3].

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وكان لاحتياج خراجي وكان لاحتياج لأمن وحاجة لأمة وحصانة من ثغرات منه، وتطوعت هؤلاء المعلمون" الذين وجدوا فيها من التوتر والاضطهاد الذي جعلهم بعلاقات بين المسلمين وغيرهم من أبناء الملل وتطوعت عن مسقط رأسها في السنوات التي شهدت وأعقبت هذا الاجتياح وذلك الاختراق!.

ما على حياة الحكام الذين كان اضطهاد بعض الشعراء والمغنين وغيرهم من أبناء الذمة من أهم أعمالهم التي عرفت كتب المسلمين وغير المسلمين في تاريخ العباسي ٢٣٣-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) مثلاً، فإن المتوكل لم يضطهد النصارى كما فعل من الاضطهاد الذي أصاب شعراءه ومغنيه وعازفيه وكما حدث في عهد سابقه المعتز الذي شهده أيام الفتاء، وتقدم إلى حريرة «دهليك» حتى يحرم الأحباء! وحرمهم الكثير من الحقوق الاقتصادية، ومنع عنهم العطاء وكما فعل بعض الحكام النصارى الذين صنع شيئاً عندما كسروا أيام حكمهم سواها بالأرض، ثم حرثت فيها وزرعت، وعلى هذا النحو تم رسم اضطهاده المتعمد تحدياً وشهّر كسر الصليب مراسيم اضطهاده للنصارى»[1]!

وكانت مقاصد بعض الخلفاء والسلاطين سبباً في قتل بعض الشعراء فقد كان شاعراً حبشياً، وكان عبداً يحترفه في حداثته، لأن مولاه يعرف فيه موهبة وذكاء وحصافة، فيعلمه ويثقفه، ويتوسم فيه الخير، فيعتقه ويرفعه إلى مكانة مرموقة بين أقرانه، ويقربه من مجالسه، ويكثر من الاستماع إليه، ويغدق عليه الأموال والثروات في جميع الأحوال!

ومن المدائح المتبادلة بين بعض اليهود والنصارى بأغلبية الرعية، وقد أحدثه كثير من الشعراء، عبيد الله بن قزمان الذي عاش في القرن ٩٧٥-٣٨٦هـ/٩٩٩م) وهو من أشهر من كتب في الموشحات وحسنها، حتى لقب بـ(ابن قزمان) (٣٧٥ هـ/٩٩٩م)، وقد وجد بعض الباحثين أن كثيراً من الموشحات التي

(١) القاضي عبدالجبار بن أحمد (نقض الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص٣٠٢، ٣٠٣ تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية ١٩٧٢م والفرق بين الفرق، تحقيق محمد [illegible]

[illegible] العربية، وكانت لهذه الزوجة ولابنتها «السيدة الملك» نفوذ واسع في شئون الدولة، وكان لها أخوان [illegible] النصرانية: «أرسانيوس» بطرك الملكانية في القاهرة، ثم بطرك الإسكندرية و«أريسطس» بطرك الملكانية في القدس

وفي هذا المناخ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
في قصص، فيها: بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك - (الخليفة العزيز)! ألا كشفت ظلامتي؟! [illegible]
[illegible]
[illegible] عيسى بن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليهودي شيئاً كثيراً

وفي هذا المناخ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] فيقول ساخراً:

تنصّر فالتنصّر دين حق ... عليه زماننا هذا يدلّ

وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا ... وعطّل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا ال‍ ... عزيز ابن وروح القدس فضل!

ثم [illegible] فيعبر عنها الشاعر المصري الحسن بن [illegible]

[illegible] ص ٢٩٧، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، طبعة [illegible] ١٩٦٧م وابن [illegible] (البداية والنهاية) ج ١١ ص ٣٢٠

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية مآلهم وقد ملكوا

نعز فيهم والمال عندهمو ... ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إني نصحت لكم ... تهوّدوا فقد تهوّد الفلك [1]

وفي [illegible] يقول الشاعر ابن الخلال:

إذا حكم النصارى في الفروج ... وغالوا في النعال وفي السروج

وذلت دولة الإسلام طرا ... وصار الأمر في أيدي العلوج

فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج [2]

[illegible] الإسلام [illegible] الأخرى [illegible] الاختلاف في الشرائع [illegible] في الجوهر والأساس [illegible] بين أغلبية الأمة المظلومة، الباحثة عن العدل، والتي تمارس الظلم فيها وبها وضدها نفر من أبناء الملل غير الإسلامية، اختارهم حكام [illegible] معاملاتهم مع هذه الأغلبية!.

[illegible] والمنشود، وليست زيادة تعداد المسلمين [illegible] من الناس!.

---

(1) [illegible] ص ١١٣، ١١٤، ١١٧، ١١٨، ترجمة [illegible] محمد عبد [illegible] ١٩٧٠ م

(2) [illegible] ج ٢ ص ٢٣

ويحكي المقريزي - في حوادث سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) موقف جمهور المتعصبين من عتق بعض الكتب، حتى عصر الإسلام، ذلك الإسلام الذي لم يترك أثراً يخفف من بطشهم وجبروتهم، بل نجده يزيد من تعصبهم وحقدهم، وتحولهم بإعلانه - من القتل والمصادرات! . يحكي المقريزي ذلك، فيقول: لقد «ازدادت بطشتهم بعد إسلامهم، وأظهروا من التجبر ما كانت تعهم عليه من إضمار»[1] فكتب أحد الشعراء إلى الأمير بيدر الدانيالي يقول:

أسلم الكافرون بالسيف قهراً ... ورداء حلوا، فهم مجرمون

سلموا من روح مال وروح ... فهم سادوا، لا مسلموا!

فهو «إسلام» مفروض عليهم من الخارج، الذي استخدموه على مضضهم، فحصدوه بسببه على جمعوه، ونعم الجزاء على ما اقترفت أيديهم في حق الناس وبعبارة أخرى «الروح المال والروح»!..

فالمقصود بعبارة المقريزي - كانت «التسلط والتجبر» من قبل هؤلاء الجدة، ولم تكن بصيرتهم وجودتهم تحجب عن الأخيرين[2] وقد حرر المتعصبون منهم شعراً وشعراء المتعصبين في كتب تعد الأدبي حجة" دمية" ٨٦٩ - ١٩١٧م تعبر عن هذه البطشة وهذا الاستبداد من هذه الكتب تحميل المسلمين، فيقول «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون في بلاد الإسلام»[2] ثم يشيد بهذه السيطرة وذلك الاستبداد في أحداث ردود الفعل من الموالف والملل، فيقول «إن أكثر الفتن التي وقعت بين النصارى والمسلمين نشأت من تجبر المتصرفين الأقباط..»[3]!

وردود الأفعال هذه هي التي تكمن في أساس حكم بعض المؤرخين، ومن حقب عزيز فاروق المقريزي وغيره من المتعصبين، ثم جاء شعب عليه وعوضهم عن مقامهم في ترتيب الجبر، وتحيز التاريخ لصالح الاستبداد

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٥٤٥ - ٥٤٧

(٢) «الحضارة الإسلامية في ... ج ... ص ...

(٣) المرجع السابق، ج١ ص ١٢

حتى انتكس مجتمع الخلافة، عندما ذهب في طوره الأخير [illegible] من جهة [illegible]
[illegible]»(١)

* * *

«في ضوء هذه الخلفية [illegible] بحثه [illegible] موضوعي [illegible] الباحث اللبناني «جورج قرم» - والذي لا يمكن أن يكون متهماً - والذي يقيّم فيه العلاقات بين المسلمين وأبناء الملل والطوائف غير المسلمة. [illegible]

«ويلاحظ أن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصي، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل، الخليفة العباسي الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة، وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، الذي غالى في التصرف حتى أضاع رشده!

العامل الثاني: هو تردي الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين الشاغلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار.

أما العامل الثالث: فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة. إن الحكام الأجانب - من فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب، وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضاً، حيث أظهرت أبحاث «حنا» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان ١٨٤٠م و١٨٦٠م. ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها في أماكن عديدة أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التي تعاونت مع الغزاة..

بل به كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي - حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح - مثل في بعض قلاقل داخلية. فعلاوة على عدد الموصفين الدميين في الانتفاضات وفي مرتداتهم وتحيزهم - في حد الصفة أحياناً - لأبناء دينهم، فقد كان يمكن أن تصدر منهم استفزازات داخلية بكل معنى الكلمة»!

* * *

أما أشهر من طاردة الدولة العباسية للزندقة، وحرصه على عهد المهدي العباسي (١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٥ - ٧٨٥م)، فإنه لم يكن اضطهاداً لديانات الفرس القديمة - فقد عوامل أهلها معاملة أهل الكتاب - ولا كان ضيق صدر بالتعددية في الملل والشرائع، لأن هذه الزندقة - التي طاردتها الدولة - كانت ستاراً دينياً لمخططات شعوبية سياسية، استهدفت الإسلام - وليست أجنبية دينية - واستهدفت عروبة الدولة، وطمعت في الثأر من الإسلام ودولته، اللذين أذلا دولة الفرس، ودهما بعرش الأكاسرة القدماء فكان موقف مهدي العباسي - كموقف ابنه الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ/ ٧٦٦ - ٨٠٩م) من البرامكة - دفاعاً مشروعاً عن الدولة وفكريتها وهويتها، أكثر منه ضيق صدر بالتعددية في الملل والمذاهب. ويشهد على ذلك أن مطاردة الزندقة لم تؤد إلى أي تضييق على أي من أتباع الديانات والملل والمذاهب التي كانت قائمة في ذلك التاريخ!

[illegible] عصره [illegible] كانت [illegible] فقد كان [illegible] من شعراء عصره [illegible] حتى [illegible] بالعلاقة الإسلامية [illegible] الاضطهاد الإسلامي! فكان [illegible] حسبما «اتهمه» الإسلامي في التعددية والتسامح والاختلاف، أن لجأ إلى [illegible] «التضييق» لهذا المثال!..

وحتى في تلك العصور [illegible] الإسلامية [illegible] وعلى [illegible] في [illegible] الإسلامية [illegible] كان ضيق صدر

[illegible] ٢٩، ٣٠ [illegible] ٢٢٤ [illegible] ٩٠٩م.

[illegible] تعاليم مبادئ الإسلام ومواريث الأمة في تطبيقات متعددة [illegible] في عصور الازدهار.. ويدعم هذه المغالبة أن «المثال» في النموذج الحضاري الإسلامي - هو [illegible] وضع إلهي ثابت، وليس مجرد نسق فكري من التسامح، [illegible]

وبعبارة «أرنولد» «فإنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال - في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح»[1]

[illegible] هي خصيصة العلاقة بين [illegible] الأقوام في حضارة الإسلام، [illegible] مستوى «المثال النظري»، أو على مستوى «الممارسة.. والتطبيق»!

* * *

(١) (الدعوة إلى الإسلام)، ص ٧٢٩، ٧٣٠

تحضُّرٌ إنسانى

وتعددية فى الحضارات الإنسانية

من البحث، كما يصنع الكثيرون - في قواميس المفاهيم العربية عن تعريف الحضارة، ففي ذلك خيانة للقضية التي أفرد لها هذا الكتاب - قضية التعددية، ومنها تعددية مفاهيم المصطلح الواحد، بتعدد الأنساق الفكرية، وتمايز الحضارات.

فالحضارة - في اصطلاح العربية - هي المقابل للبداوة، ففي الحضارة حضور وقرار واستقرار، نتج للحضور - أي الحاضرين في الحضر - إحداث تراكم في التمدن، الذي يتهذب به الواقع المادي، ويتراكم المدن، ونمو الثقافة - التي تتهذب بها النفس الإنسانية - تقوم الحضارة والعمران.

فالحضارة هي العمران بجناحيه: «التمدن» الذي يتهذب به الواقع المادي، و«الثقافة» التي تتهذب بها النفس الإنسانية وهي الحضارة، ثمرة للحضور والاستقرار في الحواضر، والقرار في المدن والقرى والديار.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾ [الأعراف: ١٦٣]. وفي الحديث الشريف، وكذلك في الشعر العربي ترد المقابلة بين «الحاضر» و«البادي» وبين «الحضارة» و«البداوة». ففي الحديث: «لا يَبِعْ حاضرٌ لباد»، أي لا يكن ساكن الحاضرة سمسارًا للبائع الآتي من البادية، فيعاني في ثمن السلعة المباعة، لإقامته في الحاضرة بها، بينما البادي يريد البيع سريعًا، كي يقفل راجعًا. وفي شعر المقامي: عمير بن شييم (١٠هـ/٦٣١م)

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأي رجال بادية ترانا

(المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤هـ/ ٩١٦ - ٩٦٥م)

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يقصدوا فعلوا

[illegible] في المقابلة بين «صناعة» الحسن لدى نساء الحضارة في الحواضر، وبين ما «طبعت» عليه البدويات في البادية

ما أوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعاليب

حُسْن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حُسْن غير مجلوب

[illegible] الأرض [illegible] هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود: ٦١]

«أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١)» [الروم: ٩] [illegible] مصطلح «العمران» في [illegible] الحضارة التي اشتهر مصطلحها وشاع في تراثنا الحديث، حتى ليميز بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م) نوعاً من [illegible] بين مضامين المصطلحين «الحضارة» و«العمران»، ذلك عندما [illegible] العمران - الذي هو [illegible] وبين الحضارة التي هي مرحلة [illegible] العمران [illegible] والاستهلاك [illegible] والعزوف عن العمل المنتج، والاعتماد على القوة، وزيادة الوظائف الإدارية والإشرافية غير المنتجة عن الضروري [illegible] الأمر الذي يزيد المصروفات [illegible] عن الإيرادات - (الدخل) - فيزيد [illegible] زيادة في الثروة [illegible] ويكون «الدولة» في ذلك [illegible] مصدر الإنفاق لأموال [illegible]

(١) انظر في ذلك: ابن منظور (لسان العرب) طبعة دار المعارف - القاهرة

هكذا عرف ابن خلدون «الحضارة» بأنها «أحوال عادية، زائدة على الضروري من أحوال العمران... هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة... وذلك إنما يجيء من قبل الدولة، ثم فيمن تعلّق بهم..»[1]!

فما اشتهر باسم «العمران» في تراثنا القديم، اشتهر باسم «الحضارة» في تراثنا الحديث.. إنها جماع التمدن والثقافة، والتراكم العمراني الذي يتزين به الواقع المادي والنفس الإنسانية، وبه يرتقي الإنسان بواقعه، ويسهم الواقع المتمدن في ارتقاء الإنسان المديني المتمدن، في الميادين العديدة: الدينية، والخلقية والجمالية، والعلمية والاقتصادية، والسياسية.. إلى آخر ميادين الارتقاء في العمران.

* * *

[illegible] جميعها ـ من كل الأجناس والألوان، والفلسفات والديانات، [illegible] يشهد بروع الإنسان [illegible] على درجات سلم العمران [illegible] والأمن بالخطر والخوف، واللين بالخشونة، والسعادة بالشقاء [illegible] بالفطرة والمصلحة جميعاً، إلى الأخذ بأسباب الحضارة والعمران.

وإذا كان هذا البروع [illegible]

ـ وحدة الحضارة لدى البشرية جمعاء؟

أما أننا ـ في إطار وحدة البروع الإنساني للتحضر [illegible] فيها وبها الأمم والشعوب؟

[illegible] من تلك التي تمثل «الحدود السياسية» للدول والإمبراطوريات

(١) (المقدمة) ص ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥

فتميز اليابان ـ كحضارة ذات هوية خاصة تميز أمتها، عبر تاريخها الطويل ـ هو حقيقة لا يختلف عليها [illegible]، فضلاً عن [illegible] !

وتميز الهند ـ كحضارة [illegible] حضارية خاصة [illegible] بلا اختلاف

[illegible] كحضارة [illegible] في [illegible] في [illegible] !

أما تميز الغرب ـ كحضارة ـ . فهو حقيقة يجمع عليها الدارسون، تستوي في ذلك التميز حقب جاهليتها اليونانية القديمة، وتهضبها الأوروبية الحديثة، والواقع المعاصر الذي تعيش فيه

لكن [illegible] وخلافاً كبيراً [illegible] وخارجها ـ في [illegible] على هذا [illegible] ؟ [illegible] عن علاقة حضارتنا الإسلامية بالحضارة الغربية على وجه التحديد! . . فليس هناك من [illegible] حضارتنا تميزها عن حضارات اليابان والهند والصين [illegible] لكن عندما يكون الحديث عن العلاقة الحضارية بين المسلمين والغرب: تبرز دعاوى «واحدية الحضارة» [illegible] «العالمية» و«الإنسانية» [illegible] حضارة الإسلامية عن حضارة الغربية [illegible] التي تضمن لها هوية [illegible] وعالمية [illegible] حضارية [illegible] عليها [illegible] والتشويه والاقتلاع!

وعندما لا يدور الجدل عن [illegible] الحضارة الغربية عن حضارات الشرق الأقصى الآسيوية ـ اليابانية [illegible] والصينية ـ ويكون الجدل والإنكار ـ فقط ـ للتمايز الحضاري بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية، [illegible] الأمر يشي [illegible] والصراع [illegible] بين حضارتين الإسلامية والغربية ـ في [illegible] منكري [illegible] الحضاري في هذه [illegible] ! [illegible] عن [illegible] التي [illegible] دعوى هذه «[illegible]» في هذا [illegible]

ذلك أن حضارات الشرق الأقصى هي حضارات «محلية» [illegible] ـ عبر [illegible] مكانات [illegible] والتأثير والقبول على النطاق العالمي [illegible]

"المقدسة حضارياً" في ساحة [illegible] التاريخ، وبدت فيها [illegible] حتى في [illegible] "الحديث" ويدور [illegible] "الحضارة [illegible]" [illegible] على [illegible] عالمنا منذ عدة قرون!

[illegible] في علاقة [illegible] بين الإسلامية [illegible] [illegible] [illegible] وتطاء [illegible] خارج حدود "[illegible] الحضارية" [illegible] مع [illegible] [illegible] التاريخ [illegible] وبين [illegible] الحضارة الغربية وبين حضارات الشرق الأقصى - [illegible] "[illegible] الاقتصادي"، [illegible] بين الغرب والإسلام حضارة [illegible]!

* * *

[illegible] بعض المفكرين الغربيين [illegible] "[illegible] الإسلامية [illegible]" [illegible] في [illegible] [illegible] الحضارة [illegible] الإسلام [illegible] [illegible] [illegible] الغربية، [illegible] لهذا التراث الصليبي تأثيراته حتى في الثقافة والتصورات الغربية [illegible] [illegible] الغرب [illegible] كبير ومؤثر من مفكري الغرب [illegible] [illegible] وتحديد [illegible] [illegible] [illegible] الحضارات، ويدعون [illegible] الغرب [illegible] [illegible] والاقتصادية والثقافية والسياسية - لصراع الحضارات [illegible] الغربي [illegible] حضارة الإسلام!.

ولعل المفكر الأمريكي «صامويل. ب. هنتنجتون»[2] [illegible] نموذج لهذا القطاع من الفكر الاستراتيجي الغربي، الذي [illegible] [illegible] الحضارات [illegible]

---

(١) انظر على سبيل المثال [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

(٢) [illegible] الاستراتيجية [illegible] [illegible] الأمريكية [illegible]

هذه التعددية من أرض الواقع الحضاري!!

يرى «هانتنجتون» تماير حضارات بتماير الثقافات «فالحضارة هي كيان ثقافي وليس ثمة حضارة عالمية، بل عالم من الحضارات المختلفة ... وفي العالم سبع أو ثمان حضارات كبرى الحضارة الغربية، والصينية الكونفوشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والأرثوذكسية السلافية، و لأمريكية اللاتينية، وربما لإفريقية . وهي حضارات تتماير عن بعضها البعض بالغة والتاريخ والثقافة والعادات، وأهم من ذلك الدين، وأساء هذه الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والجماعة، والمواطن والدولة، والآباء و لأساء، والزوج والزوجة، وكذلك آراء مسايرة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات، و لحرية، و لسلطة، و لمساواة والتنظيم الهرمي. وهذه الاختلافات هي نتاج قرون، وس تختفي في لقريب العاجل؛ إذ إنها أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوجية السياسية والنظم السياسية».

تكن صامويل ب. هانتنجتون» بعد هذا التحديد الدقيق و لعميق [illegible] حضارية عدة ولأسباب عدة سنعددها فيما بعد في [illegible] ولنوع الأهم هي «فلسفات رؤية الكون والمادي و لمستقبل [illegible] الحاكمة والمنظمة للعلاقات بين الفرد والمجموع، وبين الأسرة [illegible] وسئولية.. إلخ.. إلخ.. بعد هذا التحليل [illegible] «هانتنجتون» يركز الأنظار على «عامل الصراع» بين هذه الحضارات في الماضي و لحاضر والمستقبل بصفة خاصة حين يكون الحديث عن العلاقة بين مختلف حضارات، وخاصة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ولكن مع حضارة الصين [illegible] «الحتمية للصدامية» بين الحضارات، لكنه يقول «بالحتمية الواقعية» لهذا الصراع!

يعتقد «أن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية و لإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام وعلى كلا الجانبين يُنظَرُ إلى التفاعل بين الإسلام و لغرب على أنه صدام حضارات».

و[illegible] الإسلام ـ عند «هنتنجتون» ـ هو الغرب الشعبي، بشكل خاص العسكر الذي كان شيوعيًا خدمه مسيحيه أرثوذكسيهم لسلافه وكان يكتسب ودّ مستشهد، الذين يقوى بجوار الغرب العراقيه، ويعمد تحويك محاوف [illegible] فيما يتعلق بأمر حدودهم ختوية» مع مسلمين!

وعلى نفس منوال العلاقة التاريخية بين الصراع ـ يرى «هنتنجتون» مستقبل الصراع في الحضارة الواحدة ـ عند ـ هي الصراع بين حضارة الغربية وبين الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية ـ وبعبارته «فإن البؤرة المركزية للصراع في المستقبل القريب سوف تكون بين الغرب والدول الإسلامية والآسيوية العديدة»!

ولأن هذا الصراع هو «الصراع الواحد» و«الحتمية الوحيدة» في عالم الأمس حسب «هنتنجتون» ـ وحتمية يحتم عليه خطة الانتصار على هذا الصراع ـ فيشير بتقسيم مراحل الصراع المستقبلي إلى مرحلتين

الأولى والتي هي مرحلة «ما بعد الحضارة» وفيها ينصح «هنتنجتون» الغرب بتوحيد عالمه الحضاري، وتجييش كل أدوات الصراع ـ من آلة الحرب، إلى الاقتصاد، إلى السياسة، إلى الثقافة، إلى القيم، إلى المؤسسات الدولية ـ وتركيز الصراع ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية ـ فيقول إنه «على المدى القصير من مصلحة الغرب أن يعزز تعاونًا أكبر وتوحيدًا في نطاق حضارته، وعلى وجه الخصوص بين مكونيها الأوروبي والأمريكي الشمالي، وأن يدمج مجتمعات شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية في الغرب، وهي مجتمعات ذات ثقافة قريبة من ثقافة الغرب، وأن يعزز علاقات التعاون مع روسيا واليابان ويحافظ عليها، وأن يحول دون تصعيد الصراعات المحلية بين الحضارات إلى حروب كبرى بين الحضارات، وأن يحد من توسع القوة العسكرية للدول الآسيوية والإسلامية، وأن يخفف من تقليص القدرات العسكرية الغربية، ويحافظ على التفوق العسكري في شرق وجنوب غرب آسيا، وأن يستغل الخلافات والصراعات العربية في الحضارات الأخرى، وأن يقوي المؤسسات الدولية التي تعكس وتسوّغ المصالح والقيم الغربية وتضفي عليها الشرعية، وأن يروّج لاشتراك الدول غير الغربية في هذه المؤسسات..».

فالمطلوب من الغرب في «المدى القصير» من الصراع

١ ـ توحيد كيانه الحضاري، [illegible] وكل أوروبا مع أمريكا الشمالية [illegible] الغرب [illegible] من ثقافة الغرب. الغرب النصراني، بمذاهبه المختلفة..

٢ ـ [illegible] حتى [illegible] الغرب في داخل الحضارات غير الغربية، لكي [illegible] الصراع ضد الإسلام والصين

٣ ـ تقليص القدرات العسكرية للمسلمين [illegible] أي في مواجهة الصين والمسلمين»!

٤ ـ [illegible] المؤسسات الدولية التي تنهض «بتسويغ المصالح [illegible] عليها الشرعية، وإشراك الدول غير الغربية في هذه المؤسسات»!

تلك هي معالم خطة «هانتنجتون» للمدى القصير، والمرحلة الأولى من صراع الغرب الحضاري، [illegible] الإسلامية والصينية!

أما المرحلة الثانية، من هذا الصراع الغربي ضد الحضارات غير الغربية [illegible] «المدى الطويل» فهي ـ بتعبير «هانتنجتون» [illegible] مرحلة الاحتواء الغربي للحضارات غير الغربية، التي نجحت في «الحديث» [illegible]

[illegible] المرحلة الأولى من هذا الصراع [illegible] والحضارة الصينية. تأتي مرحلة احتواء الحضارات الأخرى غير الغربية، والتي حدّدها الغرب في المرحلة الأولى من الصراع.. وخاصة تلك التي نجحت في ميدان القوة والتحديث العسكري الاقتصادي.. وبعبارات «هانتنجتون» «أما على المدى الأطول فسيكون اتخاذ إجراءات أخرى أمراً مطلوباً. فالحضارة الغربية هي حضارة غربية وحديثة معاً. وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تكون حديثة دون أن تصبح غربية. وحتى يومنا هذا لم ينجح في هذا المسعى إلا اليابان. وسوف تواصل

الحضارات غير الغربية محاولاتها للحصول على الثروة والتكنولوجيا والمهارات والمكنات والأسلحة، التي تمثل جزءاً من كون الحضارة حديثة. كذلك ستحاول تلك الحضارات أن توائم هذه الحداثة مع ثقافتها وقيمها التقليدية. أما قوتها الاقتصادية والعسكرية فسوف تزيد بالتأكيد على الغرب، ومن ثم يتوجب على الغرب - على نحو متزايد - أن يحتوي تلك الحضارات الحديثة غير الغربية، التي تقترب قوتها من قوة الغرب، لكن قيمها ومصالحها تختلف إلى حد كبير عن قيم ومصالح الغرب، وسوف يستلزم ذلك من الغرب أن يحتفظ بالقوة الاقتصادية والعسكرية اللازمة لحماية مصالحه فيما يتعلق بهذه الحضارات. . [1] .

هكذا يتصور «هنتنجتون» مستقبل العالم حضاريًّا.

يتصور [illegible] حضارة متميزة "تعادل حضارتي" على حد تعبيره [illegible] على حضارة [illegible] سلاماً لأن هذه [illegible] حضارية [illegible] حضارة، وخشية أن تكون [illegible] حضارات غير غربية [illegible] حضارة [illegible] لأوس من [illegible] كسر شوكة [illegible] الإسلامية، حضارة [illegible] مع [illegible] كل حضارة [illegible] مؤسسات [illegible] تسعى [illegible] قيم الغرب [illegible] يقضي عليه [illegible] في مدى الأعوام [illegible] هذه [illegible] فيكون [illegible] هو [illegible] لقد [illegible] حضارات غير [illegible] تلك [illegible] في [illegible] تحديث [illegible] عسكريًّا [illegible] اقتصاديًّا [illegible] الغرب [illegible] القوة [illegible] تحديث [illegible] على [illegible] تعلم [illegible] شيء [illegible] حضارة [illegible] جميع [illegible] الشرب [illegible] لأن [illegible] من [illegible] شافي، حضارة [illegible] من [illegible] تحديث [illegible] وغرب [illegible]!

* * *

[illegible] "صدام الحضارات" [illegible] حضارة [illegible] قوى [illegible] حضارة [illegible] حضارة [illegible] في [illegible] العلاقات بين [illegible] حضارات [illegible] متعددة، [illegible] تصور

---

(١) عثمان في مقال «صدام الحضارات» على ترجمة عبدالسلام محفوظ. انظر مجلة «الحرس الوطني» الرياض عدد ذي القعدة سنة الحجة سنة ١٤١٦هـ/ مارس - إبريل سنة ١٩٩٦م ص ٨٤ - ٩٠ و نظر في دراسة هذه القضية كتابنا [حضارات العولمة ثوابت أم متغيرات؟] - [illegible] سنة ١٩٩٨م.

«التدافع الحضاري» [illegible] التعايش السلمي» وبين «الصراع» الذي يقتضي أن يقضي طرف على الطرف الآخر فيمحوه صفحته ويلغيه. لو أنه تبنى هذا المنهاج لأصاب وأجاد.

لكن الرجل وهو واحد من مفكري الحضارة العربية قد تصور أن «فلسفة الصراع» التي مثلت وتمثل «رؤية الرؤية الغربية» تكتب من الانتصار في الحضارة والتاريخ والمستقبل، وأن «روسيا» هي ثمرة التصارع في عالم الأحياء. وتقدم الاجتماعي والاقتصادي هو ثمرة التصارع الطبقي، وتحرر المرأة ثمرة الصراع بين الرجل والمرأة، وتحرر الشعوب ثمرة الصراع بين الإمبريالية والحرية الإنسانية، وصراع الإمبريالية العربية لإبادة بني الحضارة بلأم غير العربية، وأن ثورتها وستراتيجيتها في شعوب هو «الرسالة السببية» التي لابد أن تحتوي هذه الأمم والشعوب!

فالخلاف من «فلسفة الصراع» هذه هي «الاستشراق» الذي يعالج علاقة الحضارات!.

ولأننا نرى «فلسفة صراعية» مثلت وتمثل قسمة من قسمات الحضارة الغربية فإنه يمكن [illegible] في تصوره هذا يمثل علاقة [illegible] بعلاقة من الحضارة الغربية الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص.

* فرئيس مجلس [illegible] الأوروبي - الأسبق - في سنة ١٩٩٠م «جاك ديلور» [illegible] حتى يعرض «نموذجه الحضاري» على العالم، وهي المقدمة منه العالم الإسلامي [illegible] يهدد العالم الإسلامي بتوجيه آلة الحرب [illegible] لأوروبي [illegible] على [illegible] فرض «النموذج حضاري الغربي»!.

فعندما يسأله مراسل «اليوروبيك» الأمريكية عن مبررات بقاء حلف الأطلسي، بعد زوال المواجهة - التي قام لأجلها - بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الذي كان شتركيًا؟! يكون الجواب:

«صحيح أن المواجهة مع الشيوعية قد [illegible] إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي»..

فلما عاد مراسل «النيوزويك» ليسأله

ـ وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتمة؟

فـ «يسعى أن تحل [illegible] ليصبح للنموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم، وإذ فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكانًا في منتهى الخطورة»[1]

فالمواجهة تحدث [illegible] بين الحضارة الغربية، وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية، إذا لم يتم تعميم وقبول النموذج الحضاري الغربي!

* ولأمين عام سابق حلف الأطلسي «وبني كلايس» يعتبر أن عدو الحلف الذي حل في محل حلف الأطلسي محل شيوعية هو الإسلام، لأن الأصولية الإسلامية قد أصبحت الآن هي التهديد الغربي كما كانت الشيوعية من قبل[2]

* ورئيس أمريكي لأسبق «بشارد نكسون» [1913 ـ 1994 م] وهو مفكر سياسي مرموق ـ يحذر العالم الإسلامي من النموذج الغربي العلماني الذي تحمله الولايات المتحدة، وهو النموذج الذي يحقق العالم الإسلامي ويعيد له مجده التاريخي واقتصاديًا، ويدعو «مواجهة (وليس مجرد حضارية) إذا هو اختار النموذج الإسلامي، بدلا من النموذج الغربي!» فقد كتب محذرا الغرب والمسلمين من

(أ) الخيار القومي في النهضة [illegible] الذي سماه حزب «الرفاه» الذي تحمله الأحزاب الإسلامية المتعصبة»، أي الذي ـ «وهم الوحدة العربية»!

(ب) وخيار «الأصوليين الإسلاميين» المصممين على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث ماضي، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والمتداه بأن الإسلام دين ودولة، واتخاذ الماضي هدية للمستقبل»..

[illegible] ـ عدد ١٧ يونيو ١٩٩٠م ـ مقال الأستاذ فهمي هويدي ـ نقلا عن النيوزويك عدد يونيو سنة ١٩٩٠م

(٢) مجلة «سكوتسمان» ـ أمريكية ـ في ٢٧ فبراير سنة ١٩٩٥م

ودعا ـ نيكسون ـ السياسة الأمريكية والغربية إلى أن تلعب «دوراً رئيسياً في تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة»!.. وهو «خيار»!

(ج) التقدم: ونموذجه «تركيا ـ [illegible] في [illegible] ربط المسلمين بالعالم المتحضر ـ (الغرب) ـ من الناحية السياسية والاقتصادية [illegible] وإلا، فإن «ردود فعل خطيرة ستحدث في العالم.. إذا لم ينجح الغرب في دفع المسلمين إلى هذا «الخيار» الحضاري الغربي»[1].

ولعلها «ضرورة» غير قابلة للحل، ومعادلة مستعصية على الفهم [illegible] السياسة الغربية «الخيار» [illegible] ثم يوصف هذا «الخيار الغربي» [illegible] «الشعوب [illegible]» [illegible]

* ومن [illegible] «[illegible]» [illegible] «[illegible]» [illegible] «[illegible]» [illegible] «[illegible]» [illegible] الإسلام [illegible] والإسلام [illegible] الإسلام [illegible] كثيرة [illegible] على العلمانية الغربية!.. ونص كلمات هؤلاء الخبراء.

«[illegible] أوروبيون كثيرون [illegible] الإسلام [illegible] المجتمع العلماني؟! [illegible] على قدر من [illegible] في المجال السياسي والاجتماعي [illegible] رافضاً لأي تمييز بين ما لله وما لقيصر؟!».

«[illegible] التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث [illegible] الإيمان الديني ـ [illegible] العلمية ـ صالحة على العموم.. لكن عالم الإسلام

---

[1] [illegible] نيكسون (الفرصة السانحة) ص٢٨، ١٤٠، ١٤١ ترجمة أحمد صدقي مراد، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م

استثناء مدهش وتام جداً من هذا [illegible] إنه لم تتم أي علمنة في عالم الإسلام [illegible] الإسلام مقاوم للعلمنة، في ظل مختلف النظم السياسية [illegible]. وسيطرته الآن على المؤمنين به أقوى عما كانت من مائة سنة، ولقد مكّنت التقاليد المحلية الإسلامية العالم الإسلامي من الإفلات من محاكاة الغرب، تلك المحاكاة المذلة التي تضفي الطابع المثالي على النموذج الغربي، فباسم الإيمان المحلي يتم الإصلاح، دون علمنة»!

■ «إن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات الغرب [illegible] ولذلك فإنه من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة»[1]!!

[illegible] الإسلامي، وعن وقوفها منفردة تتحدى احتواء الغرب واجتياحه [illegible] حضارات الجنوب [illegible] وعن استحقاقها لذلك كله ـ من الغرب [illegible] جديدة» [illegible] في هذا التحليل التفسير لما كتبه «هانتجتون» [illegible] الصراع الحضاري الغربي ضد الحضارات غير الغربية!.

[illegible] الإسلام [illegible] وقضاياهم وحقوقهم، في مختلف [illegible] وتقارب [illegible]

[illegible] الحضاري العلماني: «خياراً لنا واختياراً منا» فإن الأغرب والأعجب أن يقبل ذلك [illegible] مثقفين، أن يقبلوا هذا «الإلزام» الغربي، ثم يذهبون شتى المذاهب [illegible]

[illegible] ١٣٩٣هـ [illegible] ١٩٧٣ [illegible] النموذج الحضاري الغربي [illegible] النموذج الحضاري الغربي [illegible]

[illegible]

عربي ـ تتمشى لمعاهدات عام ١٩٣٦ التي عقدها الاستعمار الأوروبي مع حكومات
في صورة تحالف لاحتلال وقمع الاستعمار. فكانت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر
ومصر ومعاهدة سنة ١٩٣٨ بين بعض الاستعمارية ومصر تعني «القد الترمت أمام
أوروبا أن تذهب مذهبها في الحكم، وتسير سيرتها في الإدارة، وتسلك طريقها في
التشريع. .لترمنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ـ (سنة
١٩٣٦م) ـ ومعاهدة إلغاء الإمتيازات ـ (سنة ١٩٣٨م) ـ إلا التزامٌ صريحٌ قاطعٌ أمام
العالم بتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ ولو أن
همتنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي لنظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلا. لأننا
عاهدنا أوروبا على أن نسيرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة»[1].

وبذلك يبرر طه حسين هذا «الإلزام» الأوروبي لأمة بتمشي معاهداتها
غير المتكافئة ـ بتسيير أوروبا وتسييرها في حكمها وإدارتها وتشريعها ـ في
جماع النموذج الحضاري الغربي. وهذا هو الذي يجعلنا نقع في هذا
الطريق الغربي ـ بدلاً من الطريق الإسلامي الذي هو من صنعنا ـ في الحضارة
الواحدة ـ وهي الحضارة الغربية ـ وأن طريق الرقي والتقدم والتحضر واحد لا تعددية
فيه. فهو يعكس مقولة «صامويل هنتنجتون» الأمريكي المعاصر عن «الواحدية الثقافية» بين الشرق والغرب؛ لأن العقل الشرقي ـ في رأيه ـ هو كالعقل
الأوروبي، مردّه ومرجعيته إلى عناصر ثلاثة:

- «الحضارة اليونانية، وما فيها من علم وفلسفة وفن.
- والحضارة الرومانية، وما فيها من سياسة وفقه.
- والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان».

وبعد أن ذكر كثير من الحضارات في الأساسات والعناصر والمكونات
والأسس والسياسة والفقه والتشريع... إلخ، التي تشكل «الوحدة الثقافية» بين الشرق
والغرب» قال: «لقد كانت مصر دائمًا جزءًا من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة
العقلية والثقافية، على اختلاف فروعها وألوانها»!

(١) (مستقبل الثقافة في مصر) ج١ ص ٣٦، ٣٧، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

[illegible] الإسلام [illegible]

[illegible] الإسلامي [illegible] عن [illegible] النصراني [illegible]

[illegible] الأوروبي [illegible] للعقل الشرقي [illegible]

[illegible] الإنجيل"[1] [illegible] الحضاري [illegible] الإغريق.. وأهدر تميز الإسلام في الشريعة عن [illegible] النصرانية الغربية عن النصرانية الشرقية الأولى.

[illegible] الإسلامية [illegible]

[illegible] الحكم [illegible]

[illegible]

[illegible] واضحة بينة مستقيمة لا لبس فيها ولا عوج ولا التواء، هي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها ما يُحَبُّ منها وما يُكْرَه، ما يُحْمَدُ منها وما يُعاب [illegible]

[illegible] ألزموهم هذا الإلزام بمقتضى هذه المعاهدات"..

ذلك هو مذهب المنكرين للتعددية الحضارية القائلين بوحدتها في الإنسانيات كما في الطبيعيات [illegible] والداعين إلى تبني النموذج الحضاري الغربي سبيلاً وحيداً لتقدم كل [illegible] والتحضر والارتقاء.

[illegible]

---

(١) المرجع السابق ج١ ص ٢١، ٤٥.

فما هي «الهوية الحضارية» التي نقول بتميّز أمتنا الإسلامية وحضارتها في سماتها وقسماتها؟ .

وما هي أبرز هذه السمات والقسمات التي تميز بها حضارتنا عن غيرها من الحضارات الإنسانية؟

إن «الهوية» [illegible] وهو منسوب إلى «هو» [illegible] فهي تعني [illegible] ١٤٠ ـ ٣٤٠ ـ ٤٠٣ م [illegible] «حقيقة مطلقة مشتملة على [illegible] الجوهرية، التي تميّزه عن غيره» . وتسمى أيضاً «وحدة الذات» [2] وبعبارات [illegible] إن الهوية الحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت، والجوهري، والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميّز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية القومية طابعاً تتميّز به عن الشخصيات القومية الأخرى

[illegible] جزءاً أصيلاً في هوية أمتنا العربية الإسلامية وقسمات [illegible] عن الحضارات الأخرى، ومن ثم تشهد ما نحن بصدده من التعددية الحضارية، [illegible] سنجد قسمات من مثل: العروبة .. والتدين [illegible]

* فالعروبة: [illegible] هوية حضارية [illegible] العربي الإسلامي، والتي أصبح ولاؤها وانتماؤها لكل ما هو عربي، وليس للأطوار الحضارية التي سبقت ـ في تاريخها ـ طور الاستعراب. ولقد استوت في هذا الولاء والانتماء للعروبة

[illegible]

(٢) (المعجم الفلسفي) وضع مجمع اللغة العربية ـ مادة «هوية»

[illegible] أصلاب عربية [illegible] في [illegible] الحضارة [illegible] العربية الإسلامية حتى كادت [illegible] هذا الميدان!

وكما [illegible] التعريب [illegible] من نسيج الأمة [illegible] كذلك [illegible] الحضارية لشعوب البلاد التي [illegible] التعريب [illegible] الإسلام [illegible] من هذه المواريث [illegible] الإسلام [illegible] الحضارة العربية [illegible] الحضارية لأهل البلاد التي [illegible] الاستعمار العربي [illegible]

فكما [illegible] شعوب البلاد [illegible] الإسلامي [illegible] نسيج الجماعة العربية [illegible] كذلك [illegible] هذه المواريث [illegible] في [illegible] الأمة [illegible] الإسلام [illegible] وأفقه العقلاني ـ مع الصالح من هذه المواريث [illegible] «الإسلام الدين»، الذي هو وضع إلهي، والذي يجب أن ننزهه عن الإضافات [illegible] اختص به الذين تدينوا به من المسلمين، فإن «الإسلام الحضارة»، أي «الحضارة العربية الإسلامية» [illegible] ثمرة «الإسلام [illegible] عند حدود أركانه ونطاق عقائده وآفاق شريعته، وأنه [illegible] الدين [illegible] كما جاءت علوم هذه الحضارة [illegible] ثمرة [illegible] المسلمين [illegible] الأمة [illegible] فهي ثمرة للإسلام [illegible] «الدائرة الحضارية» التي انداحت من حول «[illegible] الدينية» لديانة الإسلام! ففيها تلك الإسهامات والإضافات التي دخلت نسيج هذه الحضارة من المواريث التي سبقت ظهور الإسلام [illegible] ـ في التدين ـ على الشرائع الدينية التي سبقت ظهور الإسلام.

[illegible] الحضارة [illegible] من [illegible] الحضارة [illegible] من الأمم [illegible]

وجدير بالذكر والتنويه أن هذه العروبة ليست خصوصية للأمة العربية بالمعنى القومي، وإنما هي لازمة من لوازم الإسلام. فهي عروبة [illegible]، التي يستحيل على

المسلم من أي جنس أو لون أو قومية أن يفقه القرآن العربي المعجز، فيبلغ في فقهه مرتبة الاجتهاد والتشريع دون أن يكون عربي اللغة، كما يستحيل على هذا المسلم - من أي لون أو جنس أو قومية - أن يفقه علوم الشريعة الإسلامية، وفي مقدمتها الحديث النبوي الشريف وعلومه، ومدونات الفقه الإسلامي، وأصوله، وأغلبها عربي اللغة، دون أن يكون هذا الفقيه عربي الفكر واللغة والثقافة. فإذا لم تكن العربية شرطاً في التدين بالعقيدة الإسلامية - لعالميتها - فإنها شرط للتفقه في الإسلام والبلوغ في شريعته مبلغ الاجتهاد والتشريع. فأهل الاجتهاد والحل والعقد في المجتمع الإسلامي - أي السلطة التشريعية - وأهل الإمامة - أي قمة السلطة التنفيذية - وأهل الحكم بما أنزل الله - أي السلطة القضائية - لا بد أن يكونوا من الذين بلغوا في العربية وعلومها المرتبة التي تتيح لهم فقه القرآن والسنة ومصادر التشريع. أي أن «الدولة الإسلامية» لا بد وأن تكون عربية اللغة والفكر والثقافة، بصرف النظر عن لغة وقومية الرعية والعامة والجمهور [illegible] وحدها فلقد قام الدليل على عدائهم للإسلام أيضاً!

تلك هي العروبة الوثيقة الصلة بالإسلام [illegible] الإسلامية.. وهي - كما أسلفنا عروبة الفكر والثقافة - العروبة الحضارية التي أثمرها الإسلام [illegible] الإسلام!..

[illegible]

[illegible]

[illegible] في هذا المقام، عن النقد للطابع المطلق الذي يصبغه هذا [illegible] على مقولة «البناء الفوقي» و«البناء التحتي»، والارتباط «الميكانيكي» بينهما [illegible] بخصوص موضوعنا أن نظرة متأملة للتحديات التي جوبهت بها عروبة الأمة وعروبة حضارتها عبر تاريخنا المليء بالتحديات، ستجعلنا على يقين من أن «العروبة» هي «هوية» [illegible] وليست مجرد «بناء فوقي» يتغير بما يصيب «البناء المادي التحتي» من تطور وتغيير.

[illegible] «الترك المماليك» و«الترك العثمانيون» [illegible] الإسلامية [illegible] الإسلامي [illegible] (٦٤٨هـ - ٢٥٠ [illegible] ٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م) [illegible] حكم الأمة [illegible] ٢٠٦ - ٢٤٧هـ - ٨٢١ - ٨٦١م [illegible] على الدولة [illegible] الأكثر من عشرة قرون.

ثم جاء الاستعمار الغربي [illegible]

وفي ظل [illegible] الخطر الخارجي المحدق تتريًا وصليبيًا، بقاء أن تصبح هذه الديار «طُعْمة» لهم وإقطاعًا لأمرائهم وأجنادهم! [illegible] هذا التسلط المملوكي كانت «الدولة» [illegible] فتعرضت العربية لتحديات الركاكة والتراجع والجمود!

أما في ظل عجمة «الترك العثمانيين» [illegible] «تتريك العرب» كي يتحولوا إلى «أتراك»! [illegible] وكان تعليم الصغار [illegible] يتناضل من أجله الأحزاب والجمعيات، وتعقد في سبيله المؤتمرات!

ثم تصاعد التحدي للعروبة العربية في ظل الهيمنة [illegible] في محاولات «فرنسة الجزائر»، وسحق الهوية العربية لبلاد الشمال الإفريقي،

و«العروبة» فكر لأمة ... ومحاربة العروبة تمثل تشريع كل شيء بالحرف اللاتيني مرة، واستبدال الحضارة بها مرة ثانية ... وتحطيم سيادة الجهل بها في كل الأحياء ويهمشها في مدارس التعليم الأجنبي، التي كانت تخرج فيها صفوة الحكمين ورجال الإدارة لعهد ... التي حرمت هذه التحولات، وأشياء، التي توقفت في تاريخ شواهد على ما حدثه العروبة في بناء الأمة متطورة والقرون متعاقبة من تحديات..

لكن «العروبة» رغم هذه التحديات ـ التي تمثل عوامل وتحولات قامت في أرض الواقع ـ قد ظلت صامدة شامخة مستعصية على التحرك من موقعها الحصين. فيست هي إذن «بالبناء الفوقي» الذي يصيبه التغير بتغير الظروف ... وإنما هي «جوهر ثابت»، كما هي «عام وشامل» له صفة «الاستمرار» .. إنها «هوية»، وليست مجرد «تراث»!.

* **والتدين**: هو الآخر قسمة من القسمات الجوهرية والثوابت التي تكون جزءاً من «هوية» هذه الأمة.. ونحن ـ بالطبع ـ لا نزعم أن أمتنا هي وحدها المتدينة من بين الأمم الأخرى ... لكننا نقول إن هذا يميز أمتنا ـ كهوية لها في تدين أخرى ...

أولهما: عمق التدين في صدور أبنائها وقلوبهم، ليس في جنسه الإسلامي وحده، وإنما هو عبر تاريخ الشرق الطويل ... فوق أمتنا تاريخيًا هو مهد الديانات ومهبط الرسالات ... ولقد عرفت هذه الأمة «روح التدين» ولم تقف فقط عند «طقوسه» ومظاهره ... فالتدين ليس هامشيًا يستكمل به الإنسان مظاهر وجوده، وإنما هو روح قائم وجوهر في كل صغيرة وكبيرة من حياة الإنسان هذه الأمة، في خصائص أخرى قد وقفت بالعبادة الدينية عند طقوس وشعائر يؤديها الإنسان في أيام معلومة وأماكن محددة ... بينما نرى ـ في الإسلام ـ أن كل صنيع جديد يأتيه الإنسان، في كل لحظة من لحظات حياته، وفي أي ميدان من ميادين هو عبادة لله، وبذلك تخلص التدين لله سبحانه وتعالى ... فقد حدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن المهمة العظمى والوحيدة خلقه هي أن يعبدوه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات ٥٦] وعلى هذا المنظور الواسع ـ الذي لا نقص فيه ولا كمال معه ـ أن مهمة الوجود الإنساني هي موضع شعائر التعبدية التي حددت لها الشريعة من صلاة وصيام وحج وتسبيح

به كل خصائص حضارته الإنسانية، لأن نبي الإسلام ﷺ يعتبر أن هذا الدين ليس تديناً، وإنما هو تعبد اسمه في الإسلام. فقد نهى عن هذا التعبد أو ذلك التدين إذا ما تصادم مع سير الحياة وتقدم العمران دائماً. وبذلك أمته على أن تسير، وتدعوها إلى أن تتوخى فيه الرفق؛ لأن التعبد تتطلّع، وليس لأرضٍ قطع ولا طهرٌ أنقى!

إن التعبد الذي هي لرسالته وجسده وتعمل لتقريب الإنسان المسلم - هي كل عمل حر يأتيه الإنسان في هذه الحياة، بدءاً من عمارة الكون وتسخير الأرض وسياسة الدولة وإصلاح المجتمع، إلى جميع الأنشطة المشروعة التي أحلها الله. فكل فروض العين الدينية والكفائية - لا تخلو عن التسخير والتعمير والتزكية والإصلاح - هو بعض من تعبده الله. وبهذا المعنى - وفي هذه الصورة - نجد أن التدين في حضارته عمّ، شمولاً لا نجد نظيره في غيره من الحضارات.

وإذا كانت حضارته تعريفه في جانبها النظري - هي في صميمها الأولي دينية تتصوف المسلم والإسلام المتصوف - حيثما إلى محور فلسفة حياته من روحانيته، وتصوف فكره في هذه الروحانية، في ضوء هذه الحضارة التي تعرف بتعاليمها الذي تمد جذورها البعيدة وحتى عصرها الحديث، إذا كان هذا هو جانب حضارته تعريفه مع «جوهر التدين»، فليس هذا هو جانب حضارته المتدينة بالطبع وبفطرته مع ما شهدت به شرائع الأديان.

لقد تحدث ابن خلدون التدين لأفعى (١٣٢٥ - ١٤٠٦م / ٧٣٢ - ٨٠٨هـ) عن أن التدين في حضارته قد نتج عن «الطبع والجبلّة» التي تستعصي على روح الإنسان على الانسلاخ حتى عند الذين يتوهمون أنهم قد انسلخوا بالزندقة والمروق من الدين والإلحاد فيه وتحلل من تكاليف التي حدتها شريعة الإسلام. وإذا كان أمثال هؤلاء - في حضارته تعريفه - يفاخرون بالزندقة ويعلنون عن المروق ويبشرون بالإلحاد ويتهربون بالتحلل من تكاليف الشريعة، فإن أمثالهم عندنا وهم من الندرة بمكان يدركون أن حسرهم بالإلحاد هو دعوة لا تسيء لأحد سوى أصحابها عند عامة الناس!..

[illegible]

على حد قول جمال الدين الأفغاني..

[illegible] إن النصرانية [illegible] روما، ثم تنتصر روما، ولكن النصرانية هي التي ترومّت!

[illegible]

التي جعلت من كل مناحي النشاط الإنساني السوية عبادة وتدينا، عندما [illegible]

[illegible]

ثانيهما: عموم [illegible]

[illegible] وخاصة في الحضارة الغربية ـ قد [illegible] «الفرد»، واقتصر على علاقة [illegible] أما في حضارتنا العربية الإسلامية فقد [illegible] عموم [illegible] فهو الروح [illegible] في كل [illegible]

[illegible]

[illegible] (٤٥٠ - ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ - [illegible]) [illegible]
[illegible] فقد [illegible]
الدين، بل وجعلت صلاح الدنيا الشرط والأساس لصلاح [illegible]
[illegible]: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية.. وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل؟! وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟ فإذن، إن نظام الدنيا ـ أعني مقادير الحاجة ـ شرط لنظام الدين»[1]

[illegible] (٥٨٠ - ٦٥[illegible]هـ / [illegible] - ١٢٥٣م) [illegible]
[illegible]
[illegible]
الفقه الإسلامي![2]

وابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤م) في كتابه «[illegible]
طوق الحمامة في الألفة والألاف» [illegible]
نستعين.. أفضل ما ابتدئ به حمد الله عز وجل بما هو أهله، ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله خاصة، وعلى جميع أنبيائه عامة..» وفي ختام كتابه هذا عن [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible].. فكأنه فيلسوف إلهي يصنف في فن الإلهيات![3]

فحضارتنا العربية الإسلامية ليست الحضارة الغربية التي تدرس ظواهر النفس الإنسانية مقطوعة الصلة بخالق هذه النفس ـ سبحانه وتعالى ـ.. والتي تدرس ظواهر الطبيعة كجزء أو أجزاء من عالم بلا خالق، فتكون بذلك لدى العلماء والباحثين

(١) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص١٣٥.
(٢) ص٣٧ تحقيق د. محمد يوسف موسى، د. محمد [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.
(٣) (رسائل ابن حزم الأندلسي) ج١ ص٣١٠ تحقيق د. إحسان عباس، طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م.

والقرء عقولاً متحدة، حتى ولو لم تطرح قضية لإحداث النقاش! لأن حضارة المؤمنة تدرس كل الظواهر الاجتماعية والنفسية والطبيعية باعتبارها ميادين فى عالم من خلق سواه ويرعاه، فلا تقف عند الأسباب المادية المؤثرة، وإنما تشير إلى مسبب الأسباب وخالق هذه الأسباب الذى أودعها ما لها من فعل وتأثير. ثم إنها تنظر إلى هذه المباحث باعتبارها واجبات شرعية للكشف عن الأسرار التى أودعها الخالق فى هذا الوجود، وحمّل الإنسان أمانة إعطاء بعض هذه الأسرار. ولذلك، فإن علوم هذه الحضارة لا تسهم فقط فى تنمية الروح الإيمانية لدى علمائها، وإنما هى قد ربطت وتربط بين هذه العلوم - كوسائل - وبين الحكم والغايات والمقاصد التى وضعها الخالق للإنسان كخليفة له، عليه أن يتحقق بأخلاق الله فى الوجود! فعلى حين صنعت حضارة الغرب أن الانتصارات العلمية هى «تحرير» للعقل الإنسانى من الإيمان بالدين، أكدت حضارتنا أن المباحث العلمية - حتى الكونية منها - هى تكليف، بل هى، تزيد العقل العلمى إيمانًا بخالق هذا الوجود الذى يبحث عن الأسرار التى أودعها الخالق فيه!..

فعلماء الحضارة الوضعية المادية التى عرفت منهج البحث العلمى فيها بدين عن الدنيا، إذ «يعتبرون ظاهر من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» [الروم ٧] أما علماء الحضارة المؤمنة فإن علمهم بأسرار الكون عبادة تزيدهم خشية لله، ومثوبة فى الدار الآخرة «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور» [فاطر ٢٧ : ٢٨]

ومن ثم صنعت حضارتنا من العلم «علمانية» و«شريعة» وسلمت بأن العلم هو أعظم هذه المقاصد، ولهذا فقد أسهم علماء المسلمين فى بعض العلوم الدينية، وأسهم علماء الدين فى بعض العلوم «العلمانية» حتى صار «العلم» بشتى أنواعه مقدسة الدين وثقافته - كما كان الحال فى الكهنوتية الكنسية المتحالفة فى العصور الوسطى المظلمة

وقد كان حضارة معرفة قد عرفت «سياسة» عن «الأخلاق» و«القيم» عندما جعلت من «الملكية» مذهبها بدلاً في مقابل «سياسة» فجمعت و جمعت على أن «القوة» هي «القيمة» في عالم «السياسة»، وعلى أن لغة «القوة» وصفت بسياسة ذلك التعريف الذي يتوهم به «في ممكن من» في حضارة العربية الإسلامية قد ربطت «سياسة» «القيم» و«الأخلاق» وجعلت «القيم» هي القيمة الكبرى في عالم سياسة، و«مقصد الأعظم من مقاصد شريعة» وهو عصمة وبيع دلالاته ذات المعرفي الذي صكته حضارتنا «سياسة». «سياسة الأمة» هي عقل بعقدي ٤٣١ ٣ ٥م ١٤١ ٩ ١١ه «سياسة» عرفها فقال: «السياسة هي كون من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وبعد عن الفساد.»[1]

فهي ربط مقصود بين العقل والحكمة، بين الوسائل والغايات، بين السياسة والقيم والأخلاق.

* * *

وهذه «روح» السياسة في حضارتنا العربية الإسلامية كانت ولا تزال محور الصراع بين حضارتنا وبين الحضارات الأخرى التي تعادي وتحارب حضارتنا حتى اليوم. ذلك إن هذا «التوحيد» قد غدا «هوية» تتميّز به أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات. وهي قد نجحت في تصوراتها به لذروة في سنة، والقمة في التوحيد. فكان تحريرٌ بعقل وبروح من العبودية للطواغيت.

فهو ـ إذن ـ التدين، والتدين بروح التوحيد وعقيدته.. قد بلغ ويبلغ في حضارتنا العربية الإسلامية مبلغ «الهوية» و«القسمة الثابتة» والسمة الشامخة، و«الخصيصة التي عدت معلّمًا من معالم التي تتميّز به حضارتنا عن غيرها من الحضارات.

* والوسطية التي جعلت حضارتنا أمة وسطًا ـ أفضل «العدول» بكل صوره، وفي كل ميادين. هذه الوسطية الإسلامية في عدد هي الأخرى «هوية» تتميّز بها عبر تاريخها الحضاري الطويل. فهذه الأمة قد أراد لها الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون وسطًا،

---

[1] ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٤ ص ٣٧٢، و«السياسة الشرعية» ص ١٧ ـ ١٩.

تقف موقف الشاهد العدل [illegible] بين طرفي الظلم والحق بين طرفي [illegible] طرفي الغلو .. إلخ .. إلخ .. ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [illegible] (١٤٣)

[illegible] لا يعني [illegible] «الإسلامية» [illegible] في [illegible] «الهوية» قد غابت [illegible] «الهوية» [illegible] الإسلامية. والخصيصة الأم [illegible] ذات اليمين وذات الشمال!..

* * *

[illegible] العربية الإسلامية، وحولها، ومن بعدها.. وشهدت الإنسانية [illegible] تأثيراتها العالمية سلماً واختياراً.

[illegible] تطورات واقعنا وفكرنا قد أصابت مصطلح «الوسطية» [illegible]

وسط بين «البخل» و«الإسراف» ... بخ ... فالوسط معيار لكلا القصين، بتوسط

... لكل قصد من «الوسطية» خصوصية تعطي لخصائص الأمة

فهي ليست الموقف الوسط بين أمرين - على هذا النحو، وبهذا المعنى - وهي هي «الموقف الثابت» الذي يرفض تعرف الانحياز لأي من القطبين المتناقضين والمتنافسين، دون أن يكتفي بالوقوف في نقطة ثابتة تتوسطهما، وهي تجمع ويؤلف ما يمكن جمعه وتأليفه من سماتهما وقسماتهما - «الكرم» غير «البخل» وغير «الإسراف» - لكنه موقف ثابت، لا يتوسطهما، وهي هو جامع لسمات وقسمات من كل من «البخل» و«الإسراف» - فيه من «الحرص» ومن «البذل» ما يجعله جامعًا ومؤلفًا لما يمكن جمعه وتأليفه من القطبين المتناقضين، مع المغايرة بهما، والتميّز عنهما - وفي هذا الموقف الثابت المتوسط، الموقف والقسمات الحضارية التي تكوّنت ملامح خصائصها في هذه الأمة هي هذه الوسط.

... هذه الأمة بهذه الخصوصية التي يتطبع كل من ينتمي إليها بطابعها ... وكذلك خصائص هذه الأمة وسطًا ... فإن نجاح المسلمين في الحفاظ على هذه الخصوصية في تاريخهم الحضاري، هو الذي مثل سر تقدمهم، بل عصر ازدهار حضارتهم. كما أن اختلال التوازن - ومن ثم افتقادهم هذه الوسطية - هو الذي أفقدهم ميراثهم، فدخلوا دروب الجمود والتراجع والتخلف الذي ساد حياتهم لعدة قرون ... ومن هنا تبرز العلاقة العضوية بين «الهوية الحضارية» وبين «اليقظة المنشودة للأمة» ... في المشروع الحضاري الكفيل لليقظة الأمة ونهضتها لا بد وأن تكون الهوية الحضارية للأمة هي الصفة التي يصطبغ بها هذا المشروع، وذلك حتى تكون اليقظة حقيقية والنهضة مواصلة لروح الخلق والإبداع العربية الإسلامية، وليست قيودًا تشد الأمة إلى نمط من «التحديث» ناقص في هويته لشخصيتنا القومية والنمط الحضاري الذي تميّزت به أمتنا عبر تاريخها الحضاري الطويل - عن غيرها من أمم الحضارات الأخرى

... مع تحفظي «الذي أصبح جزءًا من ... التي أشرت إليها» المقولة عندنا مضمونًا أعمق مما لها عند الكثيرين! ... فهي تعني أن ... خصائص

سنشرح هنا تميّز [illegible] بعض خصائصه الأساسية و[illegible] حضارية التي تميزت بها [illegible] وثقافته [illegible] قوى تجارب سبقت»، و[illegible] بينهم وبين [illegible] درجة، و[illegible] و[illegible] حضارية، التي مثلت وتمثل هوية التي [illegible] وحضارتها عن غيرها من الأمم وحضارات [illegible] التي نرى [illegible] أولى «الخصيصة الجامعة»، خصيصة «وسطية الإسلام» فهذه وسطية هي التي ميزت حضارتنا عن كثير من حضارات الأخرى بالتوازن والموازنة بين [illegible] في [illegible] فكرية أخرى مناقضة لأسس التي تعيشها، فصلاً عن [illegible] جمع بين [illegible] وتناقض بين [illegible] وقسمتها [illegible] التي حضارة تعريفية الإسلامية تحدث [illegible] هذه الوسطية في تعامل [illegible] وتجلياتها التي كونت جوهر [illegible] وعاشت سر تفوق المسلمين وتقدمهم، وذلك من مثل

(أ) تميّز الإسلام - وهو «دين» - بـ«العقلانية»: «العقل» الذي - وهو قرينه المحرم - لم يبدهش العقول فبدهشها كما كان الحال مع المحرمات الدينية من سبقت الإسلام - بل إن جاء القرآن الكريم يحتكم إلى العقول، جاعلاً منها مناط التكليف الشرعي. ويعبارة الإمام محمد عبده «فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فما أقامت عليه على سبيل الحجة وفصلت به القول، ومن فصلت في حكمه فلا مدخل لأي سلطة، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يحجر أو يشرع عليه؟!»[1].

وهو ما جاء في سياق «الحكمة» و«الشريعة»، جاعلاً من صريح المعقول، وصحيح المنقول، ومن «الكتاب» الجامع «المقول» و«الكتاب المكون المقول» سلاحاً لمن حاجه، بل ومكنه، وهيأ خلق واحد، ويسره جميعاً لهذه الإنسان ورشده، وهذا من أعظم [illegible] حتى تحقق [illegible] به بين [illegible] التي سبقته [illegible] الدين» وتميزه الأساسي في [illegible] بكر لإحدى أسس «قيمة» أن وخصائص «نظم الكلام الإسلامي» التي «الوحي» الإلهي، الأساسي [illegible] كما حدث في حضارات أخرى..

---

(١) «الأعمال الكاملة» ج٣ ص ٣٠١

وهكذا تميزت حضارتنا بالعقلانية المستمرة عقلانية مؤسسة، جامعة بين "العقل" و"النقل"، ووسط متميز عن "النصوصية الحرفية" المنكرة للعقل وعن "العقلانية الوضعية" المنكرة للوحي المسموع!.

(ب) وتميز الإسلام: ـ وهو الدين العالمي الذي جاء رحمة للعالمين، وعقيدة لا تحصر نفسها في قومية أو جنس أو شعوب أو لغات أو أجناس، تميز مع عالميته بتعدد داخلي يوفق بين قومي مسموح للإسلام أن يتسربل به ودخيل فيه إنه لا يتجاهل الواقع القومي، ولا يقفز عليه، فمن آيات الله في البشر اختلاف الألسنة والألوان ومع ذلك فهو يبكر أن تتحول التعبيرات القومية إلى سدود تصد العقيدة والإخاء الإسلامي والإنساني عن التأليف بين القوميات فهو بالوسطية الجامعة يعطي هذا التمايز القومي المضمون الحضاري الذي يؤلف بين التعددية القومية وبين وحدة الإسلام بأن يعطي كل قومية أن تخترع من الإسلام وحضارته "خصائص" وسع يحتضن كل "القوميات" دون تناقض أو تضاد.. فالعروبة حضارية الإسلامية ـ مثلا ـ دائرة ثقافة حضارية، تسبقها الدائرة الوطنية، وتليها جامعة الإسلام. فمضمون "العروبة" الإسلامية هو ثقافة إسلامية، متميزة عن مضمون "العروبة" الجاهلية وهي في موقفها مفتوح.. وهي ليست فلسفة ولا "أيديولوجية" حتى تكون هناك إمكانية تشبه لتناقضها الفكري مع الإسلام

وهكذا تميزت حضارتنا بهذه الوسطية الجامعة بسر هذا الانتماء، التي عدلت درجات في سلم الانتماء إلى الإسلام

(ج) وبالوسطية الإسلامية لم يقف فكر حضارتنا ـ إبان ازدهارها ـ عند "النظر والنظري"، وإنما راوح ـ في توازن بين هذا "النظر" وبين "الممارسة والتطبيق"، فقام بعلوم تتعلق بالعقل تحكم ضوابط النظر، وأخرى لا تقف عند حدود العقل بل تتجاوزه إلى علوم الوحي وتشرع وحدة بين هذه وتلك في عدم تكوين قطيعة بين علوم عند "القياس" الأرسطي، والمنطق الشكلي ـ الصوري وتقف عند حدود الملاحظة والتجريب والاستقراء ـ فأبدعوا "منهج التجريبي" الذي أصبح في الأصول كما أعلن في صدر "المنار" "المنهج العلمي" عند علماء الإسلام ـ منذ في

[illegible]

ولهذه الحكمة: فلقد تميزت حضارتنا بما يحسنه نفر من المتغربين [illegible]

[illegible] في فن التأليف والتصنيف!

(د) وبالوسطية الإسلامية [illegible]

لقد زعمت تحسد الله فيه!.. كما أنه ليس «الحقير.. المحتر.. الفاني.. الملاشي» في [illegible]

فمكان الإنسان في الكون كما حدده الإسلام: «أنه سيد في هذا الكون سيد فيه، لا سيده - لأنه - مع تفضيله حتى على الملائكة المقربين، وتسخير الطبيعة وقواها وظواهرها له - يحتل في هذا الكون مكان الخليفة والوكيل والنائب.. لا مكان السيد الحقيقي للكون.. فهو سيد في نطاق الخلافة والنيابة والوكالة، سُخرت له [illegible]

[illegible] هذه الوسطية عن غيرها من الحضارات..

(هـ) وتميزت الوسطية الإسلامية [illegible]

[illegible]

[illegible] الأفراد والأسرة، فقروض «العين - الفردية» تتزامن مع قروض «الكفاية [illegible]

[illegible]

الحضارات..

(و) وتميزت الوسطية الإسلامية [illegible] بين «الروح» [illegible]

[illegible]

لقد جمعت هذه الوسطية الإسلامية وألفت بين العالمين - [illegible]

[illegible]

مادي» شرط تحقيق «الأمن و حضور روحي» وفيهما جمع بعبادة التي تشكره عليها بالعبادات ﴿فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف(٤)﴾ [قريش ٣، ٤]

(ر) ووريث حضارتنا الوسطية الجامعة بين «حق الحكم» و«حق المحكومين»، فكان حكامها «عدولا» عند محكوميها و«خيرا» عليهم وهم ليوث على أعدائهم حين يسمع و يطاع فيما قصدهم لأمته فيه، فهو لازم لنوع معية من تفويض، وفق شريعته وحدوده، وبمحكومين على حكامهم حق نقد، الذي هو أعظم مقاصد شريعته، و بعثه من رسالات كل رسل، و بسم من سماء الله الحسنى!..

وبهذه الوسطية التي ورثت بين سلطة «الأمة» وسلطة «الدولة»، لا تكون «الدولة» «مطلقة» تقوم على سياسة «شوية» و«جهل بقبر» كما قررت ذلك فلسفة السياسة الغربية.. ولا تكون «الدولة» كذلك «رخوة» تضيع بين متخاصمين في الاجتماع الإنساني!..

(ح) وأقامت وسطيتنا الإسلامية الجامعة، بين ورثة عبقريتين «بعض» و«كل» تحدث عنه أسلافنا فيما أورثوه من كنوز تحت عناوين من مثل «ورثة بين «علم» و«سيف» أو «مكتب» و«لسنن» وبهذا الميراث صارت أمتنا تضارب قديما بين «العقل والفكر» و«حضارة» عليها أن تحمي حمى، وبين حق «نزعي» حضاري عندما يُطلب منها أن «تطيع»!..

وبهذا الخيط بين حضارتي تقسم هذا الميراث بين «أخوة» و«قوة» فتتصدى «أمة» بأمراضها «في بيت الحضارة»، و«تحترف» ترفيه و«تقعد» بعرب مسلم عن مهامها لنهوض بأمانة تضاربه دون الحق عندئذ حتى «الدولة» في «بيت الحضارة» فيما تتصدى مؤسسة عسكرية مملوكة حين تتوارث بين «أخوة» و«قوة» كأشياء مكون حين، فتحولت مؤسسة عسكرية من أداة بيد خلافة في «قوة مصدقة» لنعت «الحق»، بيد الأمر أن تتوارث وليدة فكان ترجمة حضارية عند ذلك تاريخ نموذج مكونة الوسطية الجامعة في صنعة سلم، و مكونة حين وعلة «ثورات» و«وسطية» في التراجع والهبوط!

(ط) وجمعت وسطيتنا وورثت بين «الدين» و«الدولة»، عندما وضعت الشريعة الإسلامية لأنبيه الله عند مقاصد ومبادئ وقواعد وتشريعات وحدود ثوابت فيما يتعلق بشئون الدولة وسياسة المجتمع وسلمة الحكم وتداول السلطة. لأن هذا جزء من هذه الشريعة - في أحكامها السياسية - وخاصة فيما يتعلق بالحاكم، هو أشبه ما يكون بالروح الحضاري والإطار الحاكم والمنظم للشريعة - ولأمة - بل هذا الإطار، وهو جزء شرعي - هي مقصد من مقاصد الشريعة، تتمتع في شئون «الدولة» بإطاعة مجردة دائمة ومستمرة، ومحكومة دائمًا وأبدًا بروح الشريعة لأنها ومقاصدها. فتظل أبواب الإبداع والتجديد والاجتهاد مفتوحة، بل واجبات مستحبات، عبر الزمان والمكان، وفي هذه المستحبات سلامة على مر العصور!

وبهذا تكون الحضارة - في هذا المقام - من «الكينونة» و«السيطرة والهيمنة» - بالمعنى الذي عرفنا مسيرة الحضارة الغربية، عندما جعلت «الدولة» دائمًا في صراع، وتصطدم فيها قيم الدين وثوابته، فكان نقيض حداثتها وكل معايير الحياة.

وبهذا تكون قد تخلصت من قميص «الكينونة»، وهو «العلمانية» التي تعني تسخير الأرض، وكل تدبيراته للاجتماع والعمران، وتجعل العلم مكتسبًا بشريًا، والإنسان مستغنيًا - بالعقل والتجربة - عن شريعة الله!

فتصبح الحضارة في الموازنة بين «الدين» و«الدولة» هو الذي يميز الحضارة بكونها «دولة» فيها «المدنية» و«الإسلامية» في الوقت ذاته. لأنها تبدع مدنية وتصنع بشرية، تحقق مقاصد الشريعة لأنها في السياسة والاجتماع والاقتصاد وتصنع علاقة المدنية بين الناس!

تلك هي وسطية الإسلام. فصبغة الحضارة جامعة. و«الروح» هي طابع الحضارة وميزتها. و«الرؤية» تكمل السمات التي تميز الحضارة عن غيرها من الحضارات..

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ [البقرة ١٤٣]

[illegible] «الوسط العدل، جعلناكم أمة وسطا»[1]!

[illegible] الحضارات..

[illegible] هانتنجتون» في «صراع الحضارات»!..

[illegible] حسين أنه «إلزام» لا علاقة له «بالاختيار.. والالتزام»!.

[illegible]

* * *

بقي أن نقول: إن هذه التعددية في الحضارات الإنسانية - التي يؤسسها الإسلام على سنة التعددية في الشرائع والمناهج بين الأمم - لا تعني «قطيعة التضاد»، كما أنها لا تعني [illegible] تعددت وتغايرت هويات القائمين بها.

في هذه المقولة نكرر ما اشترك بشأنه عام يمثل رصيداً للعلوم الحديثة في مختلف الحضارات الإنسانية، عبر الزمان والمكان..

وفي هذا الإطار كان من المتاح للباحثين على هذا الميدان وعلى ترتيب الأولوية للدراسة وتدوين الدواوين بروادها وعلومها ومصنفيها عند الأعريق ثم تصوير هذه العلوم وتحديثها، والإضافة إليها

وفي هذا الإطار أيضاً كان من المتاح لحضارة عربية - إسلامية خصائصها الحديثة على حضارات الإسلامية، وأحدث هذا الرصيد من المشترك الإنساني العام، وتطويره والبناء عليه والإضافة إليه..

وهذا أيضاً يأتي بشأن المعاصر على الحضارة الغربية في هذا الميدان

أما السمات الثانية التي يقوم عليها "تميز" العلوم والخصوص في العلاقة بين الحضارات الإنسانية المتعددة فهي من الخصوصيات الحضارية في الهويات والثقافات والعقائد والمعتقدات وهي التي تحدث عنها المتحدثون بدقة عندما قالوا إن الحضارة هي كل ثقافي والحضارات تتمايز عن بعضها بعضاً بالجغرافيا والتاريخ والثقافة والمعتقدات، وأهم من ذلك كله، وأساء الحضارات مختلفة لديهم رؤيته مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والجماعة، والرجل والمرأة، والأسرة، والروح والمادة، وكذلك رؤيتها عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات، والحرية والسلطة، والسيادة والتنظيم الهرمي وهي أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوجيات السياسية والنظم السياسية

ومن هذه الخصوصيات الحضارية هي العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون والمعتقدات والمعارف، تلك التي تتغير الأسس الفكرية فيها بتغير موضوعها - وهو النفس الإنسانية تلك التي ليس لها ثبات المادة - موضوع العلوم المحايدة - وقد تتغير وفق الموروث والمعتقد والمعتقدات والثقافات والقيم والسلوك إلخ.. إلخ..

وقد كانت التجارب المادية تتكرر على المادة فتثمر الحقيقة ذاتها وتكون نفسها رغم التكرار - ورغم تغير هويات القائمين بهذه التجارب - ثابتة وحيدة المادة

موضوع التجارب فإن التجربة الفنية أو الشعرية أو العلمية أو الروحية وكذلك الاجتهادات في العلوم الإنسانية والاجتماعية - يستحيل تمثل فيها عند تكرارها حتى لدى الإنسان الواحد؛ لأن موضوعاتها - النفس الإنسانية - ليس لها ثبات «المادة» الصماء ولا حيادها!..

فعلى صاق «العموم» الذي يمثل نطاق المشترك الإنساني العام في الفكر الإنساني وعلى صاق «الخصوص» الذي يمثل التعددية في الهويات الثقافية والحضارية، يقوم «التمايز» الممثل برؤية الإسلام لمعيار «التعارف» بين الحضارات الإنسانية المتعددة.

فهو أيضًا - موقف وسطي جامع بين «العموم» و«الخصوص» ورافض لكلا الإفراط الذي يتوهم التضاد والقطيعة والعزلة بين الحضارات - وكلا التفريط الذي يدعو إلى التقليد والتشبه والتبعية والذوبان في الحضارة المهيمنة، بدعوى وحدية الحضارة لكل العالمين!.

وإذا نحن شئنا أمثلة تطبيقية على وجود «تعددية التمايز» بين الحضارات، كموقف وسطي بين دعاة «التمايز - التضاد» بين الحضارات، وبين دعاة «التماثل - الوحدة» الذين يسمونها الحضارة «العالمية» و«الإنسانية» الواحدة - فإننا واجدون، مثلاً:

١ - الاشتراك في «الإيمان بالخالق» - والخصوصية في «طاق تدبيره» - فمن حيث الاشتراك في الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى وحدانيته وربوبيته وألوهيته - نجد أن جميع الحضارات في الإطار العام لهذا الوجود.. فهذا الإيمان فطرة فطر الله الناس عليها.

ومع هذا الاشتراك، هناك خصوصيات حضارية في كل حضارة من الحضارات تتفق وتختلف في عمق وتعارض مع الإيمان الحق لهذا الوجود

(أ) فالتصور الوثني الجاهلي لم ينكر وجود الخالق لهذا الوجود ولكنه وقف في تصوره لعلاقة هذا الخالق بهذا الوجود عند حدود "الخلق" - ثم اتخذ من بعض مخلوقات هذا الوجود - زعم أنها الوسائط المقربة لتشؤون الخلق لديه، فتوجه الإنسان الجاهلي عبر هذه الوسائط بكل ما يتعلق بشؤون الحياة في هذا الوجود، ولم يتعد بعقله وتصوره هذه الحدود "الخلق" وما وراءه من تدبير في كل صغير وكبير

وسائر شئون العمران . بعد أقرهم على التصديق بالاشتراك الإيمان بـ
وتعى عليهم الإيمان بالشركاء الذين زعموا اختصاصهم ـ دون الله ـ
حيث ... ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله
فأنى يؤفكون (٦١) الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم
(٦٢) [العنكبوت ٦١ ، ٦٢] ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله
قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون (٦٣) لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني
الحميد (٦٤) [لقمان ٢٥ ، ٢٦] ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن
الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني
برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (٣٨) [الزمر
٣٨] ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩) الذي
جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (١٠) والذي نزل من السماء
ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون (١١) والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم
من الفلك والأنعام ما تركبون (١٢) لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم
عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣) وإنا إلى ربنا لمنقلبون (١٤)
[الزخرف ٩ ـ ١٤]

في هذا التصور الجاهلي للذات الإلهية اشتراك مع التصورات الأخرى في
الإيمان بوجود ... وفيه خصائص تجعله يختلف عن ... في
حين ، وشرك في ... وفيه خصائص تجعله يختلف عن الإسلام في حين آخر .

(ب) وفي التصور الأرسطي يوناني للذات الإلهية شبه من هذا التصور الوثني
الجاهلي ، فالله هو خالق العالم ... ولكنه يختلف عن الإسلام في أن علاقة
الذات الإلهية بالكون هي ... فعلاقة الخالق بالوجود علاقة منفصلة كعلاقة المهندس بالنسجة ،
وليست علاقة ... بما ... الوجود .

فهنا ـ في هذا التصور الأرسطي للذات الإلهية اشتراك مع التصورات الأخرى في

[illegible]

مخلوقات.

(ج) وشبيه بهذه التصورات نطاق عمل الذات الإلهية [illegible]

[illegible]

[illegible] المسيح - وليس الله!

(د) بل إننا نستطيع أن نسلك التصور العلماني في [illegible]

[illegible]

[illegible] «الشريعة الإلهية» وضوابط التدبير الإلهي لهذه الميادين..

[illegible] «اشتراك» «عموم» [illegible]

[illegible] الإسلامي [illegible]

[illegible] الإلهية في الوجود..

(هـ) يتميز التصور القرآني [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش [illegible] الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه [illegible] الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣) [يونس ٣] [illegible]

[illegible] لا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (٥٤) [الأعراف ٥٤] وهو باسط الرزق ومقدره [illegible] الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده [illegible] لكل شيء عليم (٦٢) [العنكبوت ٦٢] وهو [illegible] فمن ربكما يا موسى (٤٩) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠)

[طه ٤٩، ٥٠]

[illegible]

[illegible] الإشارات في [illegible] الخصوصية في التصورات [illegible] الإنسان [illegible]

[illegible] الفلسفي لمكانة الإنسان في الكون يختلف من [illegible] في كونها من صنع هذا الإنسان!..

(أ) ففي فلسفة الحضارة الهندية [illegible] Nirvana [illegible] ومعها بعض مذاهب التصوف الفلسفي، العوضية [illegible] [illegible] العرفانية [3] - «التهميش» للإنسان [illegible]

«الحق - الله»

(ب) وفي الفكر المادي [illegible] صنع الحضارة الغربية قديما وحديثا [illegible] أنه للإنسان [illegible] يجعل منه سيد الكون الذي يستطيع - بالحرية والاختيار - أن يحل الحرام [illegible] ويحرم [illegible] العمران ومنظومة القيم - كحق من حقوقه الطبيعية التي [illegible]

[illegible] الله [illegible] في العالم [illegible] الله [illegible] الدينية [illegible] في [illegible] مذهب [illegible] [illegible] [illegible]

(٣) المذهب العرفاني [illegible] من [illegible] وهو قائم على أن الخلاص سبيله المعرفة

(ح) أما الرؤية الإسلامية فكذلك لا [illegible] تكون فيها مكانة حقيقية [illegible] سخرة له، في عمارة هذه الأرض، والخليفة حر وقد [illegible] مستقيم وعدل، [illegible] في حدود [illegible] استخلاف من الله سبحانه، [illegible] الإنسان سيد في الكون، وحدته الحقيقية [illegible] بعبارة [illegible] محمد عبده (١٨٤٩ ـ ٣٢٣ هـ = ١٩٠٥م)' فيه [illegible] لإنسان ـ اعبد الله وحده، وسيد لكل شيء بعده!» .

[illegible] الإسلامية مكانة الإنسان في الكون هي [illegible] حسنة حقيقة [illegible] الإسلامية [illegible] عن [illegible] الأخرى [illegible] الرؤية الإسلامية، التي تمكن [illegible] بين «التأليه» و«التهميش»، وهي ثمرة من ثمرات التصور الإسلامي لصدق عمل و[illegible] الإلهية. . فمهما كان الله هو المدبر للحق [illegible] فإن [illegible] مدخل في براعة والرشد للإنسان، هذا [illegible] عنه وعيب الاستخلاف [illegible] الإسلامية [illegible] من [illegible] الإنسان [illegible] خالق ومدبر هذا الوجود

[illegible] الإسلامي للإنسان، [illegible] مع تصور [illegible] الأخرى [illegible] حقيقة، هي وجهة عملية واحدة، [illegible] عن غيرها من الحضارات، فهي [illegible] الإسلامية [illegible] وخصوصية [illegible] الحضارات الأخرى

[illegible] الاستخلاف هذه امتدادات وتجليات كثيرة في مجال التعمير [illegible] الإسلامية [illegible] في [illegible] الإسلامية [illegible] الشورى والأمر [illegible] في [illegible] والاستشارة والاحتكام سواء عند وجود الاستخلاف [illegible] حتى [illegible] الله سبحانه وتعالى ـ: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [illegible] ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [illegible]

وهو حكم [illegible] حكم، وحكمة [illegible] الاستخلاف [illegible] في [illegible] الاستخلاف [illegible] يحكم وفق [illegible] [illegible] أن [illegible] حكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ [المائدة: ٤٩] [illegible] وردت

جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [ص: ٢٦]

[illegible]

[illegible] بطار عقد وعهد الاستخلاف.. والدولة التي [illegible] هي دولة الخلافة عن الأمة، [illegible]

[illegible]

فهذا الموقع - موقع الخليفة - الذي أراده الله للإنسان في عمارة هذه الأرض، هو الذي يعبر عن خصوصية الرؤية الإسلامية، و[illegible] في بناء الحضارة الإسلامية هو الذي يجعل هذا الإنسان: إنسانًا.. وربانيًا في الوقت [illegible] وهو الذي يحقق معنى [illegible] وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون [illegible] [٣٠]

[illegible] فلسفة الاستخلاف، وضوابط الخلافة يجعل الإنسان الخليفة [illegible]

٣- الاشتراك في «الدين» والخصوصية في «مصدره» وفي «آفاقه»، [illegible] ودينًا»؟!..

[illegible]

[illegible]

[illegible] والإيمان بما وراء الطبيعة، ثم لما نضج أصبح وضعيًا، لا يرى علمًا [illegible]

[illegible] حقائق الكون المادي المحسوس.

[illegible] الحضارات عرفت الدين [illegible]

[illegible] ووحيًا سماويًا [illegible] وحتى [illegible]

الإيمان بالوضع الإلهي للدين، نراها قد تمايز [illegible]

[illegible]

[illegible] الإسلامية [illegible]

[illegible]

[illegible] قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من

[illegible] صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين [illegible] لا شريك

[illegible]

وهكذا تتميز الحضارة الإسلامية عندما تكون حقًا إسلامية [illegible]

[illegible]

للدين في الحياة.

٤ ـ [illegible] في «العقل» [illegible] وخصوصيته في «ماهية العقلانية» [illegible]

[illegible]

لإنسان العاقل الرشيد..

[illegible]

تمايزاً وخصوصية حضارة عن [illegible] في مقام العقل، وفي مكانته بين سبل المعرفة الأخرى، ومن ثم ماهية العقلانية.

[illegible]

وفي مدى الاقتصار عليه:

[illegible]

[illegible] بل ويُهمَّش النقل وكل سبل المعرفة الأخرى، ويكاد الوجدان والحدس [illegible]

[illegible]

«الغرور العقلاني»! [illegible] فالاحتكام إلى براهينه، مع ثمرات التجارب الحسية، هما سبيلا المعرفة المعترف بهما، وما لا تعقله العقول وتدركه الحواس لا يرتقي مرتبة حقائق المعارف والعلوم!

[illegible]

لقد تبلورت العقلانية الغربية في طورها اليوناني عندما لم [illegible] هناك «نبوة» ولا وحي يجاورها، فجاءت عقلا[illegible] بتحصيل المعارف وحقائق الأشياء [illegible]

[illegible]

[illegible] وتحكم

العقل بالنقل؛ لأنها قد جعلت النقل مع العقل، و الحواس، والوجدان، سبلاً أربعة للمعرفة، تتكامل في تحقيق الهداية للإنسان. وجعلت مصدر معرفة كتابي الوحي المقروء، والكون المنظور. وليس فقط كتاب الكون المنظور، كما هو الحال في الوضعية الغربية. فمعرفة مصدرها. ومسلكها أربع هدايات. الأمر الذي عصم العقلانية الإسلامية من الصراع الذي اكتوت بناره الحضارة الغربية. الصراع بين العقلانية وبين اللاهوت. وهو الصراع الذي جعل العقلانية الغربية الحديثة تقصّ الدين، بعد أن كانت في حقبتها اليونانية خواً من الدين! بينما صانت العقلانية الإسلامية ـ على مر تاريخها الحضاري ـ لأحد الرصينة للشريعة الدينية؛ لأنها واحدة من الهدايات، وليست بديلاً ولا نقيضاً لهدايات الدين.

بهذه العقلانية الإسلامية تميزت الحضارات الإسلامية، وهذا اشتراك سائر الحضارات في الاحتكام إلى العقل المبدع لهذه الحضارات!..

٥ ـ الاشتراك في «النسبية» والخصوصية في «مرجعيتها». [illegible] كما هو الشأن في الأنساب [illegible] مناهجها [illegible] تميزت في مرجعية هذه الأنساب وفي طبيعة العلاقة [illegible]

(أ) فهناك أهل «العرفان» [illegible] الله ـ خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ نسب واحد لا انفصام له في وحدة [illegible] على هذه الأرض بني حيث أكرمهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ

(ب) وهناك الحضارات المادية [illegible] ترجع نسبتها إلى الأسباب المادية، المدركة في المادة وقوانينها وظواهرها، وفي الإنسان، والمجتمع البشري، وهم يرون فيها "أسباباً" [illegible] لأنهم يحسبون أن وجودها [illegible] ويتصورونه على نحو ما تصوره [illegible] أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م) محركاً أول، خلق العالم ثم تركه يقوده وأسبابه المادية المتعددة وحدها، دون علاقة مستمرة من الخالق بالمخلوق، وهو ما يعني نظام عمل هذه الأسباب.

(ح) أن الموقف الإسلامي من مرجعية [illegible] لا يعني [illegible] مادة وقواها وظواهرها وفي الإنسان والاجتماع البشري، هي جميعًا محكومة أيضًا [illegible] والأوحد لها على إطلاق عملها، إذ هو سبحانه وتعالى شاء إجراء الأمور من «العادة» إلى «خارق العادة» بحكمة يريدها الله.

لقد انطلق على هذا التصور بسببية مفكرو الإسلام [illegible] حضارتنا الإسلامية. فالغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ/ ١٠٥٨-١١١١م) [illegible] لبعض بإنكار السببية، والعلاقة الضرورية بين الأسباب والمُسبَّبات، [illegible] نسلم أن النار خُلقت إذ لاقاها قطنٌ متماثلتان أحرقتهما ولم تفرق بينهما [illegible] من كل وجه. ولكن مع هذا يُجوِّز أن يُبقي شخصٌ في النار فلا يحترق، إما بتغيير صفة النار أو بتغيير صفة الشخص، فيحدث من الله تعالى أو من الملائكة صفة في النار تقصر سخونتها على جسمه بحيث لا تتعداه، وتبقى معها سخونتها وتكون على صورة النار حقيقتها، ولكن لا تتعدى سخونتها وأثرها. أو يحدث في بدن الشخص صفة ولا يخرجه عن كونه لحمًا وعظمًا فيدفع أثر النار، فإن ترى من يطفئ نفسه بالطلق (مادة سائلة عازلة) ثم يقعد في تنور موقد فيه لا يتأثر بالنار، وإذا لم يشاهد ذلك يكذب، وإنكار الخصم مستند إلى القدرة على إثبات صفة من الصفات في النار أو في بدن الشخص المانع لاحتراق كإنكار من لم يشاهد الطلق وأثره. وفي مقدورات الله تعالى عجائب وغرائب، ونحن لم نشاهد جميعها، فلا ينبغي أن نُنكر إمكانها ونُحكم باستحالتها..»(١)

فإنكار الغزالي لم يكن لسببية، ولا لعلاقة ضرورية [illegible] وإنما كان «للسببية المادية» التي تنكر - بزعم الجميع [illegible] «العادة» وذلك بخلق أسباب أخرى غير معتادة!!.

وابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ/ ١١٢٦-١١٩٨م) [illegible] «السببية المادية» [illegible] «ولا ينبغي أن يُشكّ في أن هذه الموجودات قد يفعل

(١) [illegible] ص ٦٧، ٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م

[illegible] بعضها بعضاً ومن بعض، وأنها ليست [illegible] في هذا [illegible] من [illegible] فعله شرط في فعلها، [illegible] في وجودها، فضلاً عن فعلها [illegible]

[illegible] بين الأسباب والمسببات، مع رفض «السببية المادية»، التي تنكر قد[illegible] وفعل مُسَبِّب الأسباب في إيقاف وتبديل فعل الأسباب في [illegible]

[illegible] هذا المذهب الإسلامي المعبر عن مذهب [illegible] أنكروا [illegible] [illegible]صية - وهم يسمونها «العُدَّة» - [illegible]

[illegible] وقال لي - (أي الله سبحانه وتعالى) - كل أحد له عُدَّة، إلا [illegible] وكل [illegible]

[illegible] المذهبين - هو الذي عبر عنه الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ / ٧٨٠ - ٨٦٩م)[1] [illegible]

لا ينفي وجود الأسباب الفاعلة في [illegible] - (الطبائع) - وقد يكون تصور هذا [illegible] صعباً على غير أهله - لكنه الحق الممكن التصور! والمصيب هو [illegible]

[illegible]

---

[1] [illegible] (التهافت) ص ١٢٤ [illegible]

[2] [illegible] موقف [illegible] القاهرة سنة ١٩٨٥م

رفع أعمالها رفع أعيانها، وإذا كانت الأعمال هي [illegible] على الله، فرفعت الدليل قد أبطلت المدلول عليه..»[1].

[illegible]

مذاهب متمايزة في مرجعية الأسباب، وفي طبيعة العلاقة [illegible] الأسباب والمسببات

[illegible]

الخالق سبحانه وتعالى - وحده.

وكانت المادية، التي تقف بالنسبة عند الأسباب المادية وحدها..

وكانت الوسطية الإسلامية الجامعة في النسبية - بين الأسباب المودعة في المخلوقات، وبين فعل الخالق للأسباب والمسببات [illegible] ثانياً عاماً، وكانت [illegible]

وإذا كان رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) قد مثل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] - هو وتلاميذه العلوم [illegible]

[illegible]

[illegible] (فرنج - (عنده) - من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية [illegible] العلوم الحكمية [illegible] علوم التمدن المدني [illegible] لكنها مع ذلك مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات [illegible] ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية [illegible] وليس لأهلها من دين النصرانية سوى الاسم [illegible] وهم من الفرق المحسنة والمفتحة بالعقل وحده [illegible] أو من الإباحيين الذين يقولون [illegible] كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهم لا يصدقون بشيء مما في كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية..»

(١) (كتاب الحيوان) ج٢ ص ١٣٤، ١٣٥ تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون طبعة القاهرة

[illegible]

[illegible] إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعتَدُّ به إلا إذا أقره الشارع، والتكاليف الشرعية والسياسية - التي عليها مدار نظام العالم - مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات؛ لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي لا يعلم حكمتها إلا المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يُحَسُّه العقل أو يُقَبِّحُهُ إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه. ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكَّموا عقولهم بما كسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسيناً وتقبيحاً، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود! فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة.

[illegible] وإن تمايزت فلسفات تطبيقات هذه العلوم تبعاً لضبط التطبيقات بالضوابط الأخلاقية أو تحررها من هذه الضوابط.

[illegible] هذه الحضارات..

فنحن - مرة أخرى - أمام تعددية حضارية، وتنوع حضاري، في إطار النزوع الإنساني إلى التحضر، وهو الجامع المشترك بين الإنسان.

[illegible] «عزلة [illegible] وقطيعة [illegible] والعلاق» [illegible] «الاكتفاء الذاتي» [illegible]

[illegible]

(١) [illegible] ج٢ ص١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٣، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧ [illegible] عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

وإذا جاء المتغرب يريد [illegible] من غربي [illegible]

الإسلامية، ويدعو إلى نسخ خصوصياتنا الشرقية العربية الإسلامية [illegible] مثل سلامة موسى (١٣٠٥-١٣٧٧هـ/ ١٨٨٨-١٩٥٨م) ليقول: [illegible] سخافة. والرابطة الشرقية وقاحة [illegible]

[illegible]

[illegible]

الحضارة هي كيان ثقافي. والحضارات تتميز عن بعضها البعض باللغة والتاريخ والثقافة والعادات، وأهم من ذلك الدين، وأبناء الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والجماعة، والمواطن والدولة، والآباء والأبناء، والزوج والزوجة، وكذلك آراء متباينة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات، والحرية والسلطة، والمساواة والتنظيم الهرمي. وهذه الاختلافات هي نتاج قرون، وهي أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوجيات السياسية والنظم السياسية [illegible].

فهذا التحليل الغربي [illegible] الحضارات هو من أعمق وأدق الردود على المتغربين [illegible] الاستلحاق والالتحاق بالنموذج الحضاري الغربي، بدعوى وحدة الحضارة [illegible]

[illegible]

إن علينا يجب أن يكون «المدى الحضاري» للتفاعل حميمًا، من موقف وموقع الرشد المستقل، الذي يصافح الغير دون أن يتنازل عن «البصمة» التي تميّزه، وهويته التي تمثل الجوهر والروح الحضارية الحافظة لتميّزه عن الآخرين عبر الزمان والمكان.

* * *

[illegible] ج٢، ١٨٦، ١٨٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م

التعَدُّديَّة بين
«نعمة الوحدة» و«نقمة التفتيت»

لا نعني إذا قلنا إن «التعددية» هي ثمرة إسلامية ارتبطت برسالة الإسلام وتجسدت في حضارته، لأن التعددية هي معيار إيمان الإنسان، عندما يقبل الآخر فيتعايش معه، وعندما ينصح فينصر - إلى جانب عوامل وسمات الاختلاف - عوامل وسمات الوحدة والاتفاق، وعندما يبلغ به النصح الحد الذي يرى فيه ضرورة الاختلاف - كالاتفاق - لأن التنوع والتعدد زينة للحياة وغناء للأحياء، فهو - كالاتفاق - فطرة إنسانية، وضرورة من ضرورات الحياة!

ولأن هذا التطور من فكر البشر هو طور النضوج، ولأن الإسلام قد ختم رسالات السماء إلى الإنسان عندما بلغت الإنسانية سن الرشد فلقد ارتبطت التعددية بشريعة الإسلام وأمته وحضارته.

فقبل الإسلام - وحتى في بلاد كمصر، استهرت بالتسامح والانفتاح الحضاري والتعايش مع الآخرين والتأثر بهم - وجدنا الديانة التوحيدية لـ «إخناتون» (١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق. م) تدمر معابد «آمون»، وتضطهد كهنتها وتطارد أتباعها في كل مكان، فلما انتصرت «الآمونية» على «الإخناتونية» بادلتها اضطهاداً باضطهاد، حتى اجتثتها وطوت صفحتها من الوجود.

وعندما دخلت النصرانية إلى مصر، شن أقباطها النصارى حملة إبادة ضد ديانتها القديمة، فهدموا معابدها، ودمروا هياكلها، وأحرقوا مكتباتها، وسجنوا كهنتها وفلاسفتها!.

وكذلك ضعف مصر الدولة الرومانية بوثنية المصري لأقباط المصريين لم تقد سمر لاضطهادهم حتى بعد تبني الدولة الرومانية المسيحية، ذلك أن خلاف المذهب داخل المسيحية كان مصدر اضطهاد وشدة من الكاثوليك المنتصرين ضد المصريين حتى ليؤرخ المصري حتى اليوم بعصر شهدائهم، ليس استشهاد على يد المصري مشهد مجرد الاختلاف في المذهب! فهو يقع بين المذهب حتى داخل الدين الواحد!.

ثم عندما تصالح المصريون المصريون بعد الاضطهاد مع بعضهم البعض، فاضطهدت الأرثوذكسية التي شكل أثناسيوس (٢٩٥ ـ ٣٧٣م) مذهبها اضطهدت «الأريوسية» الموحدة نسبة إلى «أريوس Arius (٢٨٠ ـ ٣٣٦م)» ـ وصودرت أملاكها، حتى أزالتها من الوجود!..

فكان تاريخ الدين والتدين حالة من سماحة النوع ورحمة الصراع التعددية، حتى انتصرت في مصر الديانات الإسلام، وأعلن عمرو بن العاص (٥٠ و ٥٣ هـ ـ ٦٤٣ ـ ٦٧٤م) الأمان الديني الكامل للمسيحيين، وأقر المضطهدين من قبل مصر، فعادوا وبنوا في الصحاري وعمروا، ورد إليهم الإسلام حق في حريته الاختيار بين مذاهبهم، بل ورد إليهم كنائسهم المغتصبة، فكان الإسلام أول دين يؤسس ويحرر دور العبادة للمختلفين. وكان قرآنه أول كتاب ديني لا يتحدث عن حق مسجد وحده في نصح بتسميه وقت تاريخ في تهيئة دور عبادة بنى وشرع ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾ [الحج: ٤٠]

هذا عن مصر، التي تصرف المثل الشعبي في تسامح الديني والتعايش بين المختلفين.

وفي الغرب الروماني، والولايات الشرقية الرومانية، كان «الاستعراد»، ورقص التعددية منهجا متبعا. فالوثنية الرومانية اضطهدت المسيحي، وتبنى بعضهم أحيانا الأسود اضطهاد! وعندما تبنى الرومان المسيحية اضطهدت نفسها مع الوثنيين! بل ومع المسيحي الذين اختلفوا معهم في المذهب! وفي كل عهودهم ـ

وشنه ... وتصريته قرسو الاضطهاد مع يهود، بادة وبحرًا، وهدمًا بعد ذ
وتحويل أماكنها إلى مجمعات للنفايات والقذورات!..

وبعد استعراض هذه الأكاذيب والتشهير في ربوع حضارة العربية - وعلى امتداد ألوف
تاريخها - ستة سيئة مرعبة ومتسعة إلى حد كبير. ويكفي أن نطلع مرجعًا عالميًا
واحدًا، كتبه مستشرق منصف، هو «سير توماس و أرنولد» (١٨٧٤ - ١٩٣٠ م)
نرى هذه المسلمة وخصوصيته الحضارية العربية، تقدسها وتحافظ سماحة الإسلام
المؤسسة على التعددية - إزاء الديانات الأخرى ومعتنقيها.

شارلمان (٧٤٢ - ٨١٤م) فرض تنصيره على السكسونيين بحد السيف. **وفي الدانمرك** استأصل ملك كنوت Knut الدانمركيين عبر استئصاله من بلاده بالقتل والإرهاب. **وفي بروسيا** فرضت جماعة إخوان السيف Bme here t ot the sward المسيحية على الناس بالسيف والنار.

وفي ليتوانيا، فرض فرديناند Drco fatrumm m l.t ne chris. تنصيره على الشعب فرضًا..

وفي جنوب الرويج، ذبح ملك أولاف تريجفسون كل من لم يعتنق المسيحية، أو قطع أذنيه وأرجلهم ونفاهم وشردهم، حتى تجردت منطقة بأكملها

وفي روسيا، فرض فلاديمير Vlad mir عام ٩٨٨م تنصيره على كل روس
سكانه وعبيده أغنياء وفقراء بعد إغراقهم في بحيرة بالقرب من كييف!! ولم يُعترف فيها بوجود مسيحية
إلا في مدينة صغيرة عام ٩٠٥ م. **وفي الجبل الأسود** سنة ١٠٠٠م فرض الأسقف الحاكم
دانيال - وقشر d pe ro.i h عمليه ذبح غير المتحمسين لتنصيرهم - بعد
عدة سنوات عام ١٧٠٣م! **وفي المجر** أرغم ملك شارلمان روبرت غير المتحمسين على
التنصير أو النفي من البلاد عام ١٣٤٠م. **وفي إسبانيا**، قبل فتح العرب، كان مجمع
الأساقفة - في صيغة قرار حرم كل مذهب غير مذهب الكاثوليكي، - يقسم الملوك
على تنفيذ هذا القانون بعنوة!

وحينما عاد اليهود وبعض الحضارة العربية هذا، شهد فتح العرب لإسبانيا
والإكراه الديني - في مصر والشرق - تصفيتهم للمصريين الملكيين

والنفي والتشريد. وقتل جستنيان لأون (٥٢٧ - ٥٦٥م) مائتي ألف من سكان مدينة لإسكندرية، حتى صغر من لم يقتل، إلى الهرب في الصحراء وفي أنطاكية حدث نحو ذلك، فصفيت بقية المسيحيين، وبعضهم غير مذهب دولته، وفي سمرقند من المسيحيين! وفي الحبشة، قضى ملك سيف عام ٣٤٢ ١٣٧٠م بإعدام كل من يأبى الدخول في مسيحيته، وتقييم من بقي من ملاك صنع ذلك حوالي ربع الأحير من القرن السابع عشر للإدوي! وهيئ من مأساة مسلمي الأندلس على يد فرديناند وإيزابلا!..

لقد سلكت حضارة الغربية سبيلاً لإكراه في الدين، وتحت القهر في شتى صوره سبيلاً لتوحيد المسيحية ساحة سلبية، لا يرد مذهب واحد من مذاهبها تعقيد ما كرهوه على «الأمم»! وكان شعارهم كلمة «أوغسطين» المسيحية في القديس بولس (٤ - ١٢ - ٢٧٠ م) التي تقول: «عندما يسمع الرجل المعتدي بالشريعة المسيحية قد أسيء إلى سمعتها فإنه ينبغي ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه، الذي يجب أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء»(١)!

فنحن - إذن - أمام «خصوصية غربية»، اعتمدت سبل القهر والإكراه لتوحيد المعتقد والمذهب الديني، حتى لقد خلت مواطنها المسيحية من الأقليات الدينية، التي هي شهادة التسامح والتعايش بين الديانات..

والاستبداد الديني - بل والمذهبي - كان هو السائد، ولم تعرف التعددية طريقها إلى تلك المجتمعات إلا بعد أن تعلمتها من «نظام الملل» العثماني، في العصر الحديث!

أما الإسلام فمنذ أن ارتفعت رايته على هذه الولايات، وجدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وبقية صحابة الرسول ﷺ عندما دخل القدس (١٥هـ - ٦٣٦م)، يعقد لأهلها «العهد العمري» الذي قرر حريتهم الدينية، وحق الاحتفاظ بدينهم ومذهبهم التعددية.. وجدناهم يفرشون أرديتهم ويجلسون عليها للصلاة وعقد المؤتمرات في رحاب المسجد، ويعيدون لها طهرها وقدسيتها، بل ويشجعون هذه

(١) أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ٣٠ - ٣٢ - ٧٢ - ١٢٢ - ١٢٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٥٤ - ١٥٦ - ٢٢٦ - ٢٣٠ - ٢٧٤ - ٢٧٦ ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م

لأماكن التي سبق وعُبد فيها الله، وفق مخالف الشرائع، فيقيمون فوقها مساجد ومحاريب التي تتلى فيها آيات الله ﴿ من الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (٢٨٥) ﴾ [البقرة، ٢٨٥] ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة ٢٥٦] ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف ٢٩] ﴿ لكم دينكم ولي دين (٦) ﴾ [الكافرون، ٦]

فالإسلام بدأ فجر التعددية في تاريخ الإنسان، لأنه لشريعته التي عبدت بها المؤمن بها على الإيمان بكل الرسل و الرسالات، ومن ثقافة الإسلام التعددية والتنوع و الاختلاف عده حدود « خلق الإنسان» الذي يحور ويتطور عنه ، وقد ارتفع به إلى مقام خليفة الله في الأرض الذي لا يستقيم له ولا يحوين فهي قاعدة أساسية لكونه و نهج الحضاري الذي أراده الله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ [المائدة ٤٨] ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢) ﴾ [الروم ٢٢] ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات ١٣] وصدق الحديث النبوي على هذه الآيات القرآنية « الأنبياء إخوة لعلات ... دينهم متعدد ... دينهم واحد، وأمهاتهم شتى»

وتبنى الدستور الأول للدولة الإسلامية الأولى « أن يهود أمة مع المؤمنين، ليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم»[٢]

وحضارة الإسلامية وقعا معاشا، فعاشت وتعايشت، وشاركت في الإبداع الحضاري كل ألوان التنوع و التعددية..

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والإمام أحمد

(٢) (مجموعة الوثائق السياسية بعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص ٦٩، ٢٠

ففي الإطار الإسلامي الأوسع عاشت شعوب وجماعات دياناتها وتعايشت الحضارات المتميزة المتنوعة وصنعت تعدد الشرائع والمذاهب

وفي الإطار العربي الإسلامي وجدت وتجاورت شعوب وأقوام، تتحدث فيما بينها بلغات متعددة، كالكرد والبربر، والأرمن والأقباط، والسوريان والتركمان، والشركس، والأتراك، والإيرانيون، واليونيون والزنوج واليهود المغربيون... إلخ

وعلى خريطة التعددية في الملل والشرائع والمذاهب الدينية، وجدت وتجاورت الكنائس الأرثوذكسية، والكاثوليكية، والبروتستانتية، والأنجليكانية، والنسطورية، والأرمنية الكاثوليكية، والأقباط الأرثوذكس، والكاثوليك، والسريان الأرثوذكس، والكاثوليك، والموارنة، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والبروتستانت، والأنجليكان، واليهود السفارديم، والأشكناز، والفلاشة، والبهائية، والديانات القبلية الزنجية الأرواحية... إلخ

وعلى خريطة التعددية في المذاهب الإسلامية - الكلامية والفقهية - السنية المذهبية، والشيعية المذهبية، فهناك الأحناف، والشافعية، والمالكية، والحنابلة، والجعفرية، والزيدية، والإباضية، والظاهرية، والإسماعيلية، والدروز، والعلويون (النصيرية) إلخ

هكذا، تجسدت في الحضارة الإنسانية - بالحضارة الإسلامية - أمة واحدة، وصمت كل ألوان التنوع والتعدد والاختلاف في الفروع التي تكوّن لبنات البناء الواحد لأمة الإسلام - المتحدة في العقيدة والشريعة والحضارة ودار الإسلام - والمتنوعة فيما عدا ذلك من السمات والقسمات!..

تلك هي قصة الأمم من التعددية «الإسلامية» كأمة وحضارة كما عرضت لها قصيرة هذا الكتاب

لكننا.. ومنذ بعثرة الاستعمارية الغربية الحديثة نشهد مخططاً معادياً لوحدة الأمة، يريد أن يحوّل «نعمة التعددية» إلى «نقمة»! وأن يتحول تطوائف الأقوام والملل والمذاهب من «لبنات» في بناء الأمة الواحدة إلى «ثغرات» في جدار الأمن الوطني والقومي والحضاري..

بدأ ذلك بمحاولات نابليون بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) مع عرض أقباط مصر، بقيادة الحملة الفرنسية عليها (١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م) عندما أغرى جماعة من "أراذل الأقباط" ـ كما سماهم الجبرتي (١١٦٧ ـ ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م) فأعطوه قسماً فضة، شاركوا مع الجيش الفرنسي في تشهير الاستعماري بمصر وفي إخماد ثورتها، وتخصصت منهم، وقراهم ضد الغزاة. وكان قيادة هذا الفريق "المعلم" يعقوب حنا (١٥٨ ـ ١٢١٣هـ ١٧٤٥ ـ ١٨٠٠م) الذي سماه به كليبر "يعقوب" وجعله الفرنسيون "الجنرال"!! .. وسماه الجبرتي "يعقوب اللعين"!.

وبعد ستة أشهر من هذه المحاولة النابليونية وحدة الأمة، عاد الأقباط مصر ـ باسم "الاستقلال" عن محيطها العربي والإسلامي، وقطع وشائج تواصلها الحضاري والتراثي الإسلامي، وذلك بالتحالف مع الغرب، وإحلال "التشريعات التي ترضى عنها فرنسا" محل شريعة الإسلام التي تمثل سنة من سمات وحدة الأمة الإسلامية. وكان ذلك أقدم محاولات التفتيت للأمة في العصر الحديث.

وتزامنت مع هذه المحاولة دعوة بونابرت سنة ١٧٩٩م للطوائف اليهودية ـ التي نعمت في الحضارة الإسلامية بما لم تحلم به في حضارة أخرى ـ دعوته لها كي تتحالف مع جيشه الغازي ومشروعه الاستعماري، فيقوم بدعم "ثورة الأحرار" و"الوطن القومي"، وذلك مقابل تمكينهم من فلسطين. فأصدر بونابرت هذه الدعوة لليهود، أثناء حصاره مدينة "عكا" قائلاً:

"من نابليون بونابرت، القائد الأعلى للجيوش الفرنسية بمصر وسوريا، إلى الفريق وأسباط إسرائيل الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد.. انهضوا بقوة، أيها المشردون في الأرض. لا تدعوا الفرصة تفلت من أيديكم، وتمكنوا من استعادة وطنكم الخاص. إن هذا يعتمد عليكم وحدكم، وذلك خلال بضعة أشهر من إرادتكم الألفية"..

---

(١) د. أحمد حسين الصاوي (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ٢٣ ـ ٣٢ ـ بحث منشور بمجلة عين شمس سنة ١٩٨٦م.

... فرنسا تقدم نفسها بديلاً لأرض ميعاد إسرائيل ... بأن الجيش الفرنسي رسالته العالمية الإلهية ... قد اختار القدس مقراً لقيادته، وحلال بصفته بلدية سيتمركز في دمشق محاوره، التي ستصبح صولاً لمملكة داود وأدلتهم ... بوراثة قيصر شرعيين ... الأمة الفرنسية ... يدعوكم إلى براثنكم بصفتهم وبيدهم صك الدخلاء ...»[1]!!.

فكما بدأ مشروع الاستعماري الغربي فتح ثغرات الاختراق والتفتيت على جبهة أقباط مصر ... بدأ فتح ثغرة ثانية على جبهة الطوائف اليهودية ... سعياً إلى تحويل «نعمة التعددية» إلى «نقمة التشرذم والتفتيت»!.

وبعد هزيمة مشروع نابليون ... واصلت إرساليات التبشير الديني والتغريب الثقافي الفرنسية ـ محاولات الاختراق والتفتيت، بالعمل على تحويل بعض الطوائف والمذاهب والملل إلى ثغرات اختراق لتفتيت وحدة الأمة، وتهديد أمنها الوطني والقومي والحضاري ... فمدارس الإرساليات الفرنسية في الشام، استهدفت ـ كما عبرت عن ذلك مراسلات قناصلهم ـ «جعل سوريا ـ (أي الشام الكبير) ـ حليفًا أكثر أهمية من مستعمرة»! و«تأمين هيمنة فرنسا على منطقة حصينة ومنتجة»! وتحويل الموارنة إلى «جيش متفان لفرنسا في كل وقت»! وذلك وصولاً إلى «جعل الشرقية العربية ـ (كما قالوا)! ـ تنحني لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»!.

وما حاوله الفرنسيون مع الموارنة حاولوه لاحقاً مع الدروز، في تاريخ لاحق! وحاولوه مع اليهود، عندما أرادوا استخدامهم في فلسطين سدّاً أمام مشروع مصر، الذي بدأه محمد علي باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ / ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م)، لتحديث الشرق، وعلاج أمراض الدولة العثمانية ... فكتب وزير خارجية الإنجليز «بالمرستون» في سفيره في «إستانبول» اللورد «بونسونبي» في ١١ أغسطس سنة

(١) محمد حسين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب واليهود والأسطورة والإسطورة في تاريخ اليهود) الكتاب الأول ص ٣١، ٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

(٢) من مراسلات القناصل ـ محفوظات وزارة خارجية الفرنسية ... بين ـ بين ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨ ـ ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨م نظر د. محمد عمارة هل الإسلام هو الحل؟ دار ... وشركاه؟ ص٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

١٨٤٠م، يقول له «عليك أن تقنع السلطان وحاشيته.. بأنه إذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية السلطان ومباركته إلى فلسطين، فسوف يكون ذلك مصدر ثراء له، كما أنه سوف يكون حائلاً بين محمد علي أو أي شخص آخر يخلفه وبين تحقيق خطته الشريرة في الجمع بين مصر وسوريا»[1]!!

فالهدف هو تفتيت الأمة، بتوظيف اليهود لعقبة ضد «الجمع بين مصر وسوريا»!

كذلك، سعى (إكسبر إلى دمشق وسعى إسبه بوشرت، فمقاصد مشروع تعريبي وحدة مع خلاف يحكر بشرت! وذلك عندما سنهد هو علاقه أقباط مصر بمسلميهم عن طريق بعض الأثنين، ومحاولات ضرب الجميع وذلك بقوله فوعد حتر ق للمسلمين، وفي نفس الوقت بالحماية البريطانية مرة، وبتعريس وتنمية بشعق طائفي مع المسلمين مرة أخرى وبعد الوحدة الأمة في كل الأحياس (دورد كرومر ١٨٤١ - ١٩١٧م) - المعتمد البريطاني في مصر ترعجه وحدة الأمة - أقباطها ومسلميها - في مقومة القيم، حتى يتعذر تمييز بين قبطي و مسلم، فستقد ذيهما وبحدد من العدو الرئيسة له هو بقضيع شرقي بحضارته، الذي يميزه عن حضارة بعربية الغربية فيقول «إن مسيحية القبطي محافظة - (جامدة) - بقدر ما هو إسلام لمسلم، والقبطي غير قابل للتغيير - (التقدم) - . وهذا راجع «لا لأنه قبطي، بل لأنه شرقي، ولأن ديانته التي تسمح بالتقدم قد حوصرت بأحلاط معادية للتقدم . وإذا كان المسلم لم يصبح مسيحيًا على أي وجه من الوجوه فإن القبطي قد أصبح مسلمًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في المسلك الأخلاقي واللغة والروح»[2]!

فعدو كرومر المعتمد البريطاني للاستعمار الإنجليزي في مصر - هو وحدة الأمة والحضارة، التي جعلت الجميع شرقيين، بصرف النظر عن الملل والشرائع، والتي جعلت النصراني المصري متوحدًا مع المسلمين في المسلك الأخلاقي واللغة والروح!..

---

(١) (المفاوضات السرية بين العرب واليهود) الكتاب الأول ص ٤٤، ٤٥

(٢) كرومر (مصر الحديثة) والنص في محمد السماك (الأقباط بين العروبة والإسلام) ص ٩٣ - طبعة بيروت، سنة ١٩٩٠م

وعندما أخذ مخطط بونابرت مع اليهود ـ والذي تبناه الإنجليز بأن يصاعد دورهم الاستعماري في الوطن العربي، عندما أخذ هذا المخطط طريقه إلى التطبيق في أرض الواقع، عبر وعد بلفور سنة ١٩١٧م والانتداب البريطاني على فلسطين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٨م) وقيام الدولة الصهيونية سنة ١٩٤٨م أصبح لهذه الدولة ـ كقاعدة عربية في قلب وطن الأمة ـ مخططها للتفتيت والتفكيك، والذي يستهدف إلغاء الأمة وتحويلها إلى ركام من الطوائف والملل والنحل والمذاهب والأقوام والأعراق..

ولأن الإسلام هو عامل التوحيد الأول لهذه الأمة، فلم يقف مخطط التفتيت الصهيوني عند دائرة الأمة العربية، وإنما امتد ليشمل عالم الإسلام، من شبه القارة الهندية إلى المغرب الأقصى على شاطئ الأطلسي! فكانت الخطة التي صاغها المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» Bernard Lewis

والتي نشرتها مجلة Executive Intelligence researchproject التي تصدرها وزارة الدفاع الأمريكية «بنتاجون» والتي تخطط فيها «التقسيم الشرق إلى دويلات إثنية أو مذهبية». وبموجب تلك الخطة يدعو برنارد لويس إلى

١ ـ ضم إقليم بلوشستان الباكستاني إلى مناطق البلوش المجاورة في إيران، وإقامة دولة بلوشستان.

٢ ـ ضم الإقليم الشمالي الغربي من الباكستان إلى مناطق البوشتونيين في أفغانستان، وإقامة دولة بوشتونستان.

٣ ـ ضم المناطق الكردية في إيران والعراق وتركيا، وإقامة دولة كردستان.

٤ ـ إن اقتطاع المناطق الكردية والبلوشية من إيران يفتح ملف التقسيم الداخلي لإيران، في ضوء الواقع الإثني، مما يحقق إقامة الدويلات التالية:

(أ) دويلة إيرانستان.

(ب) ودويلة أذربيجان.

(ج) ودويلة تركمانستان.

(د) ودويلة عربستان.

٥ ـ إقامة ثلاث دول فى العراق :

(أ) إحداها كردية سنية فى الشمال

(ب) والثانية سنية عربية فى الوسط

(ج) والثالثة شيعية عربية فى الجنوب

٦ ـ إقامة ثلاث أو أربع دويلات فى سوريا :

(أ) منها واحدة درزية

(ب) وثانية علوية (نصيرية)

(ج) وثالثة سنية .

٧ ـ وتقسيم الأردن إلى كيانين :

(أ) أحدهما للبدو

(ب) والآخر للفلسطينيين ـ (دون إشارة للضفة الغربية للأردن [illegible] سريين !

٨ ـ أما العربية السعودية فسوف تحسن إعادتها إلى [illegible] قبل إنشاء المملكة سنة ١٩٣٣ م، بحيث لا يعود [illegible] والبحرين وقطر وإمارات الخليج الأخرى !

٩ ـ يعاد النظر فى الجغرافيا السياسية للبنان، على أساس إقامة

(أ) دويلة مسيحية

(ب) ودويلة شيعية

(ج) ودويلة سنية

(د) ودويلة درزية

(هـ) ودويلة علوية

١٠ ـ تقسم مصر إلى دولتين على الأقل:

(أ) واحدة إسلامية.

(ب) والثانية قبطية

١١ ـ يفصل جنوب السودان عن شماله، لتقام فيه

(أ) دولة زنجية مستقلة في الجنوب

(ب) ودولة عربية في الشمال

١٢ ـ يعاد النظر في الجغرافيا السياسية للمغرب العربي، بحيث تقام للبربر أكثر من دولة حسب التوزع والانتماء القبليين.

١٣ ـ كذلك يعاد النظر في الكيان الموريتاني من خلال الصراع القائم بين العرب والزنوج والمولّدين».

وبعد هذا التخطيط، نرى يضيف إلى «تجزئة وتفتيت (سيكس ـ بيكو) سنة ١٩١٦م» أكثر من ثلاثين دويلة، عرقية، ودينية، ومذهبية.. يضيف برنارد لويس قوله: «إن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع، وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو في العمق. على السطح كيانات سياسية بدول مستقلة، ولكن في العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة في هذه الدول، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة»!

فالمخطط لا يرى إلا الصراع.. وهو يريد تفتيت الأقوام والملل والمذاهب إلى دويلات، ليس لها أدنى مقومات الدول.. كل ذلك حسب جعل الطوائف اليهودية، التي لا تجمعها روابط الأمة الواحدة أو الحضارة الواحدة، والتي لم تقم ـ عبر تاريخها الطويل ـ دولة متحدة.. كل ذلك حسب أن تصبح هذه الطوائف الدولة المهيمنة على وطن العروبة وعالم الإسلام!..

نعم، يفصح برنارد لويس عن هذا المقصد، فيقول في هذا المخطط: «ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف

بشبه خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرقات ومياه ونفط وزوج وورثة الخ ... وعرفاً أن كل كسر من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل»[1]!.

فعلى مستوى العدو الإسرائيلي ـ الموقف حسب مشروع تعريبي ـ يكون التحصيل والتنفيذ لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية إلى درجات من الأقوام، والملل، والنحل والمذاهب والطوائف والأعراق والألوان!..

ولم يقف الأمر عند التحطيط الذي نفذ أحد هذه المخططات لتجزئة المنطقة إلى سلسلة من الدويلات قبيلة من قدم إسرائيل قد سعى لتحويل عدد وافر من المجتمعات السياسية ـ أو مجتمعات الموزاييك Mosaic Society».

ففي سنة ١٩٥٤م تقدم «دافيد بن جوريون» ـ أحد مؤسسي الدولة الصهيونية، ورئيس لوزرائها ـ فأعلن: «إن الوقت يعتبر مناسباً لدفع سياستنا الخارجية إلى المطالبة بإقامة دولة مسيحية... وإن هذا المشروع سوف يؤدي حتماً إلى حدوث تغيير سياسي وجغرافي في الشرق الأوسط، وسيخلق مرحلة جديدة».

وسجل «موشي شاريت» (رئيس وزراء إسرائيل يومئذ) ـ في مذكراته، بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٤م تفصيل شرح "بن جوريون" الذي يوضح أن لبنان هو الحلقة الأضعف في الجامعة العربية، ومعظم الأقليات في الدول العربية الأخرى هي أقليات إسلامية، باستثناء الأقباط، لكن مصر هي أكثر الدول العربية تماسكاً، وتستطيع أن الأعصاب هنا تتشكل من مجموعة دينية واحدة، لذا فإن الأقباط لا يؤثر الأقلية القبطية تشكل جزءاً في وحدة متماسكة وموحدة قومياً، على عكس الوضع في لبنان، إذ تشكل المسيحيون الأغلبية غير المريح اللبناني، وهذه الأغلبية لها تراثها وثقافتها المختلفة عن تراث وثقافة الدول العربية الأخرى الأغلبية في الجامعة العربية، (لقد كانت الأقلية لا تعتبر من قبل أنها وسعت حدود سلطتها على ما هو عليه اليوم إلى ضمن حدود دولية لبنان لا يستطيع المسلمون أن يتعايشوا معها يبدون، حتى وكأنهم يشكلون الأكثرية هناك، وذلك خوفاً من المسيحيين ـ (حسب رأي هذا) ـ الذين يشكلون

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص١٣١، ١٣٣، ١٤٣.

الأكثرية بالفعل؟) - وهكذا تبدو مسألة خلق دولة مسيحية أمرًا طبيعيًا، لها جذورها التاريخية، وستلقى مثل تلك الدولة دعمًا واسعًا من العالم المسيحي الكاثوليكي والبروتستانتي.

كان مثل هذا الأمر يبدو شبه مستحيل في الظروف العادية، وذلك لسبب رئيسي هو كون المسيحيين يفتقرون إلى الشجاعة والحافز من أجل تنفيذ مشروع كهذا، أما في حالة انتشار الفوضى والاضطرابات وظهور أغراض الثورة أو الحرب الأهلية، فإن الأمر يصبح مختلفًا، إذ التصرف الضعيف كبطل في مثل تلك الأوقات، وبما أننا لا نستطيع الجزم بالنسبة للأمور السياسية، نقول ربما كان الوقت الحالي هو الظرف المناسب لخلق دولة مسيحية مجاورة لك، ومن دون مبادرتنا ودعمنا القوى لا يمكن إخراج تلك الدولة إلى حيز الوجود! . يبدو لي أن هذا هو واجبنا الأساسي، أو على الأقل أحد الهموم الرئيسية لسياستنا الخارجية، وهذا يعني أن علينا أن نحسن استثمار الجهد البشري، وعامل الوقت، والعمل بكل الطرق الممكنة لإحداث تغيير أساسي في لبنان، يجب علينا تجنيد «ساسون» وكل من يتكلم العربية بيننا، ولن نتقاعس عن توفير الأموال اللازمة لإنجاح هذه السياسة، ولا بأس لو اضطررنا أحيانًا إلى إنفاق الكثير دون التوصل إلى نتائج سريعة.

فلنركز جهدنا جميعًا على هذه القضية، فقد لاحت في الأفق فرصتنا التاريخية، ولن يغفر لنا التاريخ إضاعتها سدى. لكن على ثقة بأن موقفنا هذا لا يتضمن أي تحد للقوى الكبرى، إذن علينا أن نشرع في العمل فورًا وقبل فوات الأوان.

وفي سبيل الوصول إلى ما نسعى، علينا فرض قيود على الحدود اللبنانية وتنظيمها ويستحسن اختيار بعض اللبنانيين في الداخل والخارج وتجنيدهم من أجل خلق الدولة المارونية. لست على معرفة بأناس يمكننا التنسيق معهم في لبنان ولكن هناك طرقًا عديدة يمكننا بواسطتها تحقيق المشروع المقترح.»

إمضاء: دافيد بن جوريون

---

(١) هو «موشيه ساسون» أحد الخبراء الصهاينة في اللغة العربية، والعادات العربية، [illegible] في مصر بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية، ومؤلف كتاب (سبع سنوات في بلاد المصرية) وهو عن سنوات سفارته بمصر من سنة ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٨م

وفي تعقيب «موشي شاريت» على هذا «البروتوكولات»، التي سطرها بن جوريون»، كتب في ١٨ مارس سنة ١٩٥٤م يقول: «إنني بالتأكيد أحبذ تقديم المساعدات والدعم الفعال لأي شكل من أشكال تحريك الأقلية المارونية بهدف تثبيت وتقوية ميولها الانعزالية، بغض النظر عن مدى فرص النجاح أمامها، في حال وجود مثل تلك القاعدة يعتبر مجرد تحريك الأقليات عملاً إيجابياً لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر، ناهيك عن المتاعب التي يمكن أن يسببها للجامعة العربية، كما أنه يخدم غرض صرف الأنظار عن تعقيدات الوضع العربي الإسرائيلي، ويذكي النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال..

وعلاوة على ذلك، أود أن أؤكد على ضرورة إلقاء هذه الخطة في نطاق السرية الكاملة، لأننا في حال نشرها وانتشارها، وهو خطر لا يمكن إنكاره في ظل الظروف الراهنة للشرق الأوسط، سيعاني خسارة لن يعوضها شيء، وإن كان نجاح العملية ذاتها..»!

هكذا - ومنذ سنة ١٩٥٤م - بدأت إسرائيل تنفيذ مخطط

(أ) تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي بدءاً بالأقلية المارونية.

(ب) وتحريك الأقليات لتدمير المجتمعات المستقرة، وإذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال!!..

وفي ضوء هذا المخطط، علينا أن نراجع مظاهر الانعزال لدى الأقليات وألوان تحركاتها كأقليات، وتزايد الحديث عن همومها - داخلياً وخارجياً - وتزايد الأضواء المسلطة عليها، في عزلة عن مجتمعاتها!! . علينا أن نراجع مظاهر وثمرات هذا المخطط عبر العقود التي تلت هذا التخطيط!. وأن نرصد الأفكار والنظريات والمؤسسات التي احترفت وتحترف «صناعة عزل وتحريك الأقليات».

وإذا كان «موشي شاريت» - رئيس وزراء إسرائيل يومئذ - قد كتب هذا التعقيب على مذكرة «دافيد بن جوريون» في مارس سنة ١٩٥٤م، فلقد عقدت القيادة الإسرائيلية اجتماعاً مشتركاً، لوضع هذا التخطيط في التنفيذ - في ١٦ مايو سنة ١٩٥٤م - «حضره

كبار مسئولي وزارتي الدفاع والخارجية، وفيه طالب «بن جوريون» مرة أخرى بتحريك الأوضاع في لبنان، والقيام بعمل ما، خاصة أن الظروف ملائمة للغاية، بسبب تزايد التوتر بين العراق وسوريا، وتفاقم الأوضاع الداخلية التي تعاني منها سوريا، وسارع «موشي ديان» إلى تأييد موقف «بن جوريون» بحماس بالغ.

كان أهم ما يشغل «ديان» هو العثور على ضابط لبناني، ولو برتبة رائد، للقيام بدور المنقذ للشعب المسيحي ... ، وفي حال إيجاد مثل هذا الشخص يكون دور إسرائيل العمل لاستمالته بإظهار المودة تجاهه أو إغرائه بالأموال، عندها سيتمكن الجيش الإسرائيلي من دخول لبنان واحتلال الأجزاء الضرورية من الحدود، وأخيراً خلق كيان مسيحي يقيم علاقات وثيقة مع إسرائيل، أما بالنسبة للمناطق الواقعة جنوب «الليطاني» فسوف يتم ضمها إلى إسرائيل نهائياً».

«بعد ذلك أوصى رئيس الأركان ـ «ديان» ـ بتنفيذ هذه الخطة في الغد، ودون انتظار النتائج التي ينتظر أن يسفر عنها الوضع المتوتر بين دمشق وبغداد ...».

وتعلق «موشي شاريت» ـ في مذكراته ـ على نتائج اجتماع ٦ مايو سنة ١٩٥٤م فتقول: «في الوقت ذاته، وافقت على تشكيل لجنة مشتركة من موظفي وزارتي الدفاع والخارجية لمعالجة الشئون اللبنانية، على أن تكون تلك اللجنة (كما طالب بن جوريون) تحت إشرافه رئيس الوزراء».

كان رئيس الأركان ـ «ديان» ـ لم يزل مصراً على رأيه، بضرورة العثور على ضابط لبناني لاستخدامه كواجهة لتنفيذ أغراضنا فيتمكن الجيش الإسرائيلي عندها من الاستجابة لنداء الإغاثة المنطلق من لبنان، ويهرع لتحريره من الاضطهاد الإسلامي، بل تكون تلك العملية سوى مغامرة جنونية، لكن علينا أن نعمل لمنع المضاعفات الخطيرة، وعلى اللجنة أن تكلف بمهمة القيام بالدراسات، وأن تعمل بحذر وتعقل لتوجيه وتشجيع الدوائر المارونية الرافضة للضغوط الإسلامية كي تضع ثقتها بنا وتعتمد علينا كلياً..»[1].

---

(١) لاحظ أن المسيحيين يومئذ في لبنان كانوا يهيمنون على مختلف ميادين وقطاعات ومؤسسات الدولة والمجتمع.

[illegible] سنة ١٩٥٤م [illegible] «[illegible] بوكولاس» [illegible] [1]

[illegible] «المصفقة» [illegible] مجتمعاتها مستقرة، وإذكاء النار في مشاعر الأقليات في المنطقة [illegible] «المجتمعات الفسيفسائية أو مجتمعات الموزاييك «Mosaic Society»

[illegible] الهندية إلى شاطئ الأطلسي[1].

في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١م، نشرت جريدة «معاريف» الإسرائيلية [illegible] «إن إسرائيل تصل بمجالها الحيوي إلى أطراف الاتحاد السوفيتي شمالاً، والصين شرقًا، وإفريقيا الوسطى جنوبًا، والمغرب العربي غربًا - (أي العالم الإسلامي كله) - وهذا المجال عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة، ففي الباكستان شعب «البلوش»، وفي إيران يتصارع على السلطة كل من الشيعة والأكراد، والمسألة الأرمنية، أما في العراق فمشكلاته تتركز في الصراع بين السنة والشيعة والأكراد، في حين أن سورية تواجه مشكلات الصراع السني العلوي، ولبنان مقسوم على عدد من الطوائف المتناحرة والأردن مجال خصب لصراع من نوع فلسطيني - بدوي، كذلك في الإمارات العربية، والسواحل المملكة العربية السعودية الشرقية، حيث يكثر الشيعة

(1) [illegible] ص [illegible] ٧٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م

من ذوي الأصول الإيرانية، وفي مصر حرب من العداء بين المسلمين والأقباط، وفي السودان حالة مستمرة من الصراع بين الشمال والجنوب مسيحي - أوثني، أما في المغرب فالهوة ما بين العرب والبربر قابلة للاتساع»[1].

فكأنه يعتقد أن هذه الصفحة [illegible] مع حديث عن هذا العالم الإسلامي باعتباره «محل الحيوى لإسرائيل»!! وهو «الجسم الكذب للعظمة»... فما إسرائيل - في هذا المخطط - إلا «[illegible]» وشريك»!..

وفي العالم التالي، سنة ١٩٨٢م - بعيد المنظمة الصهيونية العالمية الإفصاح عن هذا المخطط، فنشر محيط [illegible] «الشؤون العربية» - العدد ١٤ في يونيو سنة ١٩٨٢م - تحت عنوان «إستراتيجية إسرائيل في الثمانينيات»: «إن العالم العربي - الإسلامي ليس هو المشكلة الإستراتيجية الأساسية التي ستواجهها خلال الثمانينيات، وذلك على الرغم من أن له النصيب الأوفر في تهديد إسرائيل بسبب قوته العسكرية الآخذة في الازدياد.

وهذا العالم، بطوائفه وأقلياته وأجنحته وبرعاته الداخلية التي تؤول إلى دمار داخلي مدمر - كما تشهد اليوم في لبنان وإيران غير العربية، والآن في سوريا أيضاً[2] غير قادر على التصدي لمشكلاته الأساسية الشاملة، وبالتالي فإنه لا يشكل تهديداً فعلياً لدولة إسرائيل في المدى البعيد وفي المدى القصير، إذ هناك أهمية كبرى لقوته العسكرية الآنية:

فعلى المدى البعيد لا يستطيع هذا العالم البقاء بنيته الحالية في المناطق المحيطة بنا، من دون تقلبات فعلية.

إن العالم العربي مبنيٌ مثل برج ورقي مؤقت، شيده الأجانب (فرنسا وبريطانيا في العشرينيات) من دون اعتبار لإرادة السكان وتطلعاتهم، فقد قسم إلى ١٩ دولة، كلها مكونة من تجمعات من الأقليات والطوائف المختلفة التي يناصب بعضها البعض

---

[1] [illegible] الإسلام [illegible]

[2] في وقت كتابة هذا البحث [illegible] وكانت أحداث حماة بين جماعات إسلامية حكومة [illegible] مع الأكراد

العداء. وهكذا فإن كل دولة عربية - إسلامية تتعرض اليوم لخطر التفتت الإثني - الاجتماعي في الداخل، لدرجة أن بعضها يدور فيه الآن حروب أهلية.

إن صور الوضع (القومية - الإثنية - الطائفية هذه) من المغرب حتى الهند، ومن الصومال حتى تركيا، تشهد على انعدام الاستقرار، والتفتت السريع في جميع أنحاء المنطقة المحيطة بنا.

وعندما نضيف إلى تلك الصورة الاقتصادية فإننا ندرك إلى أي حد تقوم المنطقة بأسرها فعلاً على شفا من الخطر، من دون أي فرص للتصدي لمشكلاتها الخطرة.

إن مصر مفككة ومنقسمة إلى عناصر طائفية كثيرة، وليس على غرار ما هي الحال اليوم، لا تشكل أي تهديد لإسرائيل، وإنما ضمانة للأمن والسلام لوقت طويل. وهذا اليوم في متناول يدنا.

إن دولاً مثل ليبيا والسودان واليمن لأبعد منهما لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقفي أثر مصر في انهيارها وتفتتها. فحتى تفتت مصر تفتت اليمن(!!) - إن رؤية دولة قبطية مسيحية في صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات السلطة أهلية مصرية، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن، هي مفتاح هذا التطور التاريخي الذي أحرزته معاهدة السلام، لكنه لا يبدو مستبعداً في المدى الطويل.

إن الجبهة العربية - التي تبدو بنوعية الأولى معضلة - هي أقل تعقيداً من الجبهة الشرقية، حيث أصبحت ماثلة أمامنا اليوم جميع الأحداث التي كانت كامنة أمامنا في العرب، ذلك أن تفتت لبنان بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربي بأسره، بما في ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية، إذ أحد يسير منحى مشابهاً منذ اليوم.

إن تفتت سوريا والعراق لاحقاً إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية، على غرار لبنان، هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل في الجبهة الشرقية في المدى البعيد؛ إذ إن تشتيت القوة العسكرية لهذه الدول هو اليوم الهدف المرسوم في المدى القصير. وسوف تتفتت سوريا وفق التركيب الإثني والطائفي إلى عدة دول مثل لبنان

حالياً ، بحيث تقوم على ساحلها دولة علوية ـ شيعية ، وفي منطقة حلب دولة سنية ، وفي منطقة دمشق دولة سنية أخرى معادية للدولة الشمالية ، والدروز سيشكلون دولة ، ربما أيضاً في الجولان عند[1] وضعٍ في جنوب وشمال الأردن ، وستكون هذه ضمانة لأمن والسلام في المنطقة بأسرها في المدى الطويل ، وهذا الأمر في متناول يد اليوم

إن العراق ـ الذي يفقد من جهة ، والذي يكثر فيه الانشقاق والأحقاد في الداخل من جهة أخرى ـ هو المرشح المصمود لتحقيق أهداف إسرائيل ، إن تفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا[2] ، فالعراق أقوى من سوريا ، وقوته تشكل في المدى القصير خطراً على إسرائيل أكثر من أي خطر آخر ، وحرب عراقية ـ سورية ، أو عراقية ـ إيرانية سوف تفتت العراق وتؤدي به إلى الانهيار في الداخل قبل أن يصبح في إمكانه التأهب لخوض صراع على جبهة واسعة ضدها ، وكل مواجهة بين الدول العربية تساعد على الصمود في المدى القصير ، وتختصر الطريق نحو الهدف الأسمى ، وهو تفتيت العراق إلى شيع مثل سوريا ولبنان ، وفي العراق سوف يكون التقسيم الإقليمي والطائفي متاحاً ، كما كان الوضع في سوريا في العهد العثماني ، وهكذا تقوم ثلاث دول (أو أكثر) حول المدن العراقية الرئيسية . البصرة ، وبغداد ، والموصل ، إذ تنفصل مناطق شيعية في الجنوب عن الشمال السني والكردي بأكثريته ، وعلى المواجهة الإيرانية العراقية تؤدي إلى ازدياد حدة هذا الاستقطاب اليوم

إن شبه الجزيرة العربية بأسره هو مرشح ضخم للانهيار ، وأكثر اقتراباً منه ، بفعل ضغط داخلي وخارجي ، وهذا الأمر غير مستبعد في معظمه ، خصوصاً في السعودية ، سواء أبقيت القوة الاقتصادية القائمة على النفط أم انخفضت في المدى البعيد فالاضطراب والانهيار من الداخل هما مسار واضح وطبيعي في ضوء تركيبة الدولة القائمة ، التي تفتقر إلى كيان .

إن الأردن هدف استراتيجي آني في المدى القصير ، لكنه ليس كذلك في المدى الطويل ، لأنه لا يشكل أي تهديد فعلي في المدى الطويل ، بعد انحلال وتصفية الحكم

---

[1] ... إلى لبنان أثناء حرب الخليج ... وفي أثناء انشقاق الطائفة ، والتغلب على محنة الحرب

[2] الجولان ... سوري المحتل عام ١٩٦٧ ... ئيل في حرب يونيو سنة ١٩٦٧ .

[3] في ضوء ... لا ... يبدو أنها يحدث بوحدة العراق بعد حرب الخليج الثالثة وبعد الغزو الأمريكي سنة ٢٠٠٣م

[illegible] للملك حسين، وانتقال السلطة إلى الفلسطينيين في المدى القصير. ليس هناك أي إمكان بأن يبقى الأردن قائمًا على صورته وبنيته الحاليتين في المدى الطويل، وينبغي أن تؤدي سياسة إسرائيل - حربًا أو سلمًا - إلى تصفية الأردن بنظامه الحالي، ونقل السلطة إلى الأكثرية الفلسطينية، فبتبديل الحكم شرقي النهر، سوف يؤدي أيضًا إلى تصفية مشكلة المناطق الآهلة بالعرب غربي النهر حربًا أم سلمًا، إن الهجرة من المناطق والجمود الاقتصادي - الديموغرافي فيها، هو الضمانة للتغيير الوشيك على ضفتي النهر [illegible]، وعلينا أن نكون ناشطين من أجل تسريع هذا التغيير، وفي وقت قريب.

إنه - في العصر النووي - لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ونحن من الآن فصاعدًا بعثرة السكان، وهذا دافع إستراتيجي فإذا لم نحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود[2]»!!.

[illegible]

ففي ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م عقدت ندوة دعا إليها «مركز [illegible] الإستراتيجية» - التابع لجامعة بارايلان الإسرائيلية [illegible] واسطة «مركز الأبحاث السياسية» التابع لها - وأسهم [illegible] «المركز ديان» - التابع لجامعة تل أبيب - ... ندوة حول «الموقف الإسرائيلي من [illegible] الاستقلالية، في ضوء ما حققه أكراد العراق»!!.

[illegible] حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م [illegible] وما فتحته [illegible] والتشرذم الطائفي قد مثلت بالنسبة لمخطط التفتيت الصهيوني عامل تصعيد [illegible] جديدة تدفع واقع [illegible] تخطيط [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هذه [illegible] عشر بحثاً [illegible] المحتوى، فمنها:

«[illegible] الكامنة وراءه».

و«حرب الخليج هل أنهت تقسيم لبنان؟»

و«دعم إسرائيل للحركة الكردية، قبل وبعد حرب الخليج»

و«ثورة الشيعة في جنوب العراق، أثناء حرب الخليج»

و«[illegible]»

و«إسرائيل ونضال جنوب السودان من أجل الاستقلال [illegible]»

و«الاستقطاب بين المسلمين والأقباط في مصر»

و«إسرائيل ونضال البربر في شمال إفريقيا»

و«الشيعة في أقطار الخليج (السعودية - البحرين - الكويت - الإمارات - قطر) هل يثورون كما ثار شيعة لبنان؟.. الموقف الإسرائيلي والإيراني»

و«إسرائيل ودول الجوار في إفريقيا [illegible] تشاد - السنغال»

و«العلاقات بين إسرائيل ودول الجوار المحيطة بالعالم العربي (تركيا - إيران - أثيوبيا)»

وفي هذه الأبحاث.. كشف عن صفحات قديمة في مخطط التقسيم [illegible] «[illegible]» و«[illegible]» [illegible] والمسلمين، [illegible] قيام الدولة الإسرائيلية سنة ١٩٤٨م!..

[illegible] على موقع هذا المخطط من «المصالح العليا [illegible] والقضايا المهمة في [illegible] الإستراتيجي لإسرائيل». وحديث صريح عن «تبني الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة سياسة تقوم على دعم الأقليات غير العربية (العرقية) والعربية الطائفية في الشرق

الأوسط [illegible]
[illegible] الخلف الطبيعي القائم بين إسرائيل وهذه الأقليات.

[illegible] تنبه أيضاً من قبل الحركة الصهيونية وأجهزتها، بدليل أن الوكالة اليهودية بدأت اتصالاتها بالزعماء الدينيين السياسيين الدروز في عهد الاستيطان اليهودي في فلسطين ـ أي منذ الثلاثينات والأربعينات.

وقد اتُّخذ هذا الموقف انطلاقاً من الإدراك بأن هذه الأقليات، وخاصة الدروز في لبنان والأكراد في العراق والدروز في سوريا، والجماعات الأخرى في الأقطار العربية الأخرى، هي شريكة في المصير، ولا بد من أن تقف مع إسرائيل في مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية»[1]..

[illegible] عن حركة «الخط [illegible]» لتنفيذ هذا المخطط، نفهم منه

■ [illegible] غير العربية أو تعايشها مع شعارات هذا [illegible]

■ [illegible] مع تلك الأقليات و[illegible]

■ [illegible] ظروف جديدة لتعميق الاتصالات، وتوسيع دائرتها، لتتحول هذه المرة إلى موقف سياسي ثابت يركز على ضرورة تقديم الدعم العسكري، وعدم الاكتفاء بالدعم

---

(1) ندوة حول: (إسرائيل من الجماعات الإثنية والطائفية في العالم العربي) ص[illegible]، ترجمة [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

السياسي والمعنوي [illegible] إن تطورات وتداعيات أزمة الخليج [illegible]
حتّمت انتقال السياسة الإسرائيلية الثابتة في دعم الأ[illegible]
[illegible] والعملي، [illegible] تحقيق المصلحة [illegible]
[illegible] لأن [illegible] العالم العربي يعني في نهاية المطاف إضعافه وتشتت قواه وطاقاته
التي كان يمكن أن يُعبئها ويحشدها في مواجهة إسرائيل [illegible]

[illegible]

[illegible] المواجهة ضغط الإسلام والمقاومة العربية!! [illegible] أن [illegible]
[illegible] أو جماعة تتحدى القومية العربية (العدو الأول للشعب اليهودي)، أو تبدي
استعدادًا لمحاربتها أو مقاومتها، هي حليف وقوة [illegible] الاستيطان [illegible]
[illegible] في مرحلة التكوين!! [illegible]

[illegible]
[illegible]
فرضها عليهم الاستعمار!!

هكذا تحددت ووضحت الإستراتيجية [illegible]

* فالعرب قد جعل الصراع [illegible] المهيمنة [illegible]
الإسلامي هدفًا أول في صراعه [illegible]

[illegible]
[illegible]

* والمخطط الصهيوني [illegible]
يستهدف تفتيت وتفكيك كل [illegible]

[illegible]

ومذهبية، وذلك لتحقيق الأمن للهيمنة [illegible]
وبنص عبارة (إستراتيجية إسرائيل في الثـ[illegible] «فإن التفتيت هو ضمانة الأمن والسلام لإسرائيل في المنطقة في المدى الطويل [illegible] وإذا لم يحدث ذلك فلا بقاء لإسرائيل، مهما كانت الحدود»!

* [illegible] في مخطط التفتيت. أما مصر فهي ضمان لنجاح الصهيوني [illegible] وبعبارتهم «[illegible] فمتى تفتت مصر تفتت الباقون»!!..

* [illegible] تذروها رياح العلو الصهيوني [illegible]
[illegible]
[illegible] التي علمها الجميع أن «سكس-بيكو» جزأت العالم العربي [illegible]
الولايات العربية العثمانية.. [illegible]
دفاعاً عنها!

وهذا الذي تسميه مخططات التفتيت والتفكيك [illegible] «مجتمعات [illegible]»، و«مجتمعات الموزاييك» [illegible] هو في حقيقته التنوع والتعددية والتمايز الذي حافظ عليه الإسلام [illegible] لا تبديل [illegible] ولا تحويل، مع توصيف هذا التنوع وهذه التعددية [illegible] وحدها الإسلام في العقيدة والشريعة [illegible] في الملل والنحل والأقوام والمذاهب والأوطان [illegible]

فهذه الملل والنحل والأعراق [illegible] موجودة منذ قرون، منها تلوّنت الأمة الواحدة [illegible] جميعها أسهم في صناعة الحضارة الواحدة، وفي تجديدها وإحيائها، وأيضاً في الدفاع عنها ضد الغزاة [illegible] فتنوعها ميزة، ومصدر غنى وثراء، وليس نقيصة، ولا نقطة ضعف، [illegible] العلو الذي لا يرى سوى التنوع والخصوصيات [illegible] العلو الذي لا يرى سوى الوحدة، فينكر الخصوصيات!

وفي ظل تنوع بهذا الاتساع، في أمة بهذا الحجم، وأمام تحديات على هذه الدرجة من الشراسة ... لا يتصور عاقل خلو عالم الإسلام من المشكلات، بل والتوترات لكن القضية هي: ما هو الحل؟

هل هو التفتيت والتفكيك إلى ذرات - في عالم يسلك سبيل التكتلات، ويتحدث عن صراع الحضارات؟ - ... وفي ذلك الكارثة المحققة للجميع؟!

أم التطبيق المعاصر والمتطور والخلاق للمنهج التاريخي الجامع بين «التعددية» وبين «الوحدة»، والذي تمثل التعددية فيه مصدر غنى وثراء، بل وزهو بنيه به على الحضارات الأخرى ... وذلك عندما يعني «التنوع» هذه «الوحدة» الجامعة لأمة الإسلام؟!

[illegible] هي «المخططات الخارجية» [illegible] على [illegible] ١٧٩٨ [illegible] فما هي انعكاسات هذه المخططات على «جبهتنا الداخلية»؟ وما هي خطوط هذا المخطط التنسيقي من [illegible] على جبهات [illegible] العربي الإسلامي على وجه الخصوص؟! [illegible] جبهاتنا الداخلية قد (رشحت) على ثقافات وتوجهات قطاعات منها [illegible] هذه المخططات!!..

• فعلى جبهة البربر الأمازيغ

[illegible] هذه المخططات [illegible] في العقود الأولى من القرن العشرين

فالبربر هم أكبر الجماعات القومية عدداً في الوطن العربي، جمعهم الإسلام بالعرب، [illegible] العربية باعتبارها لغة القرآن والشريعة - أوساطهم الشعبية والعلمية، لكن المخطط الاستعماري [illegible] فصل الإسلام عن العربية، حتى لا يربط الإسلام البربر بالأمة العربية ... وفصل العقيدة عن الشريعة - مع أنهما رئتا الإسلام - وذلك حتى ينتقل البربر من اللغة البربرية - غير المكتوبة

و بعاجرة عن تلبية حاجات العصر - إلى اللغة الفرنسية، وحتى يتقدموا من "أعرف محلية" إلى القنوات فرنسي، فسمك روابطهم مع بعروبة، ومع كامل الإسلام" [illegible] أصبح القنوات عصريًا، وأصبحت اللغة فرنسية، فقدم للفصل والتمييز

يعبر عن ذلك محضر لكتب فرنسي "فكتور مكنة" في كلمة [illegible] - عقد سنة ١٩٢٥م فيقول: "لا يشك أحد في أن اللغة العربية في السهول حيث يسكن العرب، وقد يمكن تعميمها أن اللغة البربرية لا تكتب، [illegible] اللغة العربية هي لغة الشرق، وقد تعلمت "لكتب" [illegible] في الأسواق، وبذلك فوق كل مجهودات يجب أن تنصب على تعليم البرابرة الفرنسية، بلا واسطة لغة أخرى. لقد هيأ سنة ١٩٢٣م للمدرسة برنامجًا فرنسيًا بربريًا له روح فرنسية كاثوليكية. وهذه خطة حسنة لوقف التعامل مع اللغة العربية على أنها لغة التفاهم. ويمكن بسهولة كتابة البربرية بالحروف الفرنسية، كما فعل بالهند البريطانية

وربما لم يمكن عقد الأمل على رجوع البربر عن الإسلام، وبدهم لهذا الدين؛ لأن جميع الشعوب لا تنفي بدون دين في مرحلة تطورها، فيجب أن لا نخشى من ذلك، خاصة وقد يمكن أن نفصل بين الإسلام والاستعراب. وفصل الدين عن القنوات الدنيا، مثلما حدث بوجوب تغيير [illegible] سنة ١٩١٧م في قنوات الأحوال الشخصية. ولذلك يمكن أن ينحصر الإسلام في الاعتقاد وحده. وعلى هذا لا يهم كثيرًا أن تصم الديانة الشعب كله، أو أن أبيت من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها. فالديانة الكاثوليكية تستعمل اللغة اللاتينية والإغريقية والعبرية في قداديسها"[1]

فصبح البربر عن أمله، مخططه: علمنة الإسلام. وفرنسة اللغة. وربما أصبح [illegible] عصريًا، وأصبحت اللغة فرنسية، فلا حضر من "العقيدة الإسلامية" ولا من [illegible] التي تعربت لا تهيئهم [illegible] كمثل [illegible] اللغة [illegible]

[illegible] "لا عرف البربري" بعض شريعة الإسلامية في مسائل من الأحكام [illegible] لا [illegible]

---

[1] [illegible] بين بعروبة والإسلام) ص٥٨، ٥٩

دمجها في الشرع الإسلامي، لاستبعاد الشريعة الإسلامية؛ لأنها رباط حياتي موحِّد للأمة.. وعن ذلك كتب «جورج سوردون» - أستاذ الحقوق في معهد الدروس العليا [illegible] ٩٢٨ [illegible] يجب جمع العادات البربرية [illegible] لئلا تضمحل في الشرع الإسلامي [illegible] العرف يمحي إزاء القانون [illegible] والأولى أن نرى العرف البربري يندمج في القانون الفرنسي من أن نراه يندمج في القانون الإسلامي؛ لأن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في هذه البلاد؟

[illegible]

«فالمقيم العام الفرنسي» في المغرب - المارشال «ليوتي» - يصدر [illegible] بالعمل على استبعاد اللغة العربية؛ [illegible] خطأ فاحش التصرف بشكل يساعد على إعادة إحياء العلاقة بين العرب والبربر، ولا حاجة لنا في تعليم العربية للبربر، فالعربية هي رائد الإسلام؛ لأن هذه اللغة تُعلِّم من القرآن، ومصلحتنا هي أن نمدن البربر خارج دائرة الإسلام، وأما ما يتعلق بالبعثة، فيجب علينا أن نضمن الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية بدون واسطة»[2]!

[illegible] يس مذكرة - رقمها ٣٨٨٨ وإشارتها ch، وتاريخها ١٣ [illegible] «إن مبدأ استقلال العرف البربري [illegible] يحقق أكبر مصلحة سياسية لفرنسا، [illegible] الشرع الإسلامي من جميع بلاد [illegible] بشكل نهائي ومطلق يسمح [illegible] البربرية في اتجاه فرنسي خالص»[3]!.

---

(٢) المرجع السابق ص ٥٨

(٣) المرجع السابق ص ٦٢

[illegible] الشريعة الإسلامية[1]!

[illegible] ومؤسساته ـ قد فاجأتهم خيبة الأمل في الثمرات والنتائج.. فلقد استعصت الروابط [illegible] عرب وأمازيغ.. حدث ذلك في الجزائر وفي المغرب على حد سواء!

[illegible] باريس ـ تقيم في سنة ١٩٧٦م «الأكاديمية البربرية». وتحتضن [illegible] ومؤسساتها الثقافية والإعلامية ـ نفراً من البربر [illegible] ودانوا في الثقافة الفرنسية، وأصبحوا [illegible] من رفض [illegible] الإسلام [illegible] القفز من «البربريزم» إلى «الفرنسة». [illegible] «الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية» و«دمج العرف البربري في القانون الفرنسي، بدلاً من اندماجه في الشرع الإسلامي» كما قال «جورج سوردون» سنة ١٩٢٨م!!

فدعاة «البربريزم»، الذين يحتقرون تراث العروبة والإسلام، لا نظنهم يرون في التراث البربري البديل العصري الكافل بالإقلاع الحضاري! وإنما القضية عندهم هي الإلحاق والالتحاق بالعرب والثقافة الفرنسية.

---

(١) المرجع السابق ص٦٣

[illegible] «مولود معمري» [illegible] الذي يحتقر من تراث العروبة والإسلام، ويدعو للانطلاق من [illegible] الاستعماري [illegible] فيقول: «إن التراث العربي الإسلامي قد تم تجريده من كل مصادر الحياة للوجود [illegible] إنه شكل فارغ، وهو في أقل الأحوال سوءاً مجرد ديكور عبث ولعبة حاوية. وإن المنجزات التي تحققت في العهد الاستعماري وألوان الرقي المادي والتقني التي تسنت فيها مكّن الثقافة الهامشية أو المتعرضة للهيمنة (مثل البربرية) من الأدوات الحاسمة لتحريرها...»[1]!

[illegible] يحتقر تراث العروبة والإسلام، وهو تراث [illegible] العرب [illegible] تراه [illegible] الأمان على [illegible] مكتوبة [illegible] عن «الهجنات [illegible] وبعضها يستعصي فهمه حتى على بعض [illegible] على حين [illegible] البربر [illegible] العربية، وبعضهم [illegible] فقط [illegible] وإنما أيضاً كأداة لأرقى أنواع التعبير الثقافي (من أدب وشعر وفقه) ومن الصعوبة بمكان التمييز بين العرب والبربر، فالعروة الوثقى التي تربطهم منذ القرن السابع الميلادي - هي الإسلام...»[2]!

إن اتجاه «البربريزم»، لا يعدو أن يكون «الثمرة المرة» للمخطط التفكيكي الاستعماري، الذي أفصحت عن معالمه كتابات [illegible] وقوانين علاة [illegible] الفرنسيين [illegible] وهي ثمرة [illegible] والتحذير.

[illegible] ومنطق دقيق، فيقول: «أنا من أصل بربري [illegible] ومع ذلك فإن تاريخي النضالي - على مدى أربعين عاماً - قد ارتبط بالوطنية المغربية والقومية العربية.

لا توجد مسألة بربرية بالمعنى السياسي الحقيقي للكلمة [illegible] فالبربر مندمجون تماماً في مجتمعهم، بسبب الرابطة الإسلامية وبسبب التزاوج المستمر [illegible] والمشكلة - في نظري -

---

[illegible]

[illegible]

هي مشكلة مصالح اقتصادية سياسية، ومشكلة ديمقراطية . فالذين يثيرون "مسألة البربرية" ـ مثلما هو حاصل في الجزائر مثلاً ـ يفعلون ذلك حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية والوظيفية في جهاز الدولة والإدارة الجزائرية، وهؤلاء هم من منطقة القبائل الذين استفرنسوا لمدة وقت طويل، ومن ثم مكّنهم الاستعمار من شغل كثير من المواقع. ومع استمرار موجة التعريب بدت هؤلاء يشعرون بالخطر على مصالحهم، فرفعوا شعار الثقافة البربرية حبّ وشعار الثقافة الجزائرية حب في مواجهة التعريب والثقافة العربية..

وفي الواقع إن من يدعو إلى ثقافة بربرية، في مواجهة الثقافة العربية ـ ينتهي موضوعيًا إلى الدعوة إلى الثقافة الفرنسية، حتى عن غير قصد، فحيث إن البربرية لغة غير مكتوبة، ولا يوجد لها تراث مكتوب، فإن المعركة بينها وبين العربية ستنتهي حتمًا إلى الأخذ بإحدى اللغات العصرية الأخرى، ولما كانت الفرنسية هي الأقرب والأقوى، وهي المتاحة على أي الأحوال، فإن هؤلاء الدعاة سيأخذون بها ومن هنا، ليس صدفة أن فرنسا هي المشجعة الأولى والرئيسية لحركة الثقافة البربرية وقد كان لي ـ كبربري ـ أن أختار لغة وثقافة غير بربرية، فالعربية هي اختياري، وهي اللغة الوطنية، وهي لغة الإسلام، وهي وسيلتي إلى تراث العرب والمسلمين ووسيلتي إلى مستقبل قومي عربي مشترك مع بقية الشعوب العربية [1]

ويدافع [illegible] عن العروبة والإسلام في [illegible] حيث وهو يشرح [illegible] بن باديس (١٣٠٧ ـ ١٣٥٩ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠ م) [illegible] يكتب عن [illegible] عبقرية [illegible] الجزائرية المسلمة لتعريب [illegible] الإسلام، هو المكوّن [illegible] "المزدوج" [illegible] هو الأخير من [illegible] مفكر سياسي [illegible] "الأستاذ أحمد بن بلة" يعبر عن موقف الجزائريين ـ عرب وقبائل ـ من [illegible] فيقول:

"الثقافة البربرية [illegible] وجوده [illegible] عن الثقافة العربية [illegible] واستمرت طوال أربعة عشر قرنًا محافظة على كيانها.. وهذا يعني [illegible]

(١) المرجع السابق، ص [illegible]

[illegible] ذلك مع أساسيات في الجزائر، فلا يعني المحافظة على البربرية إلغاء العربية، أو محو عروبة الجزائر [illegible] في المغرب الكبير - أصلاً من البربر، ولكن أغلبيتنا أصبحت عربًا، بحكم تبني اللغة العربية والإسلام [illegible] وأنا أحذر الإخوة البربر دائمًا من مغبة انزلاق المطلب البربري إلى خطائر أجنبية! [illegible] الأجنبي، بقدر ما أريد تحذير المسئولين العرب في الجزائر وغيرها من دفع أي من أشقائنا في الوطن للوقوع في هذه الخطيرة [illegible] هناك فرنسيون وخاصة من [illegible] وبهم مآرب أخرى في تأييد وإذكاء البربرية. وأنا لا أتهم أي جزائري في وطنيته - سواء كان عربيًا أو بربريًا - ولكن مطالب بعض الفئات المشروعة تُستغل أحيانًا بواسطة قوى أجنبية، ويصدق عليها عبارة علي بن أبي طالب «حق يراد به باطل»[1].

تلك هي حقيقة «الموقف - والمواجهة» على جبهة البربر الأماريغ، أكبر الأقوام غير العرب عددًا في الوطن العربي - ١٥,١ مليون - [illegible] الاستعماري - «جزءًا من الثقافة الإسلامية في المغرب» [illegible] [illegible] في «سجنهم» [illegible] الثقافة الفرنسية، فسعوا ويسعون - تحت شعار «البربرية» [illegible] [illegible] الإسلام أيضًا!

[illegible]

[illegible] في خطر) ص ٢٦٤، ٢٦٧ [illegible]، مجدي عبد الكريم، سامية الشامي [illegible] سيد أحمد، طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م

• وعلى جبهة الأكراد

[illegible]

[illegible]

فقهوا بها القرآن والشريعة والعبادات.. وهي لغة الفقه والعلم [illegible]

[illegible]

لكن سقوط الخلافة الإسلامية قد اقترن به تراجع الصيغة الإسلامية للتعايش بين القوميات في دار الإسلام.. الصيغة التي رأت في التمايز القومي المؤسس على التمايز اللغوي - آية من آيات الله في الاجتماع الإنساني.. وحل محل هذه الصيغة لدى قطاع من الحركة القومية العربية، فكر قومي مشبع بمضامين عربية، رشحت عليها النزعات العنصرية، الأمر الذي أدى - بهذه المفاهيم القومية العربية - إلى فتح ثغرة بين القوميتين - العربية والكردية، عندما تبنى نفر من أبنائهما ذات المفاهيم العربية العنصرية في البعث القومي!..

وكانت الثغرة الثانية التي تم منها الاختراق.. هي التجزئة والإقليمية التي أقامها الاستعمار على أنقاض صيغة الخلافة الإسلامية التي وحدت دار الإسلام رغم تمايز الأقاليم والولايات، فلم تقم الحدود والسدود والجنسيات أمام أبناء الأمة الواحدة، بقومياتها المتعددة.. وفي حقبة الاستقلال تجسدت هذه التجزئة الاستعمارية وتكرست [illegible] التي [illegible] أوصال الأمة [illegible] الإسلام

---

(١) (الملل والنحل)

وكان الأكراد صحية لهذه التجربة إذ على الرغم من تواصل المنطقة التي تعيش فيها أعدادهم، جزأتهم هذه الإقليمية والقطرية، فأحقدوا بخمس من الدول القطرية، الأمر الذي أذكى المشاعر القومية في صفوفهم، وفتح الباب للمفاهيم القومية الوحدة، ذات الطابع العرقي والعنصري..

ومن هاتين الشعرتين - اللتين صنعتهما القوى المعادية لوحدة الأمة - تسللت هذه القوى لتواصل مخطط التفتيت والتفكيك!!..

لكن الحدث الذي مرت به علاقات الأكراد بالعرب - في طل هذه العقود الأخيرة - جعلت الجيوب العنصرية والنزعات التفتيتية تتراجع، وتضمحل صفحها كما جعلت الكثيرين من الذين حاصروا الكثير من هذه التجربة يدركون أنهم صحيح لاحتواء الحدث، وليس بأي حال من الأحوال محل عطف قوى التحرر والاشتراكية فارتفعت أصوات العقلاء تأكيداً على الروابط التوحيدية، ورفض نزعات التعصب والانفصال. وقرأ زعيم حزب الكردستاني المسعود البرزاني قوله: "نحن لسنا دعاة انفصال عن العراق، ونحن أعداء للأمة العربية.. ونحن مناهضين للوحدة العربية إننا لن نعارض أبداً في دخول العراق في أي مشروعات وحدوية عربية وإنشاء مجلس الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق سنة ١٩٦٤م. مثلاً وراسل الزعيم الراحل جمال عبدالناصر تؤكد تأييدها لمشروع الوحدة، وثقتها بقيادته وبرهانه، وإيمانها بأن مطالب الكردية المشروعة ستجد حلها في أي مشروع عربي وحدوي - مكانها اللائق لقد كان كل كردي يؤمن بأن عبدالناصر متعاطف مع آماله المشروعة.

وبالأمانة: لا يمكن أن أنفي أنه توجد بين بعض الأكراد اتجاهات عنصرية شوفينية معادية للعرب وللعروبة، ولكن هذه العناصر محدودة جداً من الناحية العددية، وليس لها نفوذ معنوي أو سياسي.

إن الجماهير العربية تعرضت وتتعرض للقهر والاضطهاد أنفسهم.. وإن اختلفت الدرجة.. إننا - كحركة تحرر وطني - نؤمن إيماناً راسخاً أن موقعنا الطبيعي والتاريخي هو مع الأمة العربية..»[1].

(١) المرجع السابق، ص٢٦٢-٢٦٤.

ونوجه الدكتور إبراهيم نصيحته في قصيدة «مصير الكردي» فيتحدث الدكتور محمد محمود عبد الرحمن - الذي مرت مسيرته السياسية بتجربة الحزب الشيوعي، فتجربة الشعب الديمقراطي الكردستاني فتقول «إن العلاقة بين الأكراد والعرب هي علاقة تاريخية خاصة، تضرب بجذورها إلى أكثر من ١٣٠٠ سنة من التاريخ المشترك، وإن القوميتين العربية والكردية هما قوميتان متاخيتان، وإن صلاتهما الثقافية تشترك في معظم أسسها الإسلامية، وتمتدان في توحيد آخرانهما مسيرة، وتقفان مع حركات التحرر الوطنية في جميع أنحاء العالم، يجمعهما التراث المشترك في الدين والتاريخ والجوار الجغرافي وتفصلهما الدين كطريقة للحياة وكنظرة كونية، وسر تفوقه كعقيدة وعقوس ويجمعهما التطلع للاستقلال والتحرر من الظلم والاستغلال والتخلف والتبعية ومن هنا كان توحدهما مع عبد الناصر، فهما كانا يشعران ويلمسان مشروعه التي لم ير فيها تناقضاً مع الأمن القومية العربية.

إن الأرضية المشتركة الكردية العربية مؤيدة بالجغرافيا والمتداخلة مع كل قضاياهما، في فلسطين في الوحدة العربية، ذلك يستند إلى وحدته التاريخية ووحدته المصيرية».

أما الدكتور محمود عثمان وهو مثقف كردي وعضو قيادي في الحزب الاشتراكي الكردستاني فيقول «إن الأكراد شعب قديم، يرجع تاريخه إلى ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد، ويرجع أصله إلى جبال القوقاز الشمالية، وإن لغته هندو أوروبية، من عائلة اللغات الهندية. منذ أتى العرب المسلمون إلى وادي الرافدين، منذ أربعة عشر قرناً، اختلط تاريخ وحضارات تاريخهم وحضارتهم، وربط بيت وبينهم الدين الإسلامي.. فمشكلتنا المعاصرة بدأت مع المشكلات المعاصرة لكل شعوب وقوميات المنطقة في أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية. وأنا شخصياً - ومعظم القيادات الكردية - نؤمن بصراحة بأن تطورنا السياسي والاقتصادي والثقافي يمكن أن يتم بشكل أفضل في إطار وحدة وطنية عراقية، وفي إطار وحدة الأمة العربية..»[٢]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٦

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٩، ٢٧٠

[illegible] هي شهادات [illegible]

[illegible] . وأخطر ما في هذه الشهادات .. هو قول [illegible] «إن مشكلات المعاصرة بدأت مع المشكلات المعاصرة لكل شعوب وقوميات المنطقة، في أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية»

فقبل التدخل الاستعماري، والتجزئة التي مزق بها الاستعمار جسد العالم العربي والإسلامي، كانت الصيغة الإسلامية «أممية إسلامية» تتنوع فيها وتتمايز الشعوب والقبائل والأقوام والملل والنحل والمذاهب في إطار وحدة الأمة والحضارة والدار.

وبالتجزئة الاستعمارية، والفكر القومي العنصري الذي المذاهيم العربية الوافدة، فتح الغرب الاستعماري الثغرات، وظل يسعى من خلالها لتفتيت العرب والمسلمين، ليلحقهم كشر دم ودراب، وكهو مش وتوابع النموذجه الحضاري.

فالصيغة الإسلامية للتعايش - تتنوع في إطار الوحدة - هي طوق النجاة للجميع!

أما النزعات القومية، التي تمثل نكوصاً عن الأممية الإسلامية فلقد ظلت «ألغاماً» في العلاقات بين القوميات الإسلامية، يحرسها الاستعمار حتى يحين الحين لتفجيرها تجزئة وتفكيكاً لعالم الإسلام - كما حدث بعد الغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣م.

• وعلى جبهة الموارنة

[illegible] الموارنة كاثوليك [illegible] قيادته غربية، فهناك كاثوليك عرب طلب [illegible] عند حدود «اللاهوت»، ولم تصبح لهم «مشكلة سياسية» [illegible]

صحيح أن الارتباط المذهبي المارونى بالمذهب الغربي للنصرانية قديم، [illegible] مجمع! . لكن «المارونية السياسية» نشأت عندما [illegible] شريحة من المارونيين [illegible]

للاحتراق! وذلك أن المذهب الديني في ديانة تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وتجعل مهمتها خلاص الروح، ورسالة كنيستها مملكة السماء، لا الدولة والأرض والسياسة والعمران الدنيوي. إن المذهب الديني في ديانة كهذه - لا يثمر بالطبيعة «مارونية سياسية» تتعلق بالنموذج الحضاري العربي، والثقافة الفرنسية، وتعمل على الانسلاخ من العروبة القومية والإسلام الحضاري!.

[illegible] «نحن مقتنعون بأن هذه الأمة - (الجماعة) - التي تعرف باسم القديس مارون، هي جزء من الأمة الفرنسية»

[illegible] جماعة عربية كاثوليكية الدين، بالحماية [illegible] يعتبرهم الغزاة جزءاً منهم، وامتداداً لهم في قلب الوطن [illegible]

[illegible] الاستعماري العربي الحديث تواصل الاحتراق. [illegible] «فتحاً بواسطة اللغة» والقنصل الفرنسي يعتبره «سيطرة على الشعب، تخلق جيشاً مارونياً يتفانى في خدمة فرنسا»! فيكتب «بول موفلان» Paul Muvelin - [illegible] «إن تعليم الناس لغتنا - (الفرنسية) - لا يعني مجرد أن تأتي ألسنتهم وآذانهم بصوت فرنسي، بل إنه يعني فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى العواطف الفرنسية حتى تجعل منهم فرنسيين من زاوية ما [illegible] إن هذه السياسة تؤدي إلى فتح بلد بواسطة اللغة..»!!.

وفي مذكرة كتبها القنصل الفرنسي [illegible] «إنه حين ننشر في هذا

[illegible]

بلد ـ بواسطة اللغة الفرنسية ـ التعليم، و الأخلاق، و لعلوم المفيدة، والزراعة، فإنه سوف يسيطر على الشعب، وسيكون لفرنسا ـ وفي كل وقت ـ جيش متفان»[1]

وفي مذكرة أخرى ـ بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٧م كتب شاسلس دي لاتينو DE Lattenaad إلى وزارة الخارجية الفرنسية ؛ يطالب بإنشاء المزيد من المدارس بمنطقة بحيرة؛ لأنها تساعد على «جعل البربرية العربية ـ (؟!) ـ تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية الفرنسية»[2]

ومن الواضح أن هذا الاختراق قامت «الإرساليات التبشيرية» كسلاح في مواجهة الإسلام الحضاري، والتحالف بالنموذج الحضاري الغربي و لثقافة الفرنسية ؛ بوصفها قدم للمشروع الفرنسي في الوطن العربي.

و لمنافسة الاستعمارية بين الدول الغربية رغم وحدة الهدف الذي كانت تسعى إليه في مواجهة العالم الإسلامي ـ فكانت هذه المنافسات الاستعمارية وراء الكثير من الصراع السياسي و لعسكري و لثقافة الدامية التي حدثت بين الطوائف المسيحية في العالم الإسلامي بوجه عام، ولبنان و لعراق و لشام و لأقباط و لأرمن و لسوريين بوجه خاص، في حين أن الأمة العربية نجح الاختراق الاستعماري في تمزيق بعضها ـ و نجح في تمزيق بعضها إلى وقود للحرب و لصراعات، عندما استدرجها بعيداً عن الوحدة الإسلامية الجامعة و لانتماء العربي الواحد ـ وفي مذكرة وجهتها لمفوضية البريطانية في بغداد إلى وزارة الخارجية البريطانية في لندن بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٤م ـ نجد

إن كل مذبحة حدثت أيام العثمانيين كانت لها خلفيات سياسية ـ ولو جرت ـ فقد حاول الروس مساندة الأرمن واستقلالهم ضد السلطة، فأثاروا جميع الأتراك، وساندت فرنسا الموارنة، فكان موقفها عاملاً في وقوع مجزرة سنة ١٨٦٠م ـ ومشاكل الأشوريين في العراق، التي وصلت إلى ذروتها بمذبحة سنة ١٩٣٣م، كانت ـ إلى حد ما ـ نتيجة تحت الأشوريين ـ وخاصة مارشمعون ـ لقد تحد الأشوريون هذا الموقف معتقدين أنها في نهاية سنجر إلى التدخل وإلى بسط حمايته عليهم ـ وفي نفس حدثت مجزرة الخليل سنة ١٩٢٩م وغيرها من مجازر بسبب العامل الخارجي إن

(١) مرجع السابق، ص ٧٣ ـ وهو نقل عن الوثائق الخاصة بالسياسة ـ وزارة الخارجية الفرنسية مجلد ٢

الاضطهاد الدموي غريب عن تاريخ السوريين، من الممكن أن يحصل هذا بعض التمييز و لاضطهاد . إلا أن المجازر الكبرى كانت دائماً حصيلة لتدخل الخارجي »

[illegible] نموذج الإسلامي [illegible] لم يكن هذا [illegible] دموي [illegible] الحرق [illegible] لاستعماري [illegible] صوائف [illegible] هذه الطوائف في المجازر الكبرى» [illegible] الحرق في [illegible] الإسلام عن جسم المجتمع الأمة، و لانتحق [illegible] في [illegible] وعن الأمة وحقت [illegible] وكان لابد [illegible] المجتمع السوري وغير المجتمع من مشكلات وتوترات بلغت درجة المجازر التي حدثت فيما بعد [illegible] و[illegible] و سياسي دروي «الحزب المعرب» [1924 - 1995م] عن وجهة [illegible] عن العرب، و عندهم يكن ما هو غربي، فيقول: «إن المأزق السياسي و الحضاري للعروبة هو أنهم لا يرون العرب المسلمين داخل وخارج لبنان على صورة الغرب الكاثوليكي. ولم يتم مسخ العرب المسلمين ليصدقوا صورة العرب المسيحي فهم غير مقتنعين تماماً من العروبة . وما كان مسخ العرب المسلمين على هذه الصورة يكاد يكون مستحيلاً، فسيظل العروبة على موقفهم.. وهذا المأزق الحضاري السياسي تحول خلال الحرب الأهلية إلى مأزق سياسي عسكري.. وقد حاولوا الخروج من المأزق بالتحالف مع الشيطان، أي إسرائيل»[2] .

فالإسلام عن [illegible] و حضارة [illegible] تجعل [illegible] مستحيلة تجعل من [illegible] المجتمع [illegible] دور «[illegible]» في [illegible] الأمة [illegible] «ثغرة الاختراق» الذي يقضي إلى كارثة لا تقف آثارها عند طرف واحد عن الأطراف!

• وعلى جبهة الأقباط الأرثوذكس

تواصلت محاولات الاختراق و[illegible] وتعددت سبله ووسائله.. فالأقباط الأرثوذكس يمثلون أقدم وأعرق الكنائس الوطنية الشرقية وأكثر الطوائف المصرية

---

(2) [illegible] ص ٧٩ [illegible]

(٢) [illegible] ص ٦٤١، ٤٢

[illegible]

على مصر (١٧٩٨ـ١٨٠١م). ثم استمرت عبر البعثات التبشيرية [illegible]

[illegible]

[illegible]

الأمة العربية والحضارة الإسلامية. وواصل الاستعمار الإنجليزي [illegible]

[illegible] إبان احتلاله لمصر (١٨٨٢ـ١٩٥٦م)

وفي المخطط الصهيوني رأينا التركيز على تفتيت مصر من ثغره الطائفية الدينية، [illegible]

حديث عن «تقسيم مصر إلى دولتين على الأقل، واحدة إسلامية وثانية قبطية» وفي «إستراتيجية إسرائيل في الثمانينيات» حديث عن «أن رؤية دولة قبطية مستحبة في صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية ـ مصرية، لا سلطة مركزية ـ كما هو الوضع الآن ـ هي مفتاح هذا التطور التاريخي [illegible] فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون..»!.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

التفتيتي.

ورأينا مراكز أبحاث ودراسات تحترف تسليط كل الأضواء على «هموم [illegible]» وكأنما هذه الهموم خاصة بهذه «الأقليات»!... وحترف تزييف أرقام أعداد هذه «الأقليات» [illegible]

[illegible] عن «أقليات» و«أغلبيات» [illegible]

حجم «الأقليات» وحجم «همومها» بأن العقبات أمام وحدة الأمة كأداء تستعصي على الاجتياز! [illegible]

[illegible] «الأقليات» [illegible]

إلا مقاصد التفتيت..

[illegible] الدكتور سعد الدين إبراهيم [illegible] سنة ١٩٨٨ [illegible] (المجتمع [illegible] الوطن العربي) وقدم فيه إحصاءات عن «الأقليات»، فلما نشر كتابه الضخم (الملل [illegible] هموم الأقليات في الوطن العربي) أوائل التسعينات [illegible]

[illegible]

[illegible] سنة ١٩٨٠ [illegible] ١٩٩٠ [illegible]!!

[illegible] سنة ١٩٨٨ [illegible] سنة ١٩٩٤ [illegible] الأمة وتوسيع ثغراتها [illegible] النظر عن النوايا والمقاصد، التي لا يعلم حقيقتها إلا الله.

* فالمسيحيون العرب - بكل طوائفهم - عند الدكتور سعد الدين إبراهيم - في سنة ١٩٨٨م - تعدادهم ٧,٨٠٠,٠٠٠ وهو يقفز بهم أوائل التسعينات - أي بعد عام أو عامين إلى ١٢,٠٠٠,٠٠٠؟! بينما تجدهم في (أطلس معلومات العالم العربي) في سنة ١٩٩٤م - ٧,٠٠٠,٠٠٠ فقط؟!

* والأقليات اللغوية (القومية) في الوطن العربي، هي عند الدكتور سعد - في سنة ١٩٨٨م - ٢٠,٠٥٠,٠٠٠ وهو يقفز بها أوائل التسعينات - أي بعد عام أو عامين - إلى ٢٩,٧٢٥,٠٠٠؟! بينما تجدها في (أطلس معلومات العالم العربي) - في سنة ١٩٩٤م - ٢٣,٧٠٠,٠٠٠ فقط لا غير؟!

والمتتبع لهذه الفوضى الإحصائية يجد الدكتور سعد الدين إبراهيم يضيف الحجم

« الأقليات» فى الوطن العربى ـ وفق تقديراته الخرافية ـ ٠٠٠ ,٠٦٥ ,١٤ . أى قرابة الـ ٢٩٪ من مجموعها؟!( )

* ويبدو هذا الأمر حصراً [illegible] بى هذه « الحجج» [illegible] بعضه هذه « المعلومات» بهذه « الأقليات» فى ضوء «الحقائق» التى تقول:

(أ) إن مقابلة «الزنجية» ـ مثلاً ـ بالعروبة والعربية فيها وهم كبير فالعروبة جامع موحد، بينما «الزنجية» هى على الأقل تسع عشرة مجموعة عرقية!! والعربية جامع موحّد . بينما الزنوج ـ فى جنوب السودان ـ يتحدثون حوالى مائة لهجة! وأغلب الزنوج يتحدثون العربية، أو إحدى لهجاتها، أو يستخدمون فى لهجاتهم الكثير من الكلمات العربية..

(ب) وإن مقابلة «الوثنية الزنجية» بـ «الإسلام» فيها وهم كبير فالإسلام جامع موحّد. بينما الوثنية الزنجية أخلاط متعددة من العقائد الأرواحية. كما أن نسبة الذين عتنقو الإسلام من الزنوج تزيد على ١٨٪ ونسبة المسيحيين منهم تبلغ ١٥٪!.

(ج) وأن مقابلة الأمازيغية بالعربية فيها خداع كبير. فالبربرية لهجات عديدة، وشفاهية غير مكتوبة. وليس فى البربر من لا يتكلم العربية على نحو ما. فهى لغة الدين الذى به يتدينون، والقرآن الذى له يقدسون، وآياته يحفظون وبه يصلون ومنهم العلماء والأدباء والشعراء والمثقفون فى العربية بل وأبرز دعاة التعريب!.

(د) وإن مقابلة الكردية بالعربية فيها خداع كبير. فالكردية وإن كانت لأحاديثها عربية. وليس بين الأكراد من لا يتحدث بالعربية، لأنها لغة القرآن والدين والتراث الذى به يؤمنون وبه يعتزون ولأعلامهم وعلمائهم فى تراث العربية الإسهامات والإبداعات..

(هـ) وإن مقابلة المصرية بالإسلام فيها وهم كبير فالخلاف الإسلام مع المصرية ليس فى الشريعة، التى تمثل مرجعية الدولة والحضارة والقومية والاجتماع والتراث

[illegible] ص ٢٤ ٢ ، [illegible] ص ٢٢ ٤٠ ، ٩٥ صفحة [illegible] ٩٩٤ م [illegible] ص ٢٨ ٣٦ صفحة [illegible] ٩٩٠ م

وسمات الاندماج وتطور الأمة ووحدتها ... لأن النصرانية لا تقدم بديلاً للإسلام في مرجعية النظم والتدابير الدنيوية وصياغة القسمات الموحدة للأمة، والجامعة لقوميتها، والمكونة لهويتها ... وليس بين الإسلام والنصرانية خلاف في منظومة القيم الحاكمة لأخلاق الأمة وسلوك المؤمنين بهما ... وليس بين الإسلام والنصرانية خلاف في سمات وقسمات القومية العربية.. وخلاف الشريعتين لا يتعدى حزئية اللاهوت الخاصة بالتثليث، وهي التي لا دخل لها في مكونات الاجتماع المشترك بين أبناء الأمة العربية، المتدينين بالنصرانية والإسلام

وهكذا .. إذا نظرنا إلى «حجم وعدد» «الأقليات»، في ضوء هذه «الحقائق»، صار «وزن التميّز» الذي تمثله «الفروق» في مقابل «الجوامع الموحّدة» التي تجمع الأمة وتوحدها، وتميزها كأمة واحدة..

فهي «الاضطهاد» يختلق مجموعة من «الخرافات» يحبو غيبها، ويوسع لها ... وجودها في ... خلافه غيبها ـ شاهد على أن وجوده ... يعني وجوداً متفرداً ...

فهو يشوه في ... وحدة ... في ظل مجتمع ... يسمح بالتشفي ولا بالتشرذم ولا بالتفكك!

وبهذا المنهج لا تصبح للأرقام ـ قلّت أو كثرت ـ تأثيرات على وحدة الأمة ... لكن تربيتها ـ بالمتابعة فيها ـ له انصدعات سلبية، إذا هو وُظّف في إطار مخطط انتقلت!!

و... الذي يرجح ... وصف "... الاختلاف" في حدته ... يختلق بالتفكك، هو "الحيز" الذي تفرضه هذه "المشاجرة" على المجتمع ... موحدة لا يكتفي ... وحصر ... فجعلته شيعاً ... دويلات ... في كل ... بحيث لا ... يسمح ... حلاً يضع ... ويرعى أن التطبيق ... والمنع ـ «لعبدر لية» يمكن أن يخلق ... وطبيعيّ حديثٌ مكافئٌ لـ «نصم لمة» الذي كان معمولاً به في «الإمبراطورية الإسلامية السالفة»[1]!

(١) د. سعد الدين إبراهيم ... لأزمة في الوطن العربي» ص ٢ ... سنة ١٩٩٥م

هو يتجاهل - بهذه المقارنة الغريبة - أن «نظام الملل» كان يمثل تعددية غير سياسية - تعددية في الشرائع الدينية خاصة بحكم طبيعة النصرانية بأحوال الأسرة والشعائر العبادية والاعتقاد الديني دون أن تؤثر في السمات الموحدة للدولة والأمة. بينما هذه «الفيدرالية» التي يقترحها هذا التوجه التفكيكي هي تعددية سياسية في «الأرض» - الوطن - و«البشر» - الشعب. تطرف للتشاؤم الذي أحدثته «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦م. وليس هذا مجرد استنتاج من مقتضيات ومقدمات هذا التوجه. فصاحبه هو الذي يقول: «إن المجتمعات التي تتسم بالتعددية الإثنية في الوقت الحالي ينبغي أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضاً».

فمقاصد هذا التوجه هي المزيد من التجزئة السياسية للوطن العربي [illegible] الواحدة، انطلاقاً من تعظيم حجم «الأقليات» [illegible] أعدادها [illegible] الأضواء على «همومها» بعد عزلها عن «هموم الأمة».. لتبدو أ[illegible] [illegible] و«مجتمعات موزائيك»، لا تجمعها جوامع الأمة الواحدة.

[illegible]

«من وجهة نظر حضارية، مصر بها ساقان، هما إسلام مصري، ومسيحية مصرية، والساقان ترتكزان على رقائق من الحضارات السابقة. والمصري - من ناحية الشكل - سني الوجه، شيعي الدماغ، قبطي القلب، فرعوني العظام»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢

(٢) د. ميلاد حنا، نشرة (المجتمع المدني - العدد ٥٠ فبراير سنة ١٩٦٦م، ص ٣٧) وهي نشرة يصدرها «مركز ابن خلدون للدراسات الإ[illegible] والذي يرأسه الدكتور سعد الدين إبراهيم»!!

وهو تصور يصل في التفكيك إلى «حد [illegible]» وذلك عندما لا يقف عند تفكيك [illegible]

[illegible]

[illegible] في إطار «الجوامع» والتي تحترف إثارة [illegible]

[illegible]

والتي يقول فيها: «ويعتبر مجرد تحريك الأقليات عملاً إجرامياً، لما قد ينجم عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر [illegible] وهو يذكي النار في مشاعر الأقليات في المنطقة، ويوجهها نحو المطالبة بالاستقلال»[1].

[illegible] قبل أن يبتلع هذا «الطعم السام» نفر من [illegible] معقول أن يتبنى البعض [illegible]

[illegible]

[illegible] منذ سنة ١٩٧١م وعلى صورة بين قطاع كبير من [illegible] المهجر [illegible] قد أصبحت أمام «تيار العربي طائفي» يحلم بتغيير الخريطة [illegible] الهوية في الشرق [illegible]

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٧٤٧

(٢) المرجع السابق ص ٧٤٣ و(الأقليات بين العروبة)

و حيرٌ شيعة المتعوبين لصنوبون على أرض العراق، بعد غزو الأمريكي بلاد الرافدين سنة ٢٠٠٣م..[1].

* * *

لكن ... وبحسب خط فيلي هذه الأصوات التي ستدرجت في خدمة مخطط استعماري، أو التي رشحت على توجهات أصحابها مقولات هذا المخطط.. قد صنعت مشهود ... و شعر" الذي يثبت أن جمهور أبناء هذين الوطنين العربيين وعلى اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، ومختلف المنتمين لهذه الوحدة

وقد كان سعيد «أكرومي» (١٩٤١ ـ ١٩٨٧م) قد درس في مطلع شبابه في مسقط رأسه في حيفا في مدرسة الأخلاقي و معه و بروح»[2] فيه «مشير عسق» (١٣٢٨ ـ ١٤٠٩ هـ/ ١٩١٠ ـ ١٩٨٩م) قد رأى هذا الجامع الحضاري عامّ في كل الأمة العربية فكتب يقول: «لا يوجد عربي غير مسلم. فالإسلام هو تاريخنا، وهو بطولاتنا وهو بعثنا، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون.. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم. وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم، إذ كان هذا العربي صادق العروبة، وإذا كان متحرراً من الأهواء، ومتجرداً من المصالح الذاتية. وإن المسيحيين العرب ـ عندما تستيقظ فيهم قوميتهم ـ سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم.. ولئن كان عجبي شديداً للمسلم الذي لا يحب العرب، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام»[3]!..

والزعيم الوطني القطري الثائر «مكرم عبيد» (١٣٠٧ ـ ١٣٨٠هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦١م) هو القائل: «نحن مسلمون وطنًا. ونصارى دينًا، اللهم اجعلنا نحن

---

(١) انظر: د. سليم مجلب [ألقاط غير مريح] ص ١٨٤، ١٨٥ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٧. وانظر كذلك دراستنا [عن الكنيسة والدولة و«المسيح الإسلامي لمصر»] ـ مجلة [المنار الجديد] ص ٤٧ ـ ١٦٥، العدد ٣٩ ـ صيف سنة ٢٠٠٧م.

(٢) «المسلمون بين العروبة والإسلام» ص ٩٣

(٣) «الكاملة السياسية الكاملة» ج ٣ ص ٣٣، ٢٦٦، ج ٥ ص ٦٨. طبعة بغداد سنة ١٩٨٧م، وسنة ١٩٨٨م.

المسلمين لك، وللوطن أنصارًا، واللهم اجعلك نحن نصرى لك، وللوطن مسلمين»

و[illegible] الأقباط لأرثوذكس [illegible] شنوده الثالث» هو القائل في تصريحاته المعلنة في ص قوة الدولة: «إن الأقباط في ص حكم شريعة الإسلامية يكونون أسعد حالاً وأكثر أمنًا، وقد كنا كذلك في الماضي. حيث كان حكم الشريعة هو السائد [illegible] نحن مستعدون إلى أن نعيش في ظل الإسلام وعندهم ما عندنا» إن مصر تحت قوانين من خارج حتى الآن، ونصفها عندنا، ونحن ليس عندنا في الإسلام قوانين مقصية، فكيف نرضى بقوانين مخلوطة، ولا نرضى بقوانين الإسلام؟»[2]

و[illegible] الكاتب سكي «حديثه» يقول: «أوافق تمامًا على أن أكون مصريًا، مسيحيًا، تحت حضارة إسلامية.. بل أن مسلم ثقافة مائة في المائة. أنا عصو في الحضارة الإسلامية كما تعلمتها في الجامعة المصرية. تعلمت أن النبي ﷺ سمح لمسيحيي اليمن أن يصلوا صلاة القداس في مسجد المدينة. فإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذه الصورة التي تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحي، والتي تعلي من قيمة الإنسان كخليفة عن الله في الأرض.. فكيف مسلمون حضارة وثقافة. وإنه ليشرفني، وأفتخر أني مسيحي عربي، أعيش في حضارة إسلامية. وفي بلد إسلامي. وأسهم وإياي - مع جميع المواطنين - هذه الحضارة الرائعة»[3]

و[illegible] الكاتور عادل شكري في جملة صدق مع حقيقته - هو القائل: «إن الحضارة الإسلامية هي الانتماء الأساسي لأقباط مصر، وعلى الشباب القبطي أن يدرك جيدًا

---

(١) د. محمد عمارة: الإسلام والسياسة (الرد على شبهات العلمانيين) ص٢٠٢، ٢٠٣ طبعة القاهرة سنة ١٤١٣/ سنة ١٩٩٢م. وطبعة مكتبة الشرق الدولية سنة ٢٠٠٧م، وصحيفة (الوفد) - العدد ٢١ يناير سنة ١٩٩٣م

(٢) صحيفة (الأهرام) - العدد ٣٦ سنة ١٩٨٥م - [illegible] على لسان شنودة نفسه بالكلمات على [illegible] الكاتدرائية المرقسية [illegible] بالعباسية بحضور [illegible] طلبت فيه أقباط تطبيق شريعة الإسلامية على كل شعب المصري - انظر [الأهرام] نفس العدد

(٣) الإسلام والسياسة - الرد على شبهات العلمانيين) ص ٢٠٥ - وهذه العبارات وردت في [illegible] بمجلة [illegible] الأهرام [illegible] بمصر الجديدة في ٩ نوفمبر سنة ١٩٩١م

أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هي حضارته الأساسية بهذا الانتماء الأساسي لكونه مواطنا صحيح أن لديه حضارات عديدة من تعرفونه في اليوم، ولكن حضارة العربية الإسلامية قد ورثت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت هي الانتماء الأساسي، والذي يدونه يصبح أعوص في صميم انتمائي كعربي من مصر في الإسلام حضاري وثقافي، ودون هذا الانتماء يصبح في ضياع مطلق وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقا مع عقيدته الدينية [illegible] لأن الإسلام وحد العرب، وكان عاملا توحيديا للشعوب والقبائل والمذاهب [illegible]

[illegible] التقت الطائفي - الخارجي منها، [illegible] بعض التوجهات

[illegible] وقال الأستاذ موسى: استقبل شباب الكنيسة القبطية [illegible] نحن كأقباط لا نشعر أن أقليات؛ لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقي [illegible] لأننا مصريون، والجذور واحدة كأقباط، بمعنى أنه يجري في دم واحد من أيام الفراعنة، ووحدة المسألة العرقية تجعل المتحدين مهما اختلفت هناك طبعا التغييرات التي تكون بفعل الأقوى والأوضح لوحدة العرقية، ولا نشعر نحن كأقباط بشعور الأقلية المعيض الذي يعاني منه العرب، نحن أقلية عددية فقط، ولكن هذا لا يجعلنا نشعر أن هناك شرخا بيننا وبين إخواننا المسلمين من جهة الهوية العربية، نحن مصريون عرقا، ولكن الثقافة الإسلامية هي السائدة لأن كانت الثقافة القبطية هي السائدة قبل دخول الإسلام، وأي قبطي يحس في الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية، يتحدث بها بتلقائية ودون شعور بأنها دخيلة، بل هي جزء من مكوناته [illegible] نحن نحب العربية لأنها هوية ثقافية، ومقتنعون بأن فكرة العروبة فكرة سياسية وقصدية وثقافية، بالإضافة لوحدة المصير المشترك والعلاقة بين الجذور والعروبة علاقة تاريخية، هذه دوائر متداخلة [illegible] تاريخ القبطي من الحضارة، حسبما يدرك الأقباط أيام الدولة الإسلامية كانوا مع إخوانهم المصريين [illegible] المشترك

[illegible] ١٤هـ ٢١ يناير سنة ١٩٩٣م

في عهد الوالي العثماني ومجيء محمد علي، وكان جرجس الجوهري أحد قدة الأقباط، وكذلك إبراهيم الجوهري أخوه، وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح في الحياة السياسية في عهد محمد علي. ولا أقباط دورهم بعد الثورة سنة ١٩٥٢م تقلّص كثيرًا من الناحية لتشمل في المشاركة بمصر، كانت هناك سياسية شاملة. ولما أعتقد أن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية، لقد انغمس المسيحيون في الحياة العملية فهم أطباء وصيدلة ومهندسون، وغيرهم من مهن، ونسبتهم أيضًا في رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية في مصر.

نحن نرفض المسيحية السياسية لأن المسيح قال «مملكتي ليست من هذا العالم» ولو حدثت المسيحية السياسية تصبح انتكاسة على المسيحية، كما حدث في العصور الوسطى أيام كان البابوات هم الذين يديرون الإمبراطور ويصنعونه، هذه هي المسيحية السياسية التي نرفضها؛ لأنها تختلف عن المسيحية. مصر دائمًا دولة مسلمة ومتدينة ولكن بدون تطرف، ولو عشنا كمسلمين وأقباط وفي إطار صحوة إسلامية مصحوبة بصحوة وطنية فسيكون المستقبل أكثر من مشرق.

نحن في مصر نسيج واحد، وسعداء بذلك، وهذه حماية إستراتيجية لنا كأقباط. ونحن نعيش بسلام، ويستحيل أن [illegible] مصر. وتقسيم مصر فكرة مستحيلة، وغير مسيحية، ولو فكرت في ذلك لحظة أنك تحفر أنفاسك للأبدية، وبعد كيف أقيم في أسيوط وأترك أديرة وادي النطرون؟ أو العكس؟! هذه فكرة غبية. هذه فكرة صهيونية من أجل تفتيت مصر. وعندما شاهدت ما يحدث في العراق قلت نجح الصهاينة، وأصبح العراق ثلاث دول. فهذه الفكرة الصهيونية ليست قصية![1]

[illegible] المسيحية في حل [illegible] في [illegible] المحتلات [illegible] المحروث بأسقفية الخدمات العامة والاجتماعية، بالكنيسة المصرية لا [illegible] وفي بعض [illegible] الأقباط [illegible]، حتى في إصرار الدولة العثمانية لم يورد الأقباط كأقلية، ولم تطلق عليهم قضية «الملة»، مقارنة بكل الأقليات

(١) (نسل والنحل والأعراق) ص ٥٢٩ ـ ٥٣٤

في المدن المتبعة حينذاك للدولة العثمانية والحرة التاريخية للأقباط تجعلهم أيضًا ليسوا بأقلية دينية بسبب انعدام انفصالهم عن مجمل الحياة العامة والمجتمع، ولأنهم ينخرطون في الحياة اليومية بالمعنى الواسع العام وليس بالموقف الديني والكنيسة القبطية لم تحقق تاريخيًا فكرة الجماعة الخاصة وتنظيماتها كنسية شرعية روحية، وليست بحياة العامة فأزمة الأقباط - إذن - هي أزمة المجتمع المصري، التي تنعكس على كل من المسلم والقبطي على السواء»[1].

[illegible] في علاقات المدن والضواحي - كان أفضل من الصيغ والمفاهيم والممارسات التي جاءت مع الاستعمار، والاختراق الثقافي الغربي - كما أثبتت هذه الشهادات!

وبحامي القبطي «ليس من حسن نصيب» يضيف «لا توجد حضارة قبطية؛ لأن الحضارة - إن شئت أن تدركها - مظهرين (مادي ومعنوي) والذي يبقى دائمًا هو المعنوي (أدب - تاريخ - فلسفة) وهنا أستطيع أقول إنه ليس هناك أدب قبطي، ولا فلسفة قبطية، ولا نظم سياسية قبطية، هناك تأثير روحي، يوناني، أما المسألة القبطية فهي خليط من ذلك، إضافة إلى تأثيرها بالمعتقدات الفرعونية، مثلًا ٢٧ كيهك - وهو الذي يقابل ٧ يناير - هو عيد ميلاد «حورس»، والمسيح لم يولد في ذلك التاريخ، كذلك فشكل «عمارة الكنيسة المصرية» هو شكل المعبد الفرعوني، ومن ثم فليس هناك حضارة قبطية، والمسيحية المصرية مسيحية محلية، على عكس الإسلام المصري فلديه بُعد عالمي..»[2]!.

أما المفكر اليساري القبطي «أوسيف يوسف» صاحب كتاب (الأقباط والقومية العربية) - فإنه يقول: «القد سادت علاقات الأقباط بالعرب، والمسلمين بالمسيحيين الاحترام والتعاون، حتى إن الوعاظ في الكنيسة لجأوا من اللغة اليونانية (التي ظلت تستعمل كلغة للدولة أيضًا من عهد البطالسة إلى عهد البيزنطيين، أي حوالي ألف سنة) إلى اللغة العربية جماعة الإثنية - بمصر - واحدة، تتكلم اللغة نفسها، وبها ثقافة عامة مشتركة وتشكل في النهاية، كيانًا اجتماعيًا واحدًا..»[3]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

• واخيرا.. الاجتهاد الخاطئ في قراءة الواقع والتاريخ

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] «والكوكبية» و«العولمة» تقتضي مسارعة [illegible] العالمي الجديد» فرادى، ودون إبطاء!

[illegible] «صحيحة» [illegible] لا علاقة لها ولا [illegible] «منطقها» ـ القائم على «التسليم بالواقع» ـ قليل من [illegible]

[illegible] لدى يفرضه عليها التقصير والتخلف أو تحديات الأعداء.

■ [illegible] ٤٨٩ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩٠م [illegible] ولم يعترف [illegible] الأمر الواقع [illegible] وانتصروا وانهزموا [illegible] لكن [illegible] الأمة [illegible] حتى [illegible] الانتصار [illegible] والأدب في خدمة الوعي بكل من حق، لا في خدمة التسليم بالأمر الواقع!

■ [illegible] الشريف [illegible] لأكثر من تسعين عامًا [illegible] ومع ذلك، لم يعترف أحد بهذا الأمر الواقع [illegible] خطاب، ولدى جميع الشعراء، حتى عادت متمتعة بعافية التحرير!

■ والأزهر الشريف.. تحول يومًا إلى «إصطبل» [illegible] جنوده، وبالوا وتغوّطوا، ومزقوا المصاحف، وعربدوا!!! [illegible] غدا ذلك سطرًا أسود في تاريخ عابر... لم يستسلم لواقعه أحد في ذلك التاريخ!

■ والجزائر.. تحولت إلى «إيالة فرنسية» وليس مجرد مستعمرة ـ قرنًا وثلث قرن [illegible] الإسلام [illegible] العربية [illegible]

برحون وكان الله عليما حكيما (﴿ ﴾ [١٠٤]

كما شديد مقولات الدعوة في الاعتراف بالأمر الواقع! من كتاب الصحف سيرة
لإعلام!.

يح! في تبديد مقولات «شهر من نفسي!» الدعوة في
أمة. كل ويجعل من هذه بتجربة لأمر تطوعي انسق مع واقع الريح!!

وحدة ـ تقف أمام عمل فكري لباحث نحترمه، ولا نشك في إخلاصه
وعقيدته وإسلامه، وهو الأستاذ الدكتور محمد جابر الأنصاري

تحليل هذه السمات، ومن ثم منح استنتاجات، مثبت وتمثل ـ في
أعماقه في التوحيد!.

لقد وقف الدكتور الأنصاري أمام «الصحراء العربية» [illegible] التي حالت دون قيام مجتمع عربي، ومن ثم دولة عربية [illegible] [illegible] الصحراء، فكانت [illegible] [illegible] وحدة الأمة، لا اليوم، ولا في المستقبل [illegible]

ووقف الدكتور الأنصاري [illegible] ٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) عن «العرب»، فأخطأ في فهم مراد ابن خلدون بـ«العرب». كما وقف أمام «مصطلح الحضارة» في فكر ابن خلدون، فأخطأ في فهم مراده بهذا المصطلح، ثم [illegible] إلى أن البداوة العربية قد حالت بين العرب وبين فن السياسة وسياسة الملك والدولة، ومن ثم [illegible] [illegible] هذه الأمة بين الوحدة.. ومن ثم كانت «الدولة القطرية» عنده هي [illegible] العدد في ميدان الوحدة العربية!..

[illegible]

يرى الدكتور الأنصاري في الصحراء العربية [illegible] طبيعية، قطعت أوصال الأمة [illegible] وحالت بينها وبين أن تبني مجتمعاً أو أمة أو دولة عبر تاريخها الطويل.. وفي ذلك يقول:

«إن هناك قطيعة مكانية داخلية بعيدة الأثر بين الأقطار والمناطق والأقاليم العربية، لم يُلتفت إليها علميًا وقوميًا في الوعي العربي بدرجة كافية، ولم تُدرس آثارها الخطيرة في طبيعة المجتمع العربي في نسيجه الموحد، وفي الحضارة العربية الإسلامية في امتدادها وتواصلها، وفي الكيان السياسي العربي قديمًا وحديثًا في تأرجحه المستمر بين الوحدة والتجزؤ.

إن هذه القطيعة المكانية تتمثل في دور المرتفعات والمواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة الممتدة بين معظم الأقطار العربية في تقطيع وتجزئة امتداده العربية عمرانيًا وسكانيًا، وبالتالي مجتمعيًا وسياسيًا، في الماضي، وفي الحاضر. وإذا دققنا النظر في خريطة التجزئة السياسية العربية على امتداد الوطن العربي كله فسنجد الصحراء هي العامل الأول والأكثر قبل الاستعمار وغيره من عوامل التجزئة. إن الصحراء هي العامل الانفصالي الأقوى في الحياة العربية، ولا يوجد بلد عربي غير صحراوي (عدا لبنان). إن المرتفعات الصحراوية قد منعت شعوب وسيج حياتي عصوي مجتمع موحد وبدوية موحدة ثابتة، متواصلة من القدم إلى اليوم. إنها معوقات ناجمة أصلاً عن الطبيعة الجغرافية»[1]!

فنحن - بناء على هذا الفهم لواقع الصحراء العربية - أمام حتمية جغرافية صحراوية ومعوقات ناجمة أصلاً عن الطبيعة الجغرافية تحول دون وحدة العرب - على امتداد تاريخهم - وبين أشواق وسيج حياتي عصوي مجتمع واحد موحدة، فواقعنا الصحراوي يحول بين وحدة، ويفرض علينا التجزئة والعمرانية، والسكانية، والمجتمعية، والسياسية!

ونحن نعتقد أن الصحراء العربية لم تحل دون سير الأمة وقيام الدولة، عندما ظهر الإسلام - ولن يقول بذلك - وكانت هذه الصحراء يومها مفازات مهلكة، وربعًا خاليًا لا يُجتاز ومجهولاً تُحكى عنه أساطير الجن وأودية الشياطين. ومع كل ذلك، توحد بسببها في عقيدة وشريعة وأمة وحضارة ودولة ودار، أرست القوى العظمى يومئذ الفرس والروم - وفتحت - فتح تحرير - في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان - سادة العالم الأوروبي - في ثمانية قرون، وحولت خط سير التمدن، وموطن قيادته، وغيرت مجرى التاريخ..

كل هذا حدث، والصحراء على ذلك النحو القديم..

فهل تحول الصحراء اليوم، بعد أن انتقل بسببها إلى الوطن ودرجات متقدمة من التوطن والاستقرار والتحضر، وبعد أن غدر حياة الارتحال وراء الماء والمرعى وبعد

---

(1) د. محمد جابر الأنصاري (تكوين العرب السياسي ومعنى الدولة) بمقالة منشورة في جريدة الحياة العدد ١٣٨٠٠ الصادر في ٢٤ يونيو ١٩٩٥م.

أن ربطته - كالحضري سواء بسواء - ثورة وسائل الاتصال بكل العالم، وليس فقط بخواصر العرب والمسلمين. فأصبح يعيش أحداث الدنيا لحظة بلحظة، بالمذياع والتلفاز والفاكس والأقمار الصناعية. هل تحول الصحراء اليوم - هذه [illegible] التي نقلت إنسانها إلى التلاحم بالعالم - دون وحدة الأمة والدولة، فتعجز [illegible] العصري عن إنجاز ما سبق وأنجزه أسلافه، في وضعها القديم وعقبالها [illegible] أربعة عشر قرنًا؟!..

ثم، ما دلالة أن يأتي الحديث عن «مرض الصحراء» وعاهتها وعقبتها [illegible] وحدة العرب كأمة، ومن إقامة دولتهم [illegible] يأتي هذا الحديث [illegible] عن تحول العالم كل العالم - وليس فقط العالم العربي إلى «قرية صغيرة» [illegible] «الكوكبة» و«العولمة»، التي لا مكان فيها حتى للخصوصيات الثقافية والقومية والحضارية..؟!

فهل «عولمتهم وكوكبتهم» لا تحول دون إلحاق وإلحاق جميع العرب بمركز عالمي واحد - والذي هو عربي! [illegible] لا تستطيع هذه «العولمة والكوكبة» إلحاق العرب وتوحيدهم جميعًا حول مركز عربي واحد؟!..

وهل صحراؤنا لا تحول [illegible] في «العالمية» بينما تحول دون [illegible] في العروبة كنسيج [illegible] وأمة واحدة ودولة واحدة، [illegible] الشعوب والقبائل والولايات والأقاليم؟!..

ثم [illegible] هل بحث الدكتور الأنصاري عن [illegible] نسبتهم إلى من يسكنون الخواصر؟ [illegible] في مصر وتونس والمغرب [illegible] واليمن وساحل الخليج نسبتها إلى مجمل السكان [illegible] سكان العالم العربي [illegible] وفي ليبيا والجزائر من [illegible] إلى [illegible] وفي [illegible] من ٥ إلى ١٥ [illegible] والصومال هو البلد الوحيد الذي [illegible]

وكل هؤلاء قد ربطتهم وسائل المواصلات بكل العالم فكريًا [illegible] كما ربطتهم ثورة وسائل الاتصال الثقافي والإعلامي بكل العالم فكريًا وإعلاميًا [illegible] فأين هي القطيعة

---

(١) أطلس معلومات العالم العربي) ص ٧٤

مكانية» التي تجري العرب عمرانياً وسكانياً ومجتمعياً فتمنع نشوء نسيج حياتي عضوي لمجتمع موحد ولدولة موحدة»؟!.

وليس من المفارقات حديث الدكتور الأنصاري عن الصحراء - «كمعوقات طبيعية جغرافية» - عامة في العالم العربي، تحول دون وحدته - إلا في لبنان الذي يخلو من الصحراء - فهل [illegible] الدكتور الأنصاري [illegible] حيث [illegible] الصحراء - كنسيج حياتي عضوي أفضل مما هي عليه في غير لبنان؟!..

إنه اجتهاد خاطئ في [illegible] الواقع [illegible] حبذا لو تمت مراجعته، وأعيد النظر فيه.

[illegible]

[illegible]

[illegible] والدولة والمجتمع، فهي [illegible] بينهم وبين حذق السياسة وبناء الملك والدولة.

حضارتهم وحضارتهم عجزاً عن المدافعة عن الملك أيضاً. فبدوتهم: عجز عن [illegible] الملك والدولة. وحضارتهم: عجز عن حماية الملك والدولة!.

[illegible]

بالعجز عن سياسة الملك والدولة، يقول الدكتور الأنصاري.

«ويشارك ابن خلدون بدوره في التعبير عن [illegible] السياسة المزمنة في حياة العرب بمقولته الشهيرة.

«فبعُدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك»[1]

[illegible]

[illegible] العرب السياسي ومعنى الدولة القطرية) ص٢١

التوحش، فلما تشبعوا بالإسلام، فتهذبت طباعهم، وساعدهم الإسلام على حذق قمة الملك والدولة وسياسة العمران؟!.

[illegible]
[illegible]
والسياسة .. فكان هذا الحكم العام القاسي والغريب!

[illegible]
[illegible]
[illegible]
أسير على الحمية) .

ولو أن قارئاً وقف فقط عند عنواني هذين الفصلين لأدرك أن هناك عرباً يحكم عليهم ابن خلدون بأنهم أبعد الأمم عن سياسة الملك وهناك عرب يحسنون الملك والسياسة، لكن إذا كان لهم حظ من الدين وعندما يقرأ القارئ ما تحت عناوين الفصول، سيجد فكر ابن خلدون شديد الوضوح في التمييز بين العرب في طور التوحش والإبعاد في البداوة، قبل التدين بالإسلام، أو عند الانسلاخ عن جوهره، وبينهم عندما جعلهم الإسلام سادة الفتوحات وأساتذة الدول والسياسات

[illegible]
[illegible]
القفار .. فكانوا بذلك أشد الناس توحشاً، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

تلك هي صورة للعرب ـ عند ابن خلدون ـ في طور «البداوة المتوحشة» [illegible] ويهدمون السقف ليتحذوا من أخشابه أوتاداً للخيام. فكيف يتحضر [illegible] كأمة عبر العصور والقرون؟!

[illegible] ولأعراق الموغلة في البداوة، [illegible] فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى [illegible]

هذه الأوصاف خاصة بفئة الأعراب الموغلة في توحش البداوة، والتي لا تعتمد إلا على الإبل وحدها، فتوغل في القفار، ولا تتخذ من الشيه أو غيره مدة تعيش [illegible]

[illegible] الإسلام في نفوس [illegible] عبر [illegible] الأعراب في [illegible] المتحضرين؟

[illegible]

يرى ابن خلدون أن الدين هو طريق العرب للبراعة في الملك والدولة والسياسة وأنهم عندما تدينوا بالإسلام حق الدين لم يكن لأحد من الخليقة ما كان لهم من الملك، فهو شرط براعتهم في الدولة والسياسة، وبدونه يعودون للبداوة والتوحش.. فيقول:

«وإذا كان الدين، كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس، يذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، فيحصل لهم التغلب والملك، وهو مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراءتها من [illegible] الأخلاق..»

[illegible] سياسة الملك.. فيقول:

«واعتبر ذلك في دولتهم في الملة - (الإسلامية) - لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتبايع فيها الخلفاء، حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم، فلما بدأوا الدين [illegible] السياسة، فتغلب عليهم العجم، ورجعوا كما كانوا لا يعرفون الملك ولا سياسته، بل قد يجهلون [illegible] أنهم كان لهم ملك في القديم، وما كان في القديم لأحد من الأمم [illegible] لأجيالهم من الملك..»[1]

[illegible] من سياقه، كما [illegible]

كذلك [illegible] الدكتور محمد جابر [illegible] بن خلدون عندما نسب إليه الحكم [illegible]

(١) المصدر السابق، ص١١٩ - ١٢١

هذه الحواضر.. فكان العجز جبلّة فيهم.. عجز عن بناء الملك إذا كانوا بدواً.. وعجز عن حمايته إذا كانوا متحضرين.

يضم الدكتور الأنصاري ابن خلدون [illegible]

[illegible] ومدى عجز المجتمع الأهلي الحضري العربي، وعجز الحواضر ومناطق العمران العربية عن حكم نفسها بنفسها وتوفير الدفاع الذاتي عن وجودها، بحيث أصبحوا «عيالاً على غيرهم في المدافعة والممانعة.. فقد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال حتى صار ذلك خُلُقاً يتنزل منزلة الطبيعة.» وهذا التعبير الخلدوني اللاذع نجده يمتد ليصور واقع التبعية العربية في عصرنا، حيث ما زالت الكيانات العربية المعاصرة «عيالاً على غيرها» في الإستراتيجية والتقانة (التكنولوجيا) والاقتصاد، مما يشير إلى أن للتبعية جذوراً في التاريخ أقدم من ظاهرة الإمبريالية والاستعمار»[1].

وبهذا التشخيص، الذي ينسبه الدكتور الأنصاري إلى ابن خلدون، يضعنا أمام «عاهة مزمنة» ثالثة، هي في رأيه من العقبات الطبيعية التي تحول بين العرب وبين الوحدة.. والسياسة.. والدولة.. والاستقلال عن الآخرين..

فالصحراء عقبة طبيعية جغرافية، مانعة من تكوين النسيج الاجتماعي العربي، ومن ثم المجتمع والدولة والأمة..

والبداوة جبلة عربية، تجعل العرب أبعد الناس عن سياسة الملك وبناء الدولة.

والحضارة عجز عربي عن حماية الحواضر والمجتمعات الأهلية والحضرية، يجعل التبعية للأجنبي ضربة لازب!..

ومشكلة الدكتور الأنصاري مع هذا الذي نسبه إلى ابن خلدون ـ من عجز العرب المتحضرين عن حماية حواضرهم ـ كامنة في عدم إدراكه لمراد ابن خلدون بمصطلح «الحضارة.. والتحضر»!.. فما نسميه اليوم «حضارة» هو «العمران» في مصطلح ابن خلدون.. أما «الحضارة» عنده فهي الترف والرفه والاستهلاك الزائد على الإنتاج،

(1) (تكوين المغرب السياسي ومغزى الدولة القطرية) ص ٢٠، ٥٠

و يعزوف عن العمل المنتج. أي النعومة والرخاوة حتى أنه يسمي هذه «الحضارة» أس الوقوف لعمر العالم في العمران والبدوية». فهي غير «العمران»، بل إنها مرحلة تراجع العمران وذلك قبل التعرب ـ بل وكل أمة عندما يدخلون طور الترف والرخاوة والرفاهية والنعومة لا بد وأن يصابوا بالعجز عن حماية أوطانهم وحواضرهم ومجتمعاتهم هذا هو المفهوم ـ الحضارة الذي لم يدركه الدكتور الأنصاري عندما قرأ ابن خلدون! وبرأيه تأمل تعريف ابن خلدون للحضارة، بأنها «أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران هي من الوقوف لعمر العالم في العمران والبدوية وذلك إنما يجيء من قبل الدولة، لأنها تجمع أموال الرعية وتنفقها في نطاقها ورجالها. فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة، ثم فيمن تعلق بهم إن خصاصة هي نهاية العمران، وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر، والبعد عن الخير»[1].

[illegible] الحديث عن عجز العرب «المترفين» وليس عن عجز العرب «المتحضرين» فمفهوم «الحضارة» و«الحضري» يختلف عن عجز مجتمعات «الشر والفساد» وليس عن عجز مجتمع «أهلي حضري» كما فهم الدكتور الأنصاري ورد هذه حقيقته وصريح نص ابن خلدون الذي يقول فيه «فأهل الحضر ـ (أي المترف عنده) ـ قد ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدَّعَة وتعمقوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى وليهم وحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم»[2]. بينما أهل الخشونة البدو كانت «قد كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع، وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد»[3].

ولو أن الدكتور الأنصاري تأمل تاريخ [illegible] وربما [illegible] لوجد أن [illegible] كانت تقوم على [illegible] في مواجهة [illegible] بسبب خاصيتهم [illegible] جيش [illegible] العرب حتى فتح [illegible] محمد [illegible] ٨٥٧هـ ٢٥٣ م [illegible] كانت [illegible] شعب [illegible] شعث، وبه

(١) (المقدمة) ص ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥، ٩٨

(٢) المصدر السابق، ص٩٩

(٣) المقدمة [illegible] ص ٥

[illegible]

[illegible] وكيف قدمت حوض [illegible] من الشهداء في ملحمة المقاومة ولم يفرطوا في الأرض والعرض والهوية [illegible] الدكتور الأنصاري ذلك - ومثله كثير [illegible] "الاستعمار"

[illegible] "المقدمة" [illegible] "وذلك أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خُلُقًا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة، واعتبر ذلك في الآدميين تجده صحيحًا"[1].

فهذا تدين العرب كانوا أقرب الناس للملك والدولة والسياسة والعمران، وحماية الممالك، ومدافعة الغزاة [illegible] وإذ نسوا الدين عادوا إلى البداوة والتوحش، فابتعدوا عن الدولة والملك والسياسة

ولما كان الترف وحقيقة الدين ضدين لا يجتمعان؛ لأن الدين صلاح وإصلاح، بينما الترف فساد وإفساد ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. فإن أهل الترف [illegible] من أي أمة أو قبيل.. هم أعجز الناس عن حماية الأرض والعرض والملك والدولة والسلطان قديما كانوا أم في العصر الحديث!..

[illegible]

---

(١) المصدر السابق ص٩٩

ولدى حق «الماروبية سياسية» ـ المشككة فى وجود الأمة العربية، والتى تستند الرابط «العربى ـ العربى» والرابط «العربى ـ الإسلامى». ليس الصحراء، وليست البداوة، فليس فى ليبيا صحراء ولا بداوة! ولدى حق أسر ض تشردوم والتجزئة وبقائه «متحضرون» لم يعرفوا البداوة ولا العيش فى البداوة!

ولدى وضع سفنك القاضية على حدود مصر والسودان خطأ بتجزئة وتقطيع الأوصال ـ هو خط العرض ـ ليس البداوة ولا تأثيرات الصحراء فالرابط هذه السفن هى عامل الوصل بين مصر والسودان، قبل تحديد الحدود وبعده. فليس الذين حددوا الحدود ورسموا خرائط المجزئة لا علاقة لهم بحياة البداوة أو سكان الصحراء وثقافتها!...

وقبائل «أولاد على» ـ البدو، القاطنون فى الصحراء الغربية ـ لا تفرق بين مصر وليبيا، فكلها عندهم وطن العروبة أو دار الإسلام. فهم الذى يقطع أوصال الأمة ويجزئ الديار هم «الحضريون» الأقدمية المثقفون ثقافة عصرية» من أبناء البدو القطرية، وأصحاب الأصوات العالية التى تتوك مصلحتها العروبة والوحدة العربية!..

والحركة السنوسية التى انبثقت من الصحراء لم تمنعها هذه الصحراء من النهوض بدور فعال فى تحضير البدو حول «الزوايا» التى أقامتها. ولا من تحويل هؤلاء البدو إلى طاقة فى المد الإسلامى الذى مثلته هذه الحركة، لا فى مقاومة الاستعمار فحسب، وإنما فى نشر الإسلام، وإقامة مستعمرات ودول إسلامية فى أقاليم إفريقية ـ من شرق القارة إلى غربها ـ متجاوزة بذلك حدود الخرائط وعقدت «لطمة عرقية» والصحراء»!..

ثم أين هى علاقة «الصحراء» و«البدو» و«البداوة» و«الحضرة» بالحدود التى ميزت بين الولايات والإمارات فى ظل دول ومستعمرات العصر الإسلامى، أو فى ظل تجزئة «سيكس ـ بيكو» ـ التى قررها وتعهد الاستعمار الغربى سنة ١٩١٦م ـ مصالح وأهداف لا علاقة لها بالحضر ولا بالبيداء!..

إن حدود التجزئة فى الوطن العربى، وخرائطه السياسية فى هذا العصر لم ترسمها مقاصد

وفواصل الصحراء والتحضر، ولا البداوة والتمدن، فصحارينا مجزأة هي والمدن جميعاً وأمراض التجزئة مصنوعة ومحروسة في مواطن البدو والمتحضرين على حد سواء!

ثم ... هل خلت البلاد الإسلامية - التي لا صحارى فيها ولا بداوة - من هذه الأمراض حتى تُعَلَّق أمراض التجزئة وآفات التشرذم على «العاهات المزمنة» - من الصحراء ... والبداوة - لتستسلم الإرادة العربية لهذا الواقع البائس الذي سقنا الوثائق المفصحة عن صانعيه؟!..

إن أخشى ما نخشاه ... هو أن تخدم الاجتهادات الخاطئة - وهي مشروعة ... بل ويؤجر عليها أصحابها! - أن تخدم هؤلاء الذين يعملون على تكريس الهزيمة لدى الأمة ... والإجهاز على آمالها في النهوض والانعتاق ... سواء كانوا من الغلاة الذين لا يرون سوى «التعددية» و«التنوع» و«الاختلاف» فينكرون «الوحدة» الجامعة للتعددية والتنوع والاختلاف ... أم من الغلاة الذين لا يرون سوى «الوحدة»، وحدة الحضارة عالمياً وإنسانياً فينكرون حق أمتنا في التميز الحضاري عن الحضارة الغربية المهيمنة!

وبين هذين الغلوين يقف الاتجاه الوسطي، المتوازن، العدل ... الذي لا ينكر وحدتنا كأمة ... ولا ينكر التعددية والتنوع والتمايز والاختلاف في إطار هذه الوحدة ... يرى ذلك حقيقة تاريخية ... ويسلكها في إطار سنن الله في سائر ميادين الخلق - التعددية في إطار الوحدة - وهي سنن لا تبديل لها ولا تحويل!

وبهذا الاتجاه الوسطي يكون التصدي لمخططات التفتيت والتفكيك ... ويكون التصحيح للاجتهادات الخاطئة في هذا الميدان!..

* * *

وبعد...

[illegible] «الوحدة» بـ«التعددية»، [illegible] في الرؤية الإسلامية.. وفي [illegible] التمايز الحضاري لأمة الإسلام..

■ فالتعددية لا تتأتى – بل ولا حتى تُتَصَوَّر – إلا إذا كان [illegible] ويستظلون برباط جامع لهم، وموحِّد بينهم.. والوحدة [illegible] أنها لا بد وأن تكون مكوَّنة من وحدات وأجزاء، بينها تنوع [illegible]

■ [illegible] والاختلاف والاتفاق والتركيب..

■ [illegible] تجديد، ولا تدافع فيه ولا تسابق على طريق الخير والتقدم [illegible]

■ [illegible] الأمة لكل [illegible] في الوجود [illegible] الاجتماع البشري وسياسة الدولة [illegible]

■ فحتى الذات الإلهية التي تفردت وانفردت بأرقى تصورات الأحدية، وأسمى [illegible] وتعجز اللغات عن التعبير عن حقيقتها!.

[illegible] لكمال الإلهي. وكذلك العديد من الأسماء الحسنى!.

■ [illegible] ﴿هذا خلق الله﴾ [[illegible]] [illegible] ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت [الملك: ٣] [illegible] ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ [[illegible]: ٢٠]

■ وهذا الدين الذي جعله الله هداية للإنسان ـ دين الإسلام ـ الطاعة لله ـ قد توحدت [illegible] في كل الرسالات السماوية، من آدم إلى محمد [illegible] ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى: ١٣].

وفي إطار وحدة هذا الدين [illegible] وتعدد وتمايز الرسالات ومجتمعاتها وعصورها ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ [المائدة: ٤٨]

■ وفي إطار وحدة الشريعة الإلهية في [illegible] [illegible] الأحكام [illegible] [illegible] في [illegible] هذا الحكم.

وكذلك الأمر في الإفتاء [illegible] من مبادئ الشريعة وقواعدها، وليست مجرد رواية وتبليغ [illegible] في [illegible] الأصل [illegible] من التعددية والاختلاف [illegible] في الفتاوى والأحكام.

■ وإذا كان الإيمان الديني هو أول حقائق الدين الإلهي [illegible] الإيمان [illegible] الحقيقة الدينية الواحدة، يضم تعددية في مراتب التصديق بهذه الحقيقة [illegible] تعددية في مستويات [illegible] بهذه الحقيقة [illegible] في مستويات المخاطبين..

■ وفي إطار النزوع الإنساني إلى المعرفة، ووحدة الحقيقة المعرفية، [illegible] نظريات المعرفة الإنسانية [illegible] الحضارية عبر المسيرة المعرفية للإنسان..

■ وكما هو الحال في رؤية الكون.. وفي التصور الديني والإيماني [illegible] في عالم المعرفة الإنسانية [illegible] والتعددية [illegible] والفنون أنفسهما في عالم الإنسان، وشئون العمران.

فوحدة الإنسانية التي خلقها الله سبحانه وتعالى [illegible] ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة [illegible] ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢)﴾ [الروم: ٣١]

■ [illegible] التي هي وحدة من وحدات الجامع الإنساني [illegible] إطارها الملل والشرائع [illegible] ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ [المائدة: ٤٨] [illegible] في إطارها [illegible] ﴿ومن آياته خلق

السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢)﴾ [الروم: ٢٢] كما تتعدد في إطار أصول شريعتها الواحدة الفرق والمذاهب والاجتهادات التي تتمايز وتختلف في الفروع التي تجمعها ذات الأصول..

■ وفي إطار الفروع الإنسانية يأتي التحضر والعمران - باقامة التراكم في المعرفة - على الدوام بهدف الواقع، والتراكم في الثقافة؛ التي تهدف أساساً إلى الإبداع والتنوع وتتغير الحضارات، وتبقى الشيء الذي لا يتغير في الحضارة هي الكونية، وعلاقة الفرد بالأمة، ومكانته في الأسرة، ومكانة الأسرة في المجتمع، وموقع الإنسان من مسقط رأسه، ومن الشروط، وعلاقة المحلي بالعالمي، والنوع بالمثل والمعايير والعادات والأعراف..

فأينما يمم الإنسان وجهه، وأعمل فكره، ومد بصره، وتفتحت بصيرته، وفقه قلبه، وتدبر عقله رأى سنة الله التي لا تبديل لها ولا تحويل - بوحدة الجماعة الأولى من التعددية والتمايز والاختلاف والتعددية المستمدة وحدتها بجمع الوحدة في كل عوالم الخلق. المادي منه والفكري، الحيوي منه والإنساني، العالمي منه والمحلي، العام منه والخاص..

■ وقد كانت هذه الصفة الإسلامية لعلاقة الوحدة بالتنوع، وعلاقة التعددية بالوحدة هي التي جعلت الإسلامية الجماعة التي تتألف من التنوع والوحدة الجماعة التي هذه يجمعها وسطاً متوازناً بين غلو الإفراط والتفريط

غلو الإفراط الذي لا يرى سوى الاختلاف فيكون تشرذماً لا تنوعاً

وغلو التفريط الذي لا يرى سوى الوحدة فيقهر صفات التعددية والاختلاف والتمايز.

ومن ثم أصبح هذا الوسط الجماعة هي وحدها الكفيلة بجعل هذه الأمة «أمة» تتزأى من القهر الشمولي، ومن الفتنة» تنشب وتلتهب على حد سواء!

لذلك هي حتمية الرؤية الإسلامية لهذه الخصائص القيمية المتعددة التي يتألف منها جوهر الوجود الإنساني أن يكون هذا التعدد في إطار وحدة تجمعها

[illegible] الاستطلاع [illegible]، وإنما تكون هذه الرؤى تنوعاً وتمايزاً في [illegible] الجوامع الواحدة والموحدة: وحدة العقيدة، والشريعة، والأمة، والحضارة، ودار الإسلام [illegible] وسيزدهر بعد ذلك التعددية في إطار هذه الوحدة التي أرادها الله لأمة الإسلام..

وصدق الله العظيم:

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (٩٢)﴾ [الأنبياء: ٩٢]

﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨)﴾ [المائدة: ٤٨]

* * *

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

• كتب السنة:

١ ـ صحيح البخاري . طبعة دار الشعب . القاهرة .

٢ ـ صحيح مسلم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م

٣ ـ سنن الترمذي . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م

٤ ـ سنن النسائي . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤

٥ ـ سنن أبي داود . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م

٦ ـ سنن ابن ماجه . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م

٧ ـ سنن الدارمي . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م

٨ ـ الموطأ ـ للإمام مالك ـ طبعة دار الشعب . القاهرة

٩ ـ مسند الإمام أحمد . طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ

• معاجم القرآن:

١ ـ معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . وضع [illegible] في [illegible] الشعب . القاهرة

٢ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم . وضع مجمع اللغة العربية . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م

٣ ـ [illegible] في غريب القرآن [illegible] الأصفهاني . طبعة [illegible] القاهرة سنة ١٩٩٠م

٤ ـ معجم المفهرس لألفاظ حديث النبوي الشريف . وضع [illegible] وآخرين . طبعة لندن سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩م

٥ ـ مفتاح كنوز السنة . وضع . ونسنك (أ . ي) ترجمة [illegible] طبعة لاهور سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

• المصادر والكتب الاخرى:

آدم متز: [illegible]

عبدالهادي أبو ريده. طبعة بيروت سنة ١٩٦٣م

- ابن أبي الحديد: [illegible] طبعة [illegible] سنة ١٩٥٩م.

ابن تيمية، [illegible]

- ابن حزم الأندلسي: [illegible] سنة ١٩٨٠م

(مناضمة بين الصحابه)

- ابن خلدون: (مقدمة) طبعة القاهرة سنه ١٣٢٢هـ

ابن رشد: [illegible]

دراسه وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣م

- (تهافت التهافت) طبعه القاهرة سنه ١٩٠٣م.

ابن السيد البطليوسي، أبومحمد عبدالله بن محمد: [illegible]

والأسباب التي أوجبت لاختلاف بين المسلمين في [illegible]

رضوان الداية. طبعة دمشق سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

- ابن عساكر: (تهذيب تاريخ ابن عساكر) طبعه دمشق

- ابن القيم: (إعلام الموقعين) طبعه بيروت سنة ١٩٧٣م

[illegible] طبعة [illegible] سنة ١٩٧٧م

- ابن منظور: (لسان العرب) طبعه دار المعارف القاهرة

أبوالبقاء الكفوي، [illegible] دمشق سنة ١٩٨١م

- أبوحيان التوحيدي: (الإمتاع والمؤانسة) تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين طبعة القاهرة سنه ١٩٤٤م

(المقابسات) تحقيق محمد توفيق حسين. طبعة بيروت سنة ١٩٨٩م.

دكتور أحمد حسين الصاوي: [illegible] سنه ١٩٨٠م

أرنولد: (الدعوة إلى الإسلام)، ترجمة: د. حسين إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل البحراوي، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

الأفغاني (جمال الدين): (الأعمال الكاملة دراسة وتحقيق) د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

- أمين سامي (باشا): (التعليم في مصر) طبعة القاهرة سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م.

أنا ماري شيمل: (صحيفة الحياة) لندن، عدد ٢، ٢ مايو سنة ١٩٩٦م

- الإيجي، والجرجاني: (شرح المواقف) طبعة القاهرة سنة ١٣١١هـ

- الباقلاني: (التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة) تحقيق: محمد محمد الخضيري، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧

- البلخي، والقاضي عبد الجبار، والحاكم الجشمي: (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م

التهانوي: (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند سنة ١٨٩١م

- تيدروبرت جار: (أقليات في خطر) تعريب: مجدي عبد الحكيم، سامي الشامي، طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

التيفاشي: (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار) تحقيق: د. محمد يوسف حسن، د. محمود بسيوني، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م

- الجاحظ: (رسائل الجاحظ) تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م

(كتاب الحيوان) تحقيق عبد السلام هارون. طبعة القاهرة الثانية

الجرجاني (الشريف): (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م

- جمال الدين عطية: (النظرية العامة للشريعة الإسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٨م

(النظر الفقهي) طبعة القاهرة سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- دكتور جورج قرم: (تعدد الأديان ونظم الحكم) طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م

الجويني (إمام الحرمين): (الإرشاد) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م

جياني ديمكليس: صحيفة الأهرام في ٧ يونيو سنة ١٩٩٠م

الدهلوي (ولي الله): (حجة الله البالغة) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ

- امراري (الفخر): (تفسير الكبير ومفاتيح الغيب) طبعة بيروت سنة ٤٠٠ هـ ٩٨ م
- دكتور رضوان السيد: (دراسة وتحقيق ونشر) طبعة بيروت سنة ١٩٨٤م
رفيق البستاني، فيليب فارج: (أطلس معلومات العالم العربي) طبعة القاهرة سنة ٩٩٤ م
- ركي محيب محمود (دكتور - شرف): (موسوعة بيستقيه المحضرة) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م
الزمخشري: (الكشاف) طبعة القاهرة سنة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م
- زيب عطية محمد: (أصول العلوم الإسلامية من القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.
دكتور سعد الدين إبراهيم: (النص والسلطة والمجتمع المدني في الوطن العربي) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م
: (التعددية الإثنية في الوطن العربي) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م
(المجتمع المدني في الوطن العربي) طبعة القاهرة سنة ٩٨٨ م
- سلامة موسى: (اليوم والغد) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م
د. سليم نجيب [الأقباط عبر التاريخ] طبعة القاهرة - دار نجيب ٢٠٠٠م
- سيد قطب: (في ظلال القرآن) طبعة بيروت سنة ١٤٠٧هـ - ٩٨٧ م
- السيوطي (جلال الدين): (حسن المحاضرة) طبعة القاهرة ٣٨٢ هـ
(كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض) طبعة بيروت سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
الشاطبي: (الموافقات في أصول الأحكام) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة القاهرة - محمد علي صبيح (د. ت)
- الشافعي: (الرسالة) تحقيق أحمد محمد شاكر طبعة بيروت المكتبة العلمية (مصورة عن طبعة القاهرة
شئون دولية: (مجلة) تصدر عن جامعة كفر الشيخ - العدد الأول سنة ٩٩١ م
- شنودة (الثالث - البابا): (عظات الأهرام) عظة ٦ من سنة ٩٩٥ م

- الشهرستاني: (الملل والنحل) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١هـ
- (نهاية الإقدام في علم الكلام) تحقيق [illegible]
- صامويل . ب. هانتنجتون: (صراع الحضارات) [illegible] (الحرس الوطني) السعودية، عدد ذو القعدة [illegible] إبريل سنة ١٩٩٦م
- صفي الدين عبدالمؤمن البغدادي: [illegible] تحقيق: علي البجاوي، طبعة القاهرة سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م
- صفي الرحمن المباركفوري: [illegible] ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م
- دكتور صلاح الصاوي: [illegible] ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م
- الطباطبائي، محمد حسين: (الميزان في تفسير [illegible] ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م
- الطبرسي: (جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد)
- دكتور طه جابر العلواني: (أدب الاختلاف في الإسلام) طبعة واشنطن سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧.
- : (أصول الفقه الإسلامي) طبعة واشنطن سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م
- دكتور طه حسين: [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م
- الطهطاوي (رفاعة رافع): [illegible] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- عبدالرحمن عبدالخالق: (الرد الوجيز على الشيخ ربيع بن هادي المدخلي) طبعة سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م [illegible]
- دكتور عبد الرزاق السنهوري: [illegible] الشخصية) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م
- [illegible] ٢٠٠٦م
- عبدالجليل عيسى: [illegible] ١٩٩٥م

- عبدالله إبراهيم صلاح : (القرافي وأثره في الفقه الإسلامي) طبعة مالطا سنة ١٩٩١م.
- عبدالوهاب الكيالي (دكتور ـ محرر) : (موسوعة السياسة) طبعة بيروت سنة ١٩٨١.
- علي بن أبي طالب (الإمام): (نهج البلاغة) طبعة دارالشعب ، القاهرة.
- دكتور غالي شكري: صحيفة (الوفد) ـ القاهرة ـ عدد ٢١ يناير سنة ١٩٩٣م.
- الغزالي (أبوحامد) : (تهافت الفلاسفة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م
: (الاقتصاد في الاعتقاد) طبعة القاهرة ـ مكتبة صبيح ـ (د. ت).
: (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.
: (فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام الغزالي) ترجمها عن الفارسية د. نور الدين آل علي. طبعة تونس ١٩٧٢م.
: (المضنون به على غير أهله)
: (القسطاس المستقيم).
: (إلجام العوام عن علم الكلام).
: (الرسالة اللدنية) طبعة القاهرة ـ ضمن مجموعة «القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي» ـ مكتبة الجندي.
- القرافي (شهاب الدين): (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام) تحقيق: عبدالفتاح أبوغدة. طبعة حلب سنة ١٩٦٧م.
: (كتاب الأمنية في إدراك النية) تحقيق: عبدالله إبراهيم صلاح. طبعة مالطا سنة ١٩٩١م.
- القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية. القاهرة.
- الكواكبي (عبدالرحمن) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م. وطبعة دار الشروق ـ القاهرة ٢٠٠٧م.
- المالكي، أبوعبدالله محمد بن فرج: (أقضية رسول الله (ﷺ) تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨م.
- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : (المنتخب في تفسير القرآن) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.

ـ مجمع اللغة العربية : (المعجم الفلسفي) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.
: (المعجم الكبير) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.
ـ محمد أمزيان : (منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية) طبعة واشنطن سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
ـ دكتور محمد جابر الأنصاري : (تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية : مدخل إلى إعادة فهم الواقع العربي) طبعة بيروت سنة ١٩٩٥م.
ـ محمد حسنين هيكل : (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) ـ الكتاب الأول ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦.
ـ محمد حميد الله (دكتور ـ محقق) : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
ـ محمد رشيد رضا : (تفسير المنار) طبعة دار المعرفة . بيروت.
ـ محمد السماك : (الأقليات بين العروبة والإسلام) طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.
ـ محمد عاطف غيث (دكتور ـ محرر) : (قاموس علم الاجتماع) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.
ـ الأستاذ الإمام محمد عبده : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.
: (رسالة التوحيد) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
ـ محمد الفاضل بن عاشور : (التحرير والتنوير) طبعة تونس سنة ١٩٨٤م.
: (روح الحضارة الإسلامية) طبعة واشنطن سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
ـ دكتور محمد عمارة : (تيارات الفكر الإسلامي) طبعة القاهرة سنة ١٩٩١م.
: (الإسلام والسياسة) طبعة القاهرة سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
: (الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟) طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٨م.
: مجلة [المنار الجديد] العدد ٣٩ ـ صيف سنة ٢٠٠٧م [عن الكنيسة والدولة والفتح الإسلامي لمصر].
: (هل الإسلام هو الحل. لماذا. وكيف؟) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.
ـ مراد وهبة، يوسف كرم، يوسف شلالة : (المعجم الفلسفي) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

- م. روزنتال، ب. يودين: (الموسوعة الفلسفية) ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
- دكتور مصطفى حلمى: (نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى) طبعة دار الدعوة - الإسكندرية.
- المقريزى: (السلوك لمعرفة دول الملوك) تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
: (الخطط) طبعة دار التحرير. القاهرة.
: (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) تحقيق: د. جمال الدين الشيال طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.
- مكسيموس مونزوند: [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب] ترجمة مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.
- المودودى (أبو الأعلى): (نظرية الإسلام السياسية) ترجمة: جليل حسن الإصلاحى. طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م.
: (الحكومة الإسلامية) ترجمة: أحمد إدريس. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.
: (المبادئ الأساسية لفهم القرآن) ترجمة: خليل أحمد الحامدى. طبعة الكويت سنة ١٩٧١م.
- ميشيل عفلق: (الكتابات السياسية الكاملة) طبعة بغداد سنة ١٩٨٧م، ١٩٨٨م.
- دكتور ميلاد حنا: (نشرة «المجتمع المدنى» - يصدرها «مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية» عدد ٥٠ فى فبراير سنة ١٩٩٦م.
- النفّرى: (المواقف والمخاطبات) تحقيق: آرثر أربرى: تقديم د. عبدالقادر محمود. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥م.
- نيكسون (ريتشارد): (الفرصة السانحة) ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
- الواحدى النيسابورى: (أسباب النزول) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
- ويلى كلايس: (صحيفة «سكوتسمان») - الأمريكية - عدد ٢٧ فبراير سنة ١٩٩٥م.

* * *

هذا الكتاب

- فى الإسلام تبلغ التعددية مكانة « السنة » و« القانون » الإلهى، الذى لا تبديل له ولا تحويل ..
- فهى ليست مجرد حق من حقوق الإنسان، يخضع للمنح .. والمنع . والتنازلات .. والمساومات!..
- وهى ــ أيضا ـ لاتقف عند السياسات .. وانما هى القانون العام فى جميع أنحاء عوالم المخلوقات .. من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان إلى الأفكار .. فما عدا الذات الإلهية قائم على التعدد والتنوع والاختلاف.
- لكنها لاتصل إلى التفكيك .. والتفتيت .. وخاصة فى الثوابت والأصول، التى تمثل الوحدة والأرض المشتركة، التى تحتضن التنوع والاختلاف ..
- ولتقديم المذهب الإسلامى المتميز فى فلسفة التعددية .. وتطبيقاتها .. ولكشف الغموض فى هذه المعضلة الفكرية .. يصدر هذا الكتاب ..